الإسلام والمسلمان
وجه لوجه

مصطفى الفضلي

المؤسسة المصرية للثقافة والفنون
الإسلام والعالمية
وجهًا لوجهًا

المشتر
كمية وعيب
145 شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة، تليفون 3917470
الحمد لله، وصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

وفي سنة 1985 م، كنت في مدينة بون في ألمانيا الغربية للعلاج من ألم أصاب العمود الفقري، وكانت تأتيني ما بين حين وآخر، بعض الصحف العربية، ومنها صحيفة الأهرام القاهرة، وفي أحد الأيام، قرأت فيها مقالة للدكتور فؤاد زكريا، يذكر فيه ضرورة الحوار مع الدعاء إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، نظرًا لخطورة الموضوع، والتسامع القاعدة، التي تنادي به، وعدم قيام حوار من هذا النوع، رغم أهميته لحاضر الأمة ومستقبلها.

وكان أول ما لفت نظرتي، أنه جعل عنوان هذا الموضوع الكبير عميقًا المسألة الدينية في مصر المعاصرة؟ والكتاب - كما يقولون - يقرأ من عنوانه، ففهمت أن هذه هي مكانة الدين في نفس الكاتب، الدين الذي هو روح الحياة، وحياة الروح، وجهرد الوجود الإنساني كله، لا يعدو أن يكون في تفكير كاتبنا غير مسألة من مسائل الحياة، التي تشغل الناس فترة من الزمن؛ مثل: تداخل خطوات الهاتف، أو انقطاع الماء عن الأدوار العليا في النهار، أو ارتفاع سعر الدولار في السوق، ونحو ذلك...

ثم لاحظت أنه بسبيها المسألة «الدينية»، وليست «الإسلامية»، فالكتاب العلمانيون حريصون، كل الخصر، على إبعاد كلمة «الإسلام» من قاموسهم، ما استطاعوا، واستخدم كلمة «الدين»، وذلك لتبني المعنى الدخيل المستورد، وهو التفريق الجامب بين ما هو دين، وما ليس بدين، من شؤون الحياة المختلفة.

وهو معنى غريب على الفكر الإسلامي، والحياة الإسلامية.

ومع هذا، غضبت الطرف عن العنان، وبدأت أقرأ المقال الأول، وأنا أقول...
ففي نفسى: هذه بداية طيبة، فما أُحوج أبناء مصر، وأبناء العربة، وأبناء الإسلام، إلى أن يتآحالوا بالفكر، بل أن يتبادلوا بِالْجِهْرِ، أو يتبادلون بالسلاطمة؟ ولكن ما أن انتهى د. فؤاد زكي، من مقالاته، ومن التعقبه بعد ذلك على منتقبيه، حتى شعرت، بأنَّهُ قد حاب في جدية دعوة الدكتور للحوار، مع التيار الإسلامي؟ وذلك لجملة أسباب:

1- أن الكاتب لم يكن يحمل قلمًا للحوار، بل سيفًا للهجوم، واستغسل المساحة الكبيرة، المعطاة له في الصحيفة، للتشكيك في المسائل الأولى عند الأمة الإسلامية، طوال أربعة عشر قرًا من الزمان، حتى اجتاز على التشكيك في أن الشرعية من عند الله! ورغم أن كل ما هو إلهي، يقلب بشريًا صرفًا، يجبر تفسيره وتطبيقه. ومعنى هذا أنَّهُ لا فائدة ولا مبرر أن ينزل الله للناس كتابًا، أو يلزمهم بشريعة، يبعث بها رسولًا.

2- أنه لم يحاول أن يتنازل عن شيء من أفكاره، لِيقترح من دعاة الإسلام، بل كان أعلى هم أن يتنازلوا هم عن أفكارهم، بل عن عقيدتهم وشريعتهم ومنطلقاتهم الأساسية لِيقترحوا منها، ولأنت شعري، كيف يتم حوار على هذه الصورة؟

إن القرآن ذكر في جدل أهل الكتب، أربعة رؤوس:

الأول: أن يكون باللَّهِ أَحْسَنَ، قلَّوْا كان هناك أسلوبان؟ أَحْسَنَهُما: حسن، والآخر: حسن منه، لَوْ جِدَّ نَعْمَهُ أنَّ تُصَلِّي الْجِهْرِ هو أَحْسَنُ.

الثاني: التذكير بنطاق، الذي من شأنه أن يجمع، ولا تفرق.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْحَقِّ إِنَّهُ هُوَ أَحْسَنُ سُوَاتٍ﴾ (المؤمنون１) ﴿وَقُولُوا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّذِرْ إِيَّاْنَا وَأَنْذِرْ إِيَّكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا وَلَا تَرْضَيْنَ﴾ (المؤمنون１).
هذا قرآن طريقه الحوار، أما طريقه د. زكريا، فإنها تهدم ولا تبنى، وتفرق ولا تجمع، وتباعد ولا تقرب.

3 - أن الكاتب كان يلوي أعقاب الحقائق ليا، ويتفحص في التفسير والتأمل، ولو كانت الحقائق - أمامه - في وضوح الشمس في ضمي صفي الغزارة، وكلمة

عن الشريعة الإسلامية، وعن الصحوة الإسلامية ينطق بذلك بجلاء.

4 - أنه حين رأى عليه بعض المعلقين، قطع أوصال تعليعاتهم، وانتهى منها ما خلا له، فألقاه، وحذف ما شاء، وقطع كلمات ناقده عن سباقها وسياقاتها، ومنهم علماء ومؤرخين وآباء الأندلس، ثم بلحص ما قاله في سطورين أو ثلاثة.

كما أن صحيفة الأهرام، لم تكن منقسمة في الحكم بين طريقي الحوار، فأعلنت كل الحرية للدكتور WooCommerce د. زكريا، ولم تنظر في ناقده منهم ما أعطت، بل حولت ذبائح وانتقاداتهم إلى الكاتب نفسه، يأخذ منها ويدع، على طريقه لا تتبّر الصلاة (1). حتى أن الداعية الإسلامية الكبير الشيخ محمد الغزالي بحث بمقالين إلى "الأهرام" حول الموضوع، فلما نشر أيا منها، ولم يشر إليه، وغطت ذلك بأن دعته إلى المشاركة في ندوة أدارتها الأهرام داخلها، يتكلم فيها الشيخ نصف ساعة، ثم يلخص ما قاله في سطورين أو ثلاثة.

ويعد ما جعلني أعلق على دعوة الحوار، التي أعلنها د. زكريا، أنها أشبه بسباق، يعدون في حرص واحد.

ولقد تبين لي فيما بعد - أن هذه المقالات، التي جمعها صاحتها وأودعها ضمن كتاب له، خطط لها العلمانيون ضد الشريعة الإسلامية ودعاتها، فقد صدرت لهم عدة كتاب، تهاجم الشريعة وتقسيها قدماً، والداعين إليها حديثًا.

كما فسحت لهم صحف، معروفة صدرها، ليكتبوا في هذا الاتجاه ما شاءتهم لهم أهواهم، فضلًا عن مجلاتهم الخاصة، التي تتعذر عن اتجاههم بصراحة، حيث لم يسمح للنيل الإسلامي، الذي يعتبر عن القاعدة العريضة للآمة، أن تكون له مجلة تتحدث باسمه.

(1) النسخة: 43.
وقد أشار إلى هذه المؤامرة المسماة الكاتب المسلم البقظ الاستاذ فهمي هودوي في مقالاته، التي تنشر في "الأهرام"، وفي عدد من الصحف العربية في الأردن والخليج. وهنّأ أن هناك "منظمات مترفعة" للعلمانيين، يبيّن أن نُدئن، كما دينت تنظيمات دينية مترفعة، مثل التكفير والهجرة. وقال: إن الفرق بِين الاثنين هو أن الأولى "الدينين" شباب مندفع، سلك طريقه على سبيل الخطا، وان الأخرين شيوخ مجريون - بعضهم محترفون، اتخذوا مواقعهم عمدًا، ومع سيق الإصرار والترصد.

قال: وليس في الأمر مبالغة، فنحن نستطيع أن نرصد - خلال العاملين الآخرين، على سبيل المثال - فريقًا من هؤلاء، فلغ هذه، ونذر نفسه، للحيل من الشريعة، وتنفي الحياة الإسلامية، وتغيير التاريخ الإسلامي ورموزه.

فلا دعت اللجنة الثقافية في نقابة الأطباء بالقاهرة إلى عقد ندوة، يحاور فيها الإسلامون والعلمانيون، دعتي من فضيلة أستاذنا الشيخ الغزالي لتمثيل الجانب الإسلامي، كما دعت عددًا من دعاة العلمانيين منهم: د. فرج فودة، ود. وحيد رأفت، ود. فؤاد زكريا، واعترض أكثرهم، ولم يحضر منهم إلا الآخر. وقد رجب هذا الحوار، وهذه الندوة، حيث يلقى الطرفان وجهًا للوجه، لمناقشة قضية، هي أخطر قضايا الساعة.

وفي اليوم المحدد للنُدوة، شهدت قاعة "دار الحكمة" جمهورًا، قال أن توازى الاحترام وندوة، ضاقت به الباب وما حولها، وجلس الناس على الأرض، وصعدوا إلى السلم، ووقفوا في الشارع، وإنصرف الكثيرون، حيث لم يجدوا لهم شبهًا من الأرض.

كانت الندوة أشبه باستفتاء شعبي على "الإسلام والعلمانية"، أيهما يختاره الشعب، وقال: فؤاد زكريا، في بداية حديثه: "إن الوعى بـ "الإسلام في مواجهة العلمانية"، وهذا يعني أن المعركة محسومة من أول الأمر لصالح الإسلام. وهو اعتراف صريح منه، بأنه عند المفاصلة بين الإسلام وغيره، فإن الكفة الراجحة - دائمًا - تكون هي كفة الإسلام."
تتكلم شيخنا الغزالي، ثم تكلم د. فؤاد زكريا، ثم تكلمت، ثم طلب الدكتور أن يعقب على كلماته، فأعطيته له الفرصة كاملة، فتكلم واطال، وهو الوحيد الذي تكلم مرتين، رغم أن أكثر من في الجامعة متضجرون من كلامه. وكان المفترض أن أرد على تعقيبه؛ لأنه يتعلق بكلامه، ولكن الوقت كان قد طال، فتركنا الحكم للجمهور، وهو قد حكم - فعلاً - بما لم يرض د. فؤاد، وجماعته.

ثم تكلم الكاتب المسلم الغيور، الأستاذ عادل حسن، رئيس تحرير جريدة الشعب، حيث صاحب بعض ما ذكره عنه د. زكريا، واتبعت الضوء على بعض النقاط المهمة. وتكلم يد أحد الحاضرين من مؤيدي العلمانية، كلامًا، فيه كثير من التشجيع والإسفاف والخروج عن أدب الحوار، وثار عليها الجمهور، ولكن المشرفين على الندوة: د. عصام العريان، ومن معه، كانوا غاية الحزم والحكمة، وحسن التنظيم، فاستطعوا أن يلزموا الجمهور باحترام النظام.

وفي الختام عقب على الندوة، بكلمة معرفة جامعية، المستشار الجليل الأساتذة طارق البيري. وعقبها انصرف الحضور، بسلام.

كانت هذه الندوة ندوة تاريخية مشهورة، تحدث عنها جميع الصحف: القومية، والحرية، والإسلامية، اليومية، الأسبوعية، والشهرية، كل من وجهة نظره، واتخذت البعض تفحصًا حسنًا، وتعد بعضها أن يظهره تشكيبًا؛ مثل صحيفة «الأهاليه»، و«الوفد»، مما اضطر جريدة «الشعب» أن ترد عليهما، واضعة للأمور في نصابها.

ولكن أعجب تعقيب على الندوة، كان هو الذي صدر عن أحد أطرافها، وهو د. فؤاد زكريا، الذي كتب في مجلة «المصري» عن الندوة، كلامًا خلا من العلمية والإنصاف. اتهم في الجمهور، الذي شهد الندوة، وجلهم - إن لم يكن كلهم - من الشباب الجامعي المستقبلي. وفيهم كثير من صدما المثقفين. بل اتهم شيخنا الغزالي، واتهمني، بأننا كنا نخطب العواطف، أكثر مما نخطب العقول، وهو كلام باطل مخالف لواقع الندوة تمامًا، كما يشهد بذلك كل من
حضرها، وفيهم كثير من رجال العلم والتربيّة وأساتذة الجامعات والقانون.

وقد لاحظ الكثيرون من فراغ كلام الدكتور زكريا، أنه صب جام سخطه وغيظه على آنا خاصة.

والحق أن هذا لم يكن لضعف ولا لفتوى، بل لضعف الباطل الذي نصب نفسه للمحاامة عنه، ولقوة الحق الذي كرمني الله بالدفاع عنه.

إن من سوء حظه أنه يدافع عن قضية خاسرة، يدافع عن "العلمانية" في مجتمع يؤمن بالإسلام.

وقد اتهم الدكتور الإسلاميين بأنهم بكرموا وملقوا مقاعد قاعة دار الحكمة. وهو يتواجه - أو يوهم - أن هذا كان يتخطيط وترتيب واتفاق! ويعلم الله أن شيئًا من هذا لم يحدث. كل ما في الأمر أن الناس دعوا إلى ندوة في قضية تشغلهم فاجابوا.

وهو أن الندوة كانت في قاعة المحاضرات الكبرى بجامعة القاهرة، بل هبها كانت في "استاذ" القاهرة الدولي، وفتح الباب على مصراعي للحضور، فأي الفريقين سيكون أكثر عددًا وأعز نفرا؟!

إن أنصار الإسلام - ولا ريب - سيكونون هم الأكثرية العظمى. وستكون قلوب الجماهير الخاضرة وعقلها وآذانها مع النهار الإسلامي ودعاته. وهذا ما لا يجهله د. فؤاد زكريا، بل هو ما اعترف به بصريح العبارة، وفعل أن يجد له تبريراً، فلم يوفق. أما ما قاله على أنه است 유지 على الجماعي بالتأثير العاطفي، فإن الذين شهدوا الندوة علمون علم اليقين أنى كنت في البقوم الأول عقلانًا وموضوعيًا ومنطقيًا إلى أبعد حد. ومن شيء نفيتهكم إلى شريط الندوة المسجل بالصوت والصورة.
كما زعم أنى كنت أرفع صوتي وأخفضه، للتأثير على عواطف الجمهور.

وأنا - بحمد الله - أرفع صوتي دائمًا ولا أخفضه. وأساليه تعالي أن يجعل صوتي دائمًا عاليًا، وأن يجعل علويه بالحق وللحق.

إن الدكتور الفيلسوف مغني ومحقق، لدعم تجاوب الجمهور معه؛ لأنه يؤذن في "صالحة" - كما يقولون - وأؤكد للدكتور أنه سيظل يؤذن في صالحة، إن جار لانا أن يناع وإما يقوله بالاذان؛ لأنه يتجلى على خط مستقيم، ولكنه يقولون: الامثال لا تغير. أجمل، سيظل الدكتور بعيدًا عن عقول الجمهور، وقلوبهم معًا؛ لأنه يحدثهم مفاهيم مستقلة من ديار أخرى، ومن قوم آخرين، فهم لها رافضون عنها معرضون؛ لأنها مناقضة لديهم وشرعتهم، وقيمهم وتاريخهم، وواقعهم.

من هنا اتجه تفكيري إلى أن أرد على علويه د. فؤاد زكريا خاصًا، وعلى العلمانيين عامة، في كتاب يُقرأ، لا في محاضرة تسمع، بعيدًا عن تأثيرات تغذية الصوت، وتشجيع الجمهور، وساعمو الدكتور أننا - دائمًا - أصحاب الحق الأقوى، والمنطق الأسد، سواء حاضرون أم كتبنا؛ لأننا نعبر عن الحق، الذي قامته بسماوات الأرض، وال الحق أحق أن يُبْتِج، وأولى أن يُبْتِج، والباطل مهما اتقدموا واستطاعوا، فهو لا بد من زائل، وقله جاهز اذهل ورمح الباطل، إن الباطل كان زهوجًا.

ومعًا اخترت د. فؤاد زكريا، للرد عليه من بين دعاع العلمنانية في مصر؛ لأنه نشر مقالاته في أوسوم الصحف انتشرها، ولانه الوحيد، الذي اشتهر مثلاً للجابر العلماني في الدورة التاريخية بدار الحكمة؛ ولانه أكثر العلمانيين إبناء عن فكرته، وأقدرهم على إعداد الشهادات، وسخراها في صورة البراءين، وأجزؤهم على مناقشة القضايا من جذورها، وإن كانت مجانية لأوضاع السلطات الدينية.

إذا هدمنا كل ما استند إليه، وما تبقى وورقة من مقولات، فقد سقط كل العلمانيين، وسيسقط مقولاتهم، وذهب زبدهم جفاء، وبقى ما ينتج الناس.

(1) الإسراء: 81
وقد أدرت الحوار في هذا الكتاب، حول جملة أمور أساسية:

1- تحديد المواقع أو الهويات لكل من الطرفين المحاربين، من أول الأمر،
وي أسهم كل منهما؟

2- تحديد المفاهيم الرئيسية في الحوار، وخصوصا المفهومين الكبيرين:
"الإسلام والعالمانية".

3- تحديد المعايير، التي يجب أن يرجع إليها عند الخلاف، ويرتبطها الطرفان
حكمًا بينهما.

4- تحرير موضوع النزاع بين الفريقين، بحيث يعرف النطق عليه، و المختلف فيه.

5- تتبع الشبهات المهمة، التي أثارها د. فؤاد زكريا خاصة، والمتعلمين
عمامة، لتفنيدها، والرد عليها، وخصوصا فيما يتعلق بمعركة التحرر الحقيقي للعالم
الإسلامي اليوم، وهو التحرر من كل ألوان الاستعمار، وفي مقدمته الاستعمار
الثقافي والتشريعي، لهذا خصصنا معركة تطبيق الشريعة بمزيد من الحديث.

كذلك أدرنا حديثًا عن "الصحوة الإسلامية"، وموقف الاستعمار والصهيونية
منها، ورد مزاعم الدكتور حولها، وتركنا أشياء أخرى مهمة في الرد على
العلمانيين، سيتضح أنها - إن شاء الله - الجزء الثالث من سلسلة "حنمية الخل
الإسلامي"، وهو قريب الصدور، بتأكيد الله.

أسأل الله أن يرفع بهذا الكتاب، مؤلفه، وقارئه، وناشره، وموزعه،
و طابعه، وكل من أسهم فيه، وأن يكون شعاعًا على الطريق، يهدى ويضيء...
و الله يقول الحق وهو يهدى السبيل ...

 يوسف القرضاوي

 الدوحة .. غرة رجب 1407 هـ
لكي يثمر الحوار

هناك أشياء أساسية، نحتاج – لكي يثمر الحوار – إلى تحديدها، بدقة ووضوح، حتى لا تلتقي الأمور، ولا تختلط الأوراق، ولا يكون الحوار جدلاً بيزنطيًا، لا يكشف عن غاية، ولا يهدى إلى طريق.

من هذه الأمور:

1 - تحديد المواقع، أو الهويات.
2 - تحديد الفاهيم.
3 - تحديد المعايير.
4 - تحرير موضع النزاع.

وستفرد لكل منها حديثًا خاصًا به، ثم نرد على الشهادات الأساسية التي تعلق بها دعاة العلمانية.
تحديد المواقع أو الهويات

أعني بتحديد المواقع، وبعبارة أخرى تحدد الهويات: أن يحدد كل من الطرفين المتحاربين أي هو وما هو؟ فلا يسوغ في مفتاح أن تجادل في الفروع، من لا يؤمن بالأصول، أو تقنع بالشريعة، من ينكر المكيدة.

فالطائفة الملحمة، الذي يكرر الغبيبات كلها، ولا يؤمن بشيء وراء المادة، التي يدركها الحس، ويعتقد أن الله خرافة، وأن الأديان - كل الأديان - أفون الشعوب، ولا يؤمن بأن هناك رسولًا، أو حتى الله إليهم، وانزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالفضة، ولا أن وراء هذه الحياة الفانية، القصيرة، حياة أخرى خالدة بامعة، يجزي فيها الناس بأعمالهم، خيراً، أو شرًا. فمَن يعَمَل مثقال درَّة خِيارًا يزِهُ وَمَن يعَمَل مثقال درَّة شَراً يزِهُهُ (1).

أقول: من لم يؤمن بهذا كلبه، كيف تجادله في فرض الزكاة، أو تخريب الزكاة، أو الربا، أو المهر، أو الزنا، أو إقامة الحدود، أو إيجاب الاحتسام على المرأة، وتخريب البتر، بللهى النهي عن بعض الغرور، أو صنع التمييز، وما دون ذلك؟

إن الذي لا يؤمن بأن محمد رسول من الله، لا ينطق عن الهوى، وأن القرآن كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا يجوز الجدل معه في تطبيق الشريعة؛ لأنه لا يؤمن بالشريعة، ولا يصاحب الشريعة، ولا يكتب الشريعة.

إذا ما يكون الجدل معه أولاً، في إثبات نبوة محمد، وإلهية القرآن، كما نفعل مع اليهود والنصارى.

فإذا أثبتنا هاتين القضيتين، كان الحوار حول الشريعة وتطبيقها؛ إذ لا يتصور قيام بناء غير أساس.

(1) الزوازلة: 78.
وأما الذي لا يؤمن بالاللهوية نفسها، ولا يثبت الغيبات أصلاً، يتبين ما قاله فوير باخ بكل تبيين وغروض: «ليس صحيحًا أن الله خلق الإنسان، بل الصحيح أن الإنسان هو الذي خلق الله!!!! أي أن القول بالاللهوية، وهم اختصره الإنسان؟ أما هذا، فمن البعث بالعقل، ومن إضاعة الأوقات، والجهود، الحديث، معه حول الشريعة وأحكامها، والحدود، وتطبيقها، والدخول في مذاهب التفسيرات، التي لا تتناهي، وهو يجد أصل الدين جملة!!

ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، قاضيًا ومعمّلاً، كان من وصيته له:

إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فإن هم أجابوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلات في اليوم والليلة، فإنهم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم في أمولهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، لترد على فقراءهم...

وهكذا علمه أن يبدأ الدعوة إلى العقيدة، قبل أن يدعو إلى تكاليف الشريعة.

من أجل هذا، أقول لأخوتنا، الذين نتساءلهم محاسن عن "العلمانية"، ومعادين للشريعة والملح الإصلاحي: حدوا مواقفهم، لنعرف أين تتفقون من القضايا الكبرى: الله، والوحي، والآخرة، وبالتالي: من صحة نبوة محمد، وصدق ما جاء به من عند الله، وأني القرآن كتاب الله؟ وبعبارة واحدة: هل أنتم مسلمون، فخططكم بما يخاطب به المسلم آخر؟

أم ترون الدين والإيمان، أنه مراحل أنهت، كما قال "أوجست كونت" يوماً، وأنا في عصر العلم لا عصر الدين! وأنا في عصر النهضة، وغزو الفضاء، لا يجوز أن نحكمنا شريعة، جاءت في عصر الجمل" سفينة الصحراة"! وأنا أبناء القرن العشرين والحادي والعشرين، لا يجوز أن نحكمهم قيم ومناهج وشراع، عمرها أربعة عشر قرنًا؟!!

حددوا لنا موقفكم بصراحة أيها الأخوة المحاورون، وقولوا لنا: من أنت وما
أنت؟ حتى يكون حوارنا على بصرة، ولا نناقش في الجزئيات، ولن نتفق على الكلمات، أو نجادل في الحواشي، ونحن مختلفون في المتن، أو نشير معارك حول فروع الفروع، ونحن لم نقم بأصل الأصول.

أما نحن، فموقتنا - بحمد الله - محدد من جهانه الأربع، وهويتنا واضحة بين كالشم في رابعة النهار، لا نتكرر لها، ولا ننسى أقتنعة تخفي حقيقتها، ولا نخفض أصواتنا بالإعلان عنها، بل نعلنها صريحة مدوية: إننا مسلمون، رضينا بالله تعالى ربيا، وبالإسلام دينا، ومحمد رسول الله، والقرآن مهابنا، ولسنا مستذدين أن نتنازل عن ديننا لاي سبب، ولا بأي بلد، ولا لأي أحد، بعد أن ارتضينا، وأنفسنا وارتضاه الله لنا، وأتين به النعمة علينا، أي اليوم أكرمت لكم دينكم، وأنتم عبقكم تعدين ورضيت لكم الإسلام دينا» (1).

وكوننا مسلمين، يحدد موقتنا العقائدي، وهويتنا الحضاروية والأيديولوجية.

ولكن لا يبلغ موقفنا الجغرافي، ولا موقتنا التاريخي.

موقعنا الجغرافي: أننا عرب، نعيش في وطن تجميع أهله لغة واحدة، وتاريخ واحد، ولهم أمال وآمال مشتركة، لأننا مصريون، نعيش في بلد واحد، له تاريخ، وبين أهل صلاته توجب حقوقا والالتزامات، تقضيها المواطنة والجوار، ولننا مشكلات تخصنا، يجب أن نتعاون ونحيها.

ولا تنافى بين الاتمام إلى الإسلام، والاتمام إلى شعب خاص، أووطن خاص؛ لأننا لا تنافى بين العموم والحصوص، كما تنوض ذلك بعد.

موقعنا التاريخي: أننا نعيش في أوائل القرن الخامس عشر الهجري، وأواخر القرن العشرين الميلادي، في عصر حلم الذرة ووصول إلى القمر، وينمو إلى كواكب أخرى بعد من القمر، وصنع بعفله عقلا، يصنع العجائب هو "الكمبيوتر".

كما لا نرى أننا لستا وحدنا فوق هذه الكورة، بل نعيش في عالم تتعدد فيه.

---

المقدمة: 3.
الديانات والماهبة، والفلسفات، تعدّ الأجناص والألوان واللغات، ونحن - وإن كان نحو خمس العالم عددًا ألف مليون أو نزيف - لنسا الأقوى عدها، ولا الأكثر علمًا، بل لا زلنا عالة على غيرنا، وكنا - نحن المسلمين - في دائرة ما سموه "العالم الثالث"، أو "البلاد النامية"، والنمو تغير مؤدّب للخلف، الذي نرمح تحت نبره.

وما دينا مسلمين، فلا يسعنا إلا التسليم لحكم الإسلام في شؤون حياتنا؛ فحقيقة الإسلام: أن تسلم قيادك الله، ولا تجعل لك مع أمره أمراً. فإذا أخبر الله قلت: أمنا، وصدقنا. وإذا أمر الله قلت: سمعنا، وأطعنا. وإذا نهى الله قلت: انتهينا، وحرمنا. ولا يحقق إيمان بغير هذا، ولا خيار لمؤمن أمام الله وحكمه. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (1).

هذا قضية مسلمة، لمن ارتدى الإسلام دينًا، وعرف ما هو الإسلام، ومعنى الروبية والعبودية، ومعنی الخلقية والخلقية، وأن من حق الروب، الخلق المتعم، أن يأمر وينهي، ومن واجب عبادة الخلوقين له، المخворين بسعهم، أن يسمعوا ويطيعوا.

وتسلمنا للنص الألهى، ليس تسليماً اعتباطيًّا ولا جزافيًا، ولا شيئًا خارجًا عن نطاق العقل، بل هو ما اقتضته الفطرة، وفرضه العقل ذاته; فالعقل هو الذي هدانا إلى الله سبحانه، استدلالًا بالصيانة على الصنع، بالتنظيم البديع، في هذا الكون، على منظمه ومبدعه.

وهو نفسه الذي دلنا على أن محمدًا صادق، فيما بلغه عن يه، وأي القرآن ليس من صنعه وتأليفه، بل هو كلام الله "أحكمت آياته ثم فصلت من تدُّ حكمٍ عاليٍّ" (2).

وبعد أن أثبت العقل المستقل أعظم حقائق في الوجود، وهما: وجود الله.

(1) الاحزاب: 36. (2) هود: 1.
الواحد، وصدق رسالة محمد ﷺ، عزل العقل نفسه - على حد تعبير الإمام الغزالي - ليتلقى عن الوحي، ما يعجز عن الوصول بأدواته إليه من شواهد الغيب، مما تضطربه فيه العقول، وتخلت عنه إلى مصباح، يضيء الطريق، ودليل يهدي السبيل.

وليس معنى هذا، أن العقل لم يعد له عمل ولا دور مع وجود النص، فالفعل أن العقل هو المخطاب بالنص، وهو الذي يفهمه ويفرده، وبخاصة أن الأكبرية العظمى من النصوص تحمل أكثر من فهم، وأكثر من تفسير، حكمة من الله، الذي جعل من النصوص ما هو قطعى الدلالات، وما هو مشابه محتمل، لتجهذ العقول، وتبحث عن الحق والصواب، ويرجح هذا رأياً، وهذا آخر، وثالث غيره، وكلهم مأجرون، ما داموا أهلًا للاجتهاد، وهم يرغمون على الحق، بحسب طاقتهم البشرية.

والمعلق دور أكبر، فيما لا نص فيه، وهو كثير وكثر، فلم تنشأ إرادة الله الحكيم البر الرحيم، أن يقد عبادة بالنصوص في كل شيء، بل ترك لهم مساحات رحبة، يعملون فيها عقولهم، وفق مصالحهم المادية والعنوية، الفردية والجماعية، الدينية والأخرى، مهدين بالنصوص العصومة، وما وضعته من قواعد، وما سنته من أحكام، وما أقامته من موافين.

هذه هي القضية الأولى بيننا وبين خصوم «الحل الإسلامي» من دعاة العلمانية، والمعارضين لتطبيق الشرعية الإسلامية، قضية تحديد الهوية، تحديد الموقع: هل هم مسلمون أم لا؟ هل هم مع الإسلام أم ضد؟ هل هم مع الشرعية أم عليها؟

أكبر الظن أنهم سيقولون: نحن مسلمون، عريقون في الإسلام، أبا عن جد! ولا يتوقع من آناث في حكاتهم، السياسية (1)، أن يخسروا الجماهير العريضة من

(1) أثني د. زكريا في مقالة بمجلة المصير على المرأة، التي تكلمت، فشمت الإسلام - لا المسلمين - واتهمته بأنه ظلم المرأة! وظلم الأقلات! ووصفها الدكتور بالشجاعة، وإن كان ينفها - في رأيه - النضج السياسي. يريد أنها لم تستعمل البابكة والدعاة في خداع الجماهير، عما في نفسها كالأخرين الناضجين!!
الشعب - وخصوصًا في بلد كمـصر - ويعلنوا أنهم لا يؤمنون بدين، وأن عهد الدين قد ولي.

إذا الذي يتوقع منهم، أن يقولوا: نحن مسلمون منكم، ولكننا نختلف معكم فيما هو الإسلام. فإن الإسلام تحديد، وإسلامكم إسلام تقليدي، لإسلامنا إسلام عصري، وإسلامكم إسلام قديم، وإسلامنا متطور متحرك، وإسلامكم ثابت جامد.

وقد نرد عليهم، بأن ما ندعو إليه هو الإسلام الصحيح، وما نزعمونه إنما هو أفكار مستورة، تلبس لباس الإسلام، وأننا ننطق من الإسلام، إعـقيده ومنهجاً. وأنتم ننطلق من مسلمات أخرى. نحن نرى الإسلام روح ووجودنا، وجوزه حياتنا، وأنتم تسمون ذلك "المسألة الدينية"!

ما الحكم عند الاختلاف بيننا وبينهم؟

وهنا نصل إلى مفترق طريق بيننا وبين دعاة العلمانية، الذين يزعمون أن من حقهم أن يفسروا الإسلام من منظورهم الخاص، وأن يقدموا فيه ويؤخروا، كما يحلو لهم.

وهنا نرد عليهم دعواهم بحجج ثلاث:

أولاً: ليس الإسلام دعوة غامضة، ولا مادة هلامية، يفسرها كل من شاء، بما شاء، فإن الإسلام له أصوله البيئة الثالثة، ومصادره الواضحة المحكمة، وليس هو كالابدء الأخرى، التي يملك رجلها أو المجامع المقدسة لديها، ان تضيف إليه، أو تعذبه منه، أو تعدل فيه. فهو هو منذ نزل الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمة الله وقضيت لكم الإسلام دينًا» (1). وقال رسول الله ﷺ: «ترككم على المحجة البيضاء، لبئسها كنها لا يزغ عنها إلا هالك».

فما أجمله القرآن من أمور الإسلام، بينه السنة النبوية، وهي قول النبي وفعله وترقبه، وأكده سنة الراضدين المهدنين، الذين اعتبرت مواقفهم في فهم الإسلام

(1) المائدة: 3
وتطبيقه من السنن الواجب اتباعها؛ لأنهم أقرب الناس إلى مدرسة النبوة وأحرصهم على تطبيق الإسلام، وأقردهم على فهمه، لما أتيح لهم من مشاهدة أسباب تنزيل القرآن وقول الأحاديث، ولم لهم من نور البصيرة، وسماحة الفطرة، والتمكن من اللغة بالسلفية.

ثانيًا: عندما يختلف العلماء والباحثون في أمر من الأمور؛ أهو من الإسلام أم لا، سواء كان من العقائد أم من العبادات أم من الأخلاق أم من الممارسات، الا يوجد معيار يحتكم إليه!!

بلى، قد وضع القرآن الكريم لنا المعيار، الذي نرجع إليه عند الاختلاف والنزاع، وهو ما ذكره يقوله: "فَإِيَّا أَيُّهَا الْأَلْبَارَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ فَإِن نَّازَعُتُمْ فِي شَيْءٍ فَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُونَ مَا نَزَّلْتَ مِنْهُ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِلَهِيَّةٍ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" (1).

وقد أجمع المسلمون في جميع العصور، على أن الرد إلى الله تعالى، يعني الرد إلى كتبه، والرد إلى الرسول - بعد وفاته - يعني الرد إلى سنته. وقد قال عليه الصلاة والسلام: "ثركت فيكم ما إن اعتصمتم به، لن تضلوا بعداً، كتاب الله وسنة نبيه".

فما كان محكمًا بيئاً في كتاب الله، والصحيح ثابت من سنة رسول الله، فهو القول الفصل، والحكم العدل.

وأما لم يوجد فيه نص بين محكم، إما لعدم نص أصلاً، أو لوجود نص ظنّي، الدلالة أو الشروط، أو مما معناه، فهنا يلزم الرجوع إلى القوانين التي وضعها علماؤنا المتقدمون، وأثمنا الراسخون، لضبط الاستدلال، ولا سيما عند تعارض الأدلة في الظاهر، وقد وضعوا لذلك علم أصول الفقه، وعلم أصول الحديث، فضلاً عما استلقوه من قواعد في علوم أخرى؛ مثل: علوم القرآن، وأصول التفسير، وقواعد الفقه، وغيرها.

(1) النسخ: 59.
فقدًا : إذا اختلف علماء الإسلام المتخصصون في دراسته وفهمه، والذين عاشوا حياتهم فيه، وتعلموا و يعملون، ويدرسون معهم كل ما يعين على حسن فهمه من العلوم الآلية التي هي آلة الفهم، ووسيلة الاستنباط، وهي علوم اللغة، واللغة، والصرف والمعاني، والبيان. إذا اختلف هؤلاء مع دعاة العلمانية الذين لم يعرفوا من الإسلام إلا قشورًا، ربما أخذوها عن المستشرقين، الذين يحضرون بهم الظن، أو المستشرقين الذين تلمذوا عليهم، ولعلهم لم يقرأوا كتابًا معتبرًا في أصول الفقه، أو في مصطلح الحديث، بل الفقه أو الحديث نفسه فما يكون أحق بالصابرين من الفريقين: الإسلاميون أم العلمانيون؟ ومع من يسير المسلم؟، وهو مطمئن القلب؟

إن الله أرسلنا أن نرجع في كل أمر إلى أهله، أي إلى أهل الاختصاص به والخبرة فيه، وفي هذا يقول تعالى: "فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" (1).

ويقول: "فسأل به خيرًا" (2).

ويقول: "ولا بيناك مثل خير" (3).

ويقول: "ولو ردوا إلى الرسول وإلي أولى الأمر منهم لعملنا اللهين ي습بطنون منهم" (4).

فهل يدعى العلمانيون أهل الذكر، وأهل العلم والخبرة بالإسلام، وأهل الفتوى، فيما يختلف فيه من أحكامه؟ لا أحسبهم يجرون على ذلك، برغم ما لهم من اجتهادات!

ولو توارث العلم عند الطرفين المختلفين، وكانت كفتاً الميزان عهدهما سواء، لوجب الترجيح بالبر والقوى. فالعالم، الذي يخشى الله، ويتضطر رقابته، وأنه مستول أمامه عن علمه، مما عمل فيه؟ ولا سبب فيه بناءه، فضلًا عن أن بيعه بناء غيره، هذا - ولا ريب - أولى أن تكون كتبه هي الراجحة، وحجته

(1) القرآن : 59.
(2) التحلي : 43.
(3) فاطر : 14.
(4) النساء : 83.
هي اللائحة، وقوله: "وأولًا: لأنه مأمون على دين الله، لا يخف من التزيف اتباعًا للهوى، أو التحريف طلبًا لدنيا. وثانيًا: لأن مثله جدير أن يوقف للصواب، وأن يسدد للحق، فالنى هدى ونور وبصيرة، وقد قال تعالى: "يا أيها الذين آمنتوا إن تتقون الله يجعل لكم فرجًا" أي نورًا تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلالة.

فما يكون الموقف، إذا جاءنا العلمانيون بآراء اخترتها أهواؤهم، أو نقلوها عن أساتذتهم الغربيين، وهي آراء لم يقم عليها برهان، ولا أزل الله بها من سلطان، وهي آراء لا يخالفهم فيها علماء العصر وحدهم، بل هي آراء مخالفة لما أجمع عليه علماء الأمة في القديم والحديث، هل يكون لآرائهم هذه اعتبار في ميزان الإسلام، ومنطق الإسلام؟

يقولون: هذا "عندنا غير جائز، فمن أنتمو، حتى يكون لكم "عند"؟

*  *  *

(1) الأنفال: 29
تحديد المفاهيم

من أهم ما يطلب في الحوار بين طرفيين مختلفين: تحديد المفاهيم، التي يتنازعون حولها، تحديداً دقيقاً، يكشف عن ماهيتها ومدلولها، فلا تظل مأجورة رجاحة، يفرضها كل طرف بما يحلو له، ولا يسلم له الطرف الآخر.

ومن فوائد هذا التحديد:

وضع الأشياء في موضعها، وعدم إضاعة الجهد والوقت والفكر في إبطال شيء، لا يقول به الخصم أساساً، وإنما هو من تفسيره الخاص لمفاهيمه ومصطلحاته. وقد تنفض المعركة نهائياً، إذا اتضح للطرفين أنهما غير متباهين. وقد تكون المعركة أخف حرارة وحده، إذا اتضح أنهما غير متباينين تباعاً شديداً شاسعاً.

وقد يعرف من أول الأمر أن المناقش بين الطرفين جوهره وأساسه، وأن التقارب بينهما مستحيل، لاختلاف المنطلقات والأهداف والمناهج والмыслات عند كل منهما. فلا فائدة من الحوار بين أعين بينهما ما بين الشرق والمغرب، ويقدر ما تقرب من أهدافاً تبعد عن الآخر.

وأول المفاهيم التي يجب توضيحها وتحديدها بدقة هنا: المفهومان الأساسيان في الحوار: الإسلام... والعلمانية.

ويأتي بعد ذلك مفاهيم ترد كثيراً في الحوار مثل: الشريعة، التطور.

* * *

مفهوم "الإسلام"

أما مفهوم "الإسلام"، الذي نؤمن به، وندعو إليه، ونرى أنه سبيل النجاة في الدنيا والآخرة، فهو الدين، الذي نزل الله به آخر كتبه "القرآن"، وبعث به
خاتم رسالة محمدٍ (عليه الصلاة والسلام) من عقائد، وعبادات، وأخلاق، وآداب، ومعاملاً، إذا أحسن الناس فهمها والعمل بها، زكا الفرد، واستقرت الأسرة، وتماسك المجتمع، وصلحت الدولة، واستقامت أمر الحياة، بقدر استقامتهم على أمر الله. وإذا أسأوا فهمه أو العمل به، اختللت حياتهم الفردية والاجتماعية، بقدر بعدهم عنه.

مصدر هذا الدين هو القرآن الكريم، الذي تكفل الله بحفظه، فقى كما أنزله الله منذ أربعة عشر قرناً، لم يتغير فيه كلمة أو حرف. وما يبين هذا القرآن، ويشرحه من صحيح سنة النبي ﷺ، الذي كلفه الله ببيان القرآن بالقول، والفعل، والتقرير، وأنزلنا إليه الذكر لتغليب لثبيت ما نزل إلىهم (1).

أما آراء البشر وتصريفاتهم، فلا تحسب على الإسلام؛ لأنهم غير معصومون عن الخطأ أو الانحراف؛ ولأن الإسلام دين الله وشرعه وهداه، وليس هو قول فلان، ولا تصرف علان من الناس.

وقد أجمع المسلمون على أن كل واحد يأخذ منه ويرد عليه، إلا النبي ﷺ، ولا يستنى من ذلك، إلا ما أجمعت عليه الأمة، ممثلاً في علمائها ومجتهديها، لا يشذ منهم أحد، مما ثبت أن هذه الأمة لا تجمع على ضلالة.

وكذلك سنة الخلفاء الراشدين، أي منهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه، لما لهم من خصوصية القرب من العهد النبوي، ووجود كبار الصحابة، الذين لا يدخلون بصيحة، ولا يسكنون على باطل، ولا يقولون منكرًا، وقد جاء في ذلك الحديث الصحيح: "عليكم بسنتي، سنة الخلفاء الراشدين المشهدين من بعد، عضواً عليها بالنواذج.

أما أخطاء المسلمين أو انحرافاتهم على مدار التاريخ، فإنها على أصحابها، لا يتحمل الإسلام وزر شيء منها. وهي حجة للإسلام عليهم، وليس حجة لهم على الإسلام.

(1) النحل 44.
هذا هو الإسلام، الذي ندعو إليه، وتربي الناس عليه، وننادي بضرورة العودة إليه، عقيدة، وعبادة، وتربية، وأخلاقًا، وشريعة، وتنفيذًا.

ندعو إليه: صوابًا بلا شوائب، مستقيمًا بلا انحراف، كلامًا بلا نجعة، خالصًا بلا شركة، سالمًا من تعريف الغالين، وانتحال الباطلين، وتأويل الجاهلين.

ولكن دعاء العلمانية لا يستطيعون - علانية على الأقل - أن يعارضوا على هذا الإسلام المصنف، فاختروا «إسلامًا» من عندهم، يريدون أن يلزمونا به قسرًا وكرهًا.

أجل، يريدون «إسلامًا»، غير الذي جاء به كتاب الله ودوا إلى رسول الله طيبة الخليفة الراشدون، وشرحه الأئمة، والفقها، والمحقون، والحدثون.

يريدون «إسلامًا» يحملونه أوزار التاريخ، كما يصورونه هم، أو تصوره لهم مصادرههم من البشر والمستشرقين.

استمع إلى متحدثهم الفيلسوف فؤاد زكريا يقول: «إن دعاء تطبيق الشريعة، يرتكبون خطأ فادحاً، حين يركزون جهودهم على الإسلام، كما ورد في الكتاب والسنة، وانتحال الإسلام، كما تجسد في التاريخ. أعني: حين يكتفون بالإسلام كنصوص، ويفغولون الإسلام كواقع»!

هذه - والله - عبارته مبروًرة، من تقديم كتابه ص 10، وإلى لفي غابة الدهشة أمام هذا الكلام العجيب!

هل يريدنا الكاتب الفيلسوف، إذا دعونا الناس إلى الإسلام، أن ندعوهم إلى طيغان الحاجج، أو حميات أبو نواس، أو مجنون بعض الملوك، والسلاطين، أو استبدادهم، ونقول لهم: هذا هو الإسلام؟

إن الإسلام منهج الله لبداية البشر، ألزمهم الله به، ليعملوا ب تعاليمه متعبدين، ومتبرين إليه، ليظلون بسعادة الدارين، كيف نلزم الناس بما لم يلزمهم الله به؟ وكيف ندعوهم إلى الإسلام في صور الانحراف عن الإسلام؟ كيف يوضع منهج إيليس في الغواية، موضع منهج الله في الهداية؟

54
هذا وضع مقلوب يا أستاذ الفلسفة.

سيقول العلماء: إنكم بهذا تدعون إلى الإسلام المئالي، الذي يصعب تعقيبه.

ونقول:

أولاً: إن هذا هو الإسلام، الذي شرعه الله للناس، ولا خيار لنا فيه.

وثانيًا: إن كل من يدعو إلى مذهب أو نظام أو أيديولوجية، يدعو إليه في صورته المئالية. وعلى الناس أن يلذعوا جهدهم لتقربوا من هذه الصورة المئالية، ما استطاعوا، وعلى أجهزة التشريع والتوجيه أن تعمرهم على هذا الأقرار والترقى، وسينجز في ذلك قوم، ويرسوب آخرون، ولا حرج. فمن سار على الرب وصل.

وليس من العقل ولا الحكمة ولا المصلحة، أن يعرض على الناس الصور الرديئة، والظلمة في التطبيق، من أول الأمر، فهذه تسببهم بالإحباط واليأس.

وذا increta يفعله دعاء الديمقراطية، والاشتراكية، وغيرها. يدعو إلى الصورتها المئالية، بعيدًا عن أخطاء التطبيق، وأنحرافات الطبقين، وسعي إلى مزيد من هذا في مناسبته، فيما بعد، وسنقل من كلام د. زكريا، ما يرد على د. زكريا.

ويقول علماء آخرون:

سلمنا معكم بأن الإسلام ليس هو التاريخ ولا الواقع التطبيقي، بل هو الإسلام المئالي، كما تصوره النصوص.

ولكن هذا الإسلام نفسه، غير متفق على صورة له، ف الوحشة عند التقليديين المحافظين، غير صورته عند المجددين المجاهدين، غير صورته عند فصائل الصحوة الإسلامية المعاصرة، وفصائل الصحوة الإسلامية، ليست تيارًا واحدًا، بل هي تيارات مختلفة أشد الاختلاف من الإخوان المسلمين إلى جماعة التكفي والجهره.

هناك تيارات تبني أضيق صور الجمود والتقليدي المذهبي، وأخرى حرفية لفظية، تهم مقاصد الشريعة، وتفقد عند ظواهرها، وهم الذين سميثم ظاهرة الجدد.
وهناك تيارات، لا تتخذ غير العنف أسلوباً، والقوة وسيلة، وتغلب الحرب على السلطنة، وإن أراقت ما أراقت من الدماء. وهناك تيارات تكفر المجتمع كله، لا تكتفي بالحكام، بل تشرك الشعوب أيضًا، لأنها رضيت بهم، والرضاء بالكرير.
كفر!

وهناك اتجهات غريبة لأفراد أو جماعات، كأنها لا تعيش هذا العصر، ولا تعاني مشكلاتها، ولا تتفادى مع أهلها.

فأرى صورة من صور الإسلام، تعتبرها هي التي تمثل الإسلام الصحيح؟ وما يدرينا: أي موقف يتخذه إسلام اليوم من المرأة، أو من الشورى، أو من الحرية، أو من غير المسلمين مثلًا؟

وأيادي تقول: إن هذا الكلام في جملته صحيح، ولا بد لهذا السؤال من جواب:

والجواب أننا نقصد بالإسلام الذي ندعو إليه: الإسلام، الذي يمثله التيار المستنير المعتدل المنزل، وهذا التيار هو الذي يمثل الجمهور الأكبر للصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، وهو التيار المستنير والباقي، رغم ما يعترضه من عقبات، وما تعرض له من محن، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "تيار الوسطية الإسلامية".

وأما تيارات الأخرى: فتمثلها فصائل قليلة العدد، قصيرة العمر، وهي - في العادة - لا تستمر طويلة. فإن الغالب لا يطول عمره.

وهذا التيار المنزل المستنير، يمكن أن يتمثل في أصول أو مباديء محددة، تكون ملامحة، وتعدد وجهته، وتعرض مفاهيمه الأساسية في أبرز القضايا.

وها هي العالم الرئيسي لهذا الإسلام، كما نفهمه وندعو إليه، وبعبارة أخرى:

كما يدعو إليه تيار "الوسطية الإسلامية".

* * *

26
معالم أساسية للإسلام الذي ندعو إليه

إن الإسلام الذي ندعو إليه، ليس مادة هلامية، يشكلها من شاء كما يشاء، بل هو مشروع حضاري متكامل (شريحة دعائنا)، ويتباينا معناه، ووضحوا قواعده، توضيحًا يziel كل غياب أو غموض، فلا مجال لقول قائل: إنكم تدعونا إلى ضبابية أو ظلالية لا يعرف أصلها ولا فصلها. بل إن إسلامنا الذي ننبه بين وضح كالمكن في راحة النهار، وأغنى به الإسلام الذي يدعو إليه تيار (الوسطية الإسلامية) الذي أتكلم باسمه.

وأما أذكر هنا عن عشرين أصلًا (1)، أراها تلقى الضوء على هذا الإسلام كما نراه وتصوره مستفداً من مصادر الأصيلة، ومتبعه الصافة.

ieces بالله ولقاته ورسالاته:

1- الإسلام يقوم أول ما يقوم على الإيمان، الذي هو سبيل فلاح الفرد، وسعادة المجتمع، الإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر.

فهذا الكون - ونحن جزء منه - مخلوق، فهو ليس إلزاميًا، كما أنه ليس أبدًا، وليس مما له هو حقيقة، خلقه رب عليه حكم، أحسن خلقه وأتقن صعه، وهو لم يخلق بأطلال ولا بعيماً ولا لعباً، بل خلقه حكمة: إن يبنى الله الناس فيه في هذه الدار، لبعدهم للخلود في دار أخرى، يجزي فيها كل نفس ما كسبت، وتخليد فيما عملت فمن يعمل مثل ذو رحمة يرزقه *ومن يعمل مثل ذو رحمة يرده* (2).

دلت على هذا الحاصل العظيم الفطر السليمة، والغور العديدة، والكون الكبير، كما دلت على ذلك إرساله تعالى رسول مبشرين مترين، وأيدهم بالأيات البينات.

وأعظم ما يتجلى هذا الإيمان في عقيدة التوحيد، الذي بعث به رسله واكدها رسول الإسلام كل التأكيد، وحقيقة: أن تبغى الله دعا، ولا تتخذ غير الله ولبا، ولا تبغى غير الله حكماً.

(1) ذكر الإمام الشهيد حسين البنا لفهم الإسلام عشرين أصلًا، غير هذه الأصول التي ذكرناها هنا، لأنه كان يخاطب فئات غير التي نشأها لنا اليوم. فقد كان يخاطب بأصوله الجماعات الدينية القائمة في عصره، والتي لا تزال قائمة إلى اليوم، فكان تركيزه على الحدود التي يفهم في إطارها الإسلام، ونحن نخاطب جماعات أخرى معظمها من العلمانيين، والمسيحيين، والمتحولين بحضارة الغرب وفلاسفة، وكل مقام مقال.

(2) الزلاقة: 187.
ولا يصح هذا الإيمان إلا بالتصديق بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل. وبهذا كلام الإسلام مصدقًا ومتمورًا، وبيانًا لا غمًا، لا تفرق بين أحد من رسوله (1).

كما لا يتم هذا الإيمان إلا بالنزول على حكم الله ورسوله: "إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و آطعنا" (2) "وما كان لمسؤوم ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (3).

والإيمان الصادق لا يتم إلا بعمل الصلاوات، ولهذا يجب أن يصبح الإيمان خليفة الفرد، وحياة الجماعة، وأن تتبنى منه التشريعات والأنظمة، وتنطلق في ضوئه التربية والثقافة والفنون والأدب، وتهدي بهديه حركة الحياة كلها. فقل إن صلاتي ونسكني ومحيطاتي رب العالمين (4).

فلجميع المسلم ليس مجتمعاً بياناً، ولا مجتمعاً علمانياً (لا دينياً) بل هو مجتمع ملتزم بعيدة يعيش لها، ويوت عنها لا تموت إلا وإن تموت (5).

لهذا يرفض الردة، ويعاقب عليها، حفاظًا على وهبته.

وهوجما يحافظ على إيمان المسلمين، يحرم إيمان الآخرين من أهل الأديان الكتابية، ويتزكى وما يبدون، ولا يجادلهم إلا بالتي هي أحسن.

- تكريم الإنسان وتعريفه بواجباته وحقوقه:

2 - إسلام يقوم على تكريم الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تكوين، وكرمه أعظم تكريم، وجعله في الأرض خليفة، وسرقه ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وحمله أمانته الكبيرة، ومنه من الموارد والموارد الفطرية ما يعينه على إداء رسالته من العقل الذي به يفكر، والإرادة التي بها يجمع، والقدرة التي بها ينفذ، وأنزل له الكتب، وبعث له الرسول ليهدوه إلى ربه، ويعزوه بتخليه الذي يضنه، وحده من الشيطان الذي ليس له من سلطان عليه إلا الوسيلة بالإعجاز وما كان لي علّكيم من سلطان إلا إن دعوتكم فاستجبتم للإنس (6).


28
العبود (١) والعبادة تشمل شعائر العبادات، وتشمل كل عمل ينفع الناس.

قبل تشمل المباحات إذا كان يراهها نية صلاحية.

وثانيهما: واجبه نحو نفسه وأسرته وأمته والبشرية جمعاء، فيزيكي نفسه، ويرعي أهله، ويجمل مجتمعه، ويجاهد لحماية أهله، ويعمل على هدایة الناس إلى الله ما استطاع.

ثالثها: واجبه نحو الكون والحياة من حوله، بأن يبسر الأرض، ويجيب مواتها، وorialها بالخير والجمال. هو أنشأنا من الأرض، وأستعمره فيها (٢) وبهذا يقوم بحق الخلافة التي رشح لها، وعطرها عليها الملائكة.

وفي مقابل هذه الواجبات قرر الإسلام له حقًا يجب أن يرعى: حقه في أن يختار دينه بلاء ضغط ولا إكرار، وأن يفكر بلا حجر ولا إعتات، وأن يعبر عن رأيه بلا خوف ولا إرهاب، وأن يتعلم ما وسعه ذكائه، وأن تتاح له فرص متكافئة مع الآخرين، وأن يكون له حرية التنقل واحترام العمل، واحترام الحاكم وначشه ومحاسبته، وحقافة الكفاية من العيش، والأمن من الخوف، بحيث يعيش آمنًا على حياتة وعرضه وماله وأهله، وهذه كلها فريضة وضرورة للإنسان في نظر الإسلام.

- مخاطبة العقل والانفعال به:

٣ - إسلام يخاطب العقل، ويعتمد عليه في فهم الدين، وعمارة الدنيا، وهو يدعو إلى العلم والتقدم فيه، والأخذ بأحدث أساليب، والتزويج على حكمه في كل المجالات، ويعتبر التفكير عبادة، وطلب كل علم، وتحيا إليه الآية، فرضية، والتخلص من ركب العلم المصور منكراً وجرية، وأن التفوق في مبادئه النظرية والتطبيقية، المدنية والписыва، وأجاب دينى، وكل وصلة، تؤدي إلى هذا الواجب، فإن تعبها واجب، وهو لا يرى أي تعارض بين العقل السليم والنقل الصحيح، فالعقل - كما قرر علماؤنا - هو أساس النقل؛ إذ هو ثبوت وجود الله تعالى، وتثبت النبوة، كما لا يرى أي تعارض بين حقائق العلم، وقوانين الإسلام، فلا مجال للصراع بينهما، كما حدث في ظل أديان أخرى. فلذين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

وهو يعتبر بتراث الإسلامية، ويستهيدي به، ويفرق فيه بين المستوى الإلهي.

(١) الدينيات : ٥٦ـ (٢) هـ : ٦١.

٢٩
المصوص الثابت ، وهو القليل ، فيتمس فيه الهدى والنزور ; والمستوى البشري المتجدد -
وصحيح على ترات العلم والفكر في العالم كله ، فيتمس الحكمه من أي
وعاء خرجت ، ويتنفع بتتبForgot الأمهام قديما وحديثا ، فيأخذ منها أفضل ما فيها دون
تعصب لرأى قديم ، ولا عبودية لفكر جديد ، لا ينطق عن الماضي ، ولا يعزل
عن الحاضر ، ولا يغفل عن المستقبل . يأخذ من الديمقراطية أحسن ما انتهى إليه من
الشيوعي والضماتن : حمایة حقوق الشعوب في مواجهة الماكينين ، وبأخذ من
الاشتراكية أمثل ما انتهى إليه من الصبغ والضماتن : حمایة حقوق الثقات
الطحونا في مواجهة المكلين والأقادرين ، ويستفيد من كل الآراء والنظريات ، وإن
كانت فلسفتها الأساسية مرفوضة عنده ، كفلسة فرويد ، وماركس ، ودوركايام ،
والحكمة ضالة المؤمن ، أني وجدتها ، فهو أحق الناس بها .

- الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد :

4- إسلام يدعو إلى الاجتهاد والتجديد ، ويقوم الجمود ، ويؤمن بمواكبة
التطور العلمي ، ومواصلة التقدم المادي ، وأن الشريعة لا تضيق بجديد ، ولا تعجز
عن إيجاد حل لأي مشكلة ، وإذا العجز في عقول المسلمين ، أو في إرادتهم ، وأن
الإجتهاد أصبح في عصورنا فريضة وضرورة ; فرصة يوجها الدين ، وضرورة يحميها
الواقع ؛ وأن باه مفهوم لأهله بشرته ، سواء كان إجتهادا ترجيحيا افتراضيا ، أم كان
إجتهادا إبداعيا إنشابيا ، فرديا أم جماعيا ، جزئيا أم كليا ، ولا يمكِّن أحد إغلاقه ،
وقد فتحه رسول الله ﷺ ، وأن المجتهد ماجور على اجتهاده ، وإن أخطأ فيه ، وأن
عليها أن نتهى الناخ العليمي لظهور المجتهدين المرجوبين ، على مستوى الإسلام
وعلى مستوى العصر ، جامعين بين القديم النافع والجديد الصالح ، مقدرين في
اجتهادنا ظروف الناس ، وضوابط الواقع ، وتغيرات العصر ، وما عمت به
البلد ، مستفيدين من الثروة الفقيرة اليائالة ، التي خلفها أمنتنا وفقها بأعلى
عدد مدارسهم ومشاربهم ، منذ عصر الصحابة والتلابين ، فمن بعدهم من أنمة
المذاهب ، ومن تلامهم ، من تابع بالتجديد ، أو التزم بالتقليد ، منهم له مذهب أو
ليس له مذهب تعتبره من كل ذلك ، ما هو أصح دليلًا ، وأبدع سبيلًا ، وألبق
بتحقق مقاصد الشرع وصالح الحق ، واضيعين نصب أعيننا ما قرأه علماؤنا
لمحقون : أن القوى تغير بغير الزمان والمكان والعروف والمجال ، وأن الشريعة إما

30
شرعت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأنها قامت على حفظ الأديان والأنفس والعقول والآراء والأنساب والأموال.

الدعوة إلى الوسطية والتوازن:

- إسلام يتم بالوسطية في كل شيء، ويجعلها من خصائص أمه الأساسية.

وذلك جعلنا أمّا وسطٌ (1).

فهو يُعلَن التوازن الإيجابي في كل المجالات، اعتقادية وعمليّة، مادية ومعنوية، فهو يُولِّد بين الوعي الإنساني، والآداب الإنسانية، فكل منهما مجاهل، وهو يعمل في حياة الفرد - على المرونة بين الروح والodore، وبين العقل والقلب، وبين الدنيا والآخرة، وبين الحقوق والواجبات. ومن ناحية أخرى، يقيم المرونة القسط بين الفرد والمجتمع، فلا يعطى الفرد من الحقوق والحرية، حتى يضمن، على حساب مصلحة المجتمع، كما فعلت الرأسمالية، ولا يعطي المجتمع من الصلاحيات والسلطة، ما يجعله يضيعه وينضغز على الفرد، حتى يضمر وينكمش، ويتدبّج، وتدابر، ومتصور، كما فعلت الشيوعية والاشتراكيّة المتطرفة، فلا يقر نظرية الرأسمالية في تضخام الحرّيات الفردية، على حساب العدل في المجتمع، وبخاصّة الفئات الضعيفة فيه، ولا يقر نظرية الماركسيّة وربتها، في خلق الديمقراطية السياسية، باسم الديمقراطية الاجتماعية، وتحت الشعور المغاير، لا حرية لأعداء الحرية!

فهل يعطى الفرد حقه، والمجتمع حقه، بلا طغيان ولا إحسار، كما نظمت ذلك أحكام الشريعة وتوجيهاتها.

وأوّد أن أحافظ على حرية الوطن كما يرفع حرية المهاجر، وهي حرية الفكر، لا حرية الكفر، حرية الضمير، حرية الشهوة، حرية الراي، حرية التشهير، حرية الحقوق، حرية الفسوق.

وهذه تؤمننا بأن الناس قد ولدتهم أمثالهم أحرارًا، فلا يجوز لاحد أن يستيل أحدًا، ولا أن يتخذ بعض الناس بعضًا آثابًا من دون الله. فالحرية الحقيقية ثمرة التوحيد الحقيقي. ونتيجة لازمة لمعنى: لا إله إلا الله.

(1) البقرة : 143
الواقعة المتوازنة التي تهتم بالإنسان كله:

6 - إسلام يتميز بالواقعة، التي هي إحدى خصائصه العامة، فهو لا يحيد في أجواء المثلية المجنحة، ولا يتعامل الناس على أنهم مثاليون ألوهية، بل يعرض يعيشون ويخطون، ويستيقظون وينحرفون؛ وهو يعترف بضعف البشر، وجود الخطايا والشر، ولهذا رفع ورفع، وأوجب الأمر بالمعروف والممنه عن المنكر، وشرع العقوبات، وفتح باب النوبة، ووضع للضرورات أحكامها، وقد لاحظ الأعداء أذىهم، فشرع الرخص والتخفيفات والاستثناءات في أحوال شتى: منها الخطايا، والنسيا، والإكرام، وأジャー النزول إلى الواقع الأدنى، عند.

وعن واقعه: أنه يكره الإنسان، ويسمر به، ويعترف بفطرته كرامته، لا يهبط به إلى درج الكذبين، ولا يعلم به إلى درجة التأليف، يعترف بأشكاه الصادقة وغرائزه الباطنة، يعترف به روحًا وسمعة، وعقلًا وعاطفة، ذكرًا وأشي، وفرداً ومجتمعًا، ويهيمن له فرضًا على المباح، والتحريم البريء، كما يهيمن له المناخ الإيجابي لحباً حياة إسلامية، بلا ضغط ولا تتبلا.

الصحة: وهي لهذا، يحافظ على الصحة الجسدية والنفسية والعقلية للإنسان، ويختار كل إنسان: إن لدك ذلك حقاً، ومن حقه أن يطمئن إذا جاء، وأن يريحه إذا تعب، وأن يداعبه إذا مرض، وهو يقاوم المكررات والمخدرات، وسائر السموم المشرقة بالأجسام والنفوس والعقول، ويرحب بالطبيعة البديئة، ويتخذها وسيلة لا غاية.

ويفرض الرعاية الصحية الشاملة، ويسير لكل عام حي في الراحة، ولكل مرض حقه في العلاج، وتعلم الناس أن الله ما أزل ولا أزل له شفاء، وهو يهتم بالوقاية أكثر من اهتمامه بالعلاج، كما يؤكد أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

• تكريم المرأة وحظرها من ظالم الجاهليات:

7 - إسلام يكره المرأة، ويعترقب إنسانًا مكلفاً تكلفاً كاملاً، له حقوقه، وعليه، واجباته، مجموعة على عمله في الدنيا والآخرة، فليست خصماً للمرأة، ولا هو عدد لها بل هو منها، وهي منه، يكملها وتكمله في بعضكم من بعضٍ (1).

(1) آل عمران : 195
الزوجة أثناء وفاة والدها، ويفرض لها المجال لمشاركة في العبدة، وفي التعليم، وفي العمل، وخصوصاً إذا اقتضى الأمر، أو احتاج إليه المجتمع، أو احتاج إليه المرأة، مع مراعاة ما تميز به بالاعتبار أن الزوجة، رغم احترام المعايير الخاصة، ورعايتها، حتى من الزوج إن ظلم، والابن إن ظلم، والابن إن غفل، يحرم على الرجل نسيج، كما يعطيها حقها في الإسهال مع الرجل في أداء الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الشر والفساد، والمؤمنون، أو المؤمنيات بعضهم، أو أولياء بعضهم (1)، ويعض لها مكان، لتشترك في قضايا الأمة السياسية والاجتماعية والثقافية، ناحية، ومرشحة لكل ما تختص به الأعمال فيما عدا الولاية العامة على الدولة، فهي نصف المجتمع، وأحد جناحيه، وإذا النساء شفائق الرجال، هو تمطلقًا من احترام كرامات المرأة، وإنسانيتها، أي أن تتخذ أداة لإثارة وإثارة، والاستمتاع الرخيص، ويجرب عليها: في ملاقاته للرجال الأجانب عنها، الاحترام والصبر والالتزام الأدب والوقار، في اللباس والجمال، والمشى، والحركة والكلام والنظر، حتى تعرف المرأة بجديتها، فلا تؤدى، وحتى لا يطيع الذئب في قلب مرض من الرجال.

العامة أساس المجتمع:

- الإسلام: إنه الأساس في المجتمع، وأن الزواج هو أساس الإسلام، لذا يبحث الإسلام عليه، ويسير أسبابه، ويزيل العواقب الاقتصادية من طريقه، وللمرأة، وتشريعية معاً، ويجعل الاستغلال الأول في الاختيار للدين والخلق، ويفرض القتال على الزائفة إلى تضحيته، وتؤثره، من غلابة المراه، وب夸大 في الهدايا والولائم، وأحافل الأعراس، وإسراف في المزاج واللباس والزينة، ومكاثرة، يغبطها الله وروسله في سائر الفضائل.

وهو: إذ يسيء أسباب الخلق، يسوي أرباب الخلاف، والثيرات إليه، من الخلافة والترجاج، والكلمة والصوره، والقصة، والدمار، وغيرها، ولا سيما في أدوات الإعلام، التي تكاد تدخل كل بيت، وتصل إلى كل غرفة، وهو يقيام العلاقة الأسرية بين الزوجين، على السكون والمودة والرحمة بينهما، وعلى تبادل الحقوق والواجبات، ب 무شارة بالمعروف، مع إقرار حق الزوج في القوامة.

(1) المرة: ٧٠
على الأسرة، ويجزي الطلاق عند تعذر الوفاق، كعملية جراحية لا بد منها، بعد إخفاق وسائل الإصلاح والتحكيم، وبيع الزوجات مرتين أخرى، لن يوجد إليه، ويجبر عليه، ويقع من نفسه بالعدل، إذا قام الدلال على ذلك. ويقين العلاقة بين الأب ووالد الأولاد على وجب الرعاية الكاملة، ماديًا وعاطفياً، وأدباً، من جانب الأب والأموم، ووجود بر والإحسان من جانب البنوة. ووجب الرعاية من المجتمع والدولة للأمومة والطفولة، وخصوصاً الطفولة البيضاء والصفراء، حتى تبقى القمه الإسلامية بباب لرعاية (اللقب). و يرجع الإسلام الأسرة، لتشمل الأرحام وأولى القرى، فصولهم فريضة، وقطيعهم كبيرة في دين الله، وهو يدعم روابط الأسرة بحقوق البنوة والإرث والعائلة. 

10- اهتمام بالتربيّة والتعليم والإعلام:

- إسلام يهم بالتربيّة والتعليم والتوجيه، مثل اهتمامه بالقانون والتشريع، بل قبل اهتمامه بالقانون والتشريع، فالقوانين لا تصنع المجتمعات، بل تصنعها الترية المستمرة، والتعليم الواعي، والتوجيه العفوي، و أساس كل نهضة وتغيير، هو بناء الإنسان ذي الفكر والضمير، ذي الأيمان والأخلاق، وهذا الإنسان الصالح هو أساس المجتمع الصالح.

وهذه يجب توجيه أبلغ العناية إلى المؤسسات الترفيهية من مدرسة الحضانة إلى الجامعة، حيث تعلم الإنسان إلى جوهر العلم، والخلق بجانب المهارة.

ومن أهم معالم التربية المنشودة للأجيال المسلمة: الالتزام بسماة العقيدة من الخلافة، ونقاط التوحيد من الشرك، وقوة اليقين بالآخرة، واستقامة الأخلاق؛ من صدقة القول، وإتقان العمل، ورعاية الأسرة والعهد، والصبر بالحقي، ومعاداة الباطل، والتصبيح في الدين، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، وتعتبر المنكر باليد، والمساند بالقلب، حسب الاستطاعة، ومقاومة الظلم والطغيان، وعدم الركون إلى الزملاء، وإن كان معهم سلطان فرعون، ومال قارون.

بما يوجب توجيه الاهتمام إلى المؤسسات الإعلامية مقررة ومسموعة ومروية، فهي التي توجه الأفكار والأذواق والمبادئ، وتقوي الرأي العام إلى ما يتناسب، فيجب تنقيتها بما يحقق العقيدة، أو يسبث الفكر، أو يحرف بالسلوك، وأن يكون توجيهه لخدمة الأهداف الكبرى للجماعة، من خلال برامج مدرسية متقدة، تتعدد عن الإثارة والتضليل؛ محورها: الصدق في الخبر، والرشد في التوجه.
والاعتدال في الترفيه ، والالتزام بالقيم ، والتكامل والتنسيق بين البرامج والأجهزة والمؤسسات بعضها وبعض ، ومن أعمق هذه المؤسسات : المسجد ، فهو جامع للعبادة وجمعة للعلم ، ومئذني للعبادة ، ومثمر للجودة الشديد ، فيجب العناية به وفتح معنى الأرشاد ، ورسالة الترجمة والدعوة ، حتى يكون على مستوى الإسلام الذي يمثله ، والعصر الذي يعيش فيه .

• تقوى أواصر الإخاء بين الناس :

10 - إسلام يقيم المجتمع على أواصر الإخاء والأوامر بين أبنائه ، فلا مكان فيه لصراع الأجناب ، ولا لصراع الأديان ، ولا لصراع الطبقات ، ولا لصراع المذاهب ، فالناس كلهم أخوة ، تجمع بينهم العودة لله ، والبنوة لأدم ، وإن رككم واحد ، وإن أباكم واحد » . واختلافهم واقع بمشيئة الله تعالى وحكمه ، وهو يفصل بينهم يوم القيامة ، فيما كانوا فيه يختلفون .

فهو إسلام يحترم غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ويتعزى بهم في دمه الله ، وذمة رسوله ، وذمة المسلمين ، أي في عهدهم وضمانهم ، وهذا تعبير ديني ، يعني لدى المسلم : إنه يتعبد الله تعالى ؛ بالمحافظة عليهم ، والدفاع عنهم ، والبر لهم ، والإفاساط إليه . فإن كان التعبير يذيعهم ، فليترك حرصًا على شعورهم ، والبركة بالمسمات لا الاسماء . وقد جعل عمر بن الخطاب ما هو أعلم من ذلك ، حين طلب إليه نصارى بن تغلب من العرب : أنهم يأثرون من كلمة ( الجرية ) وأنهم يريدون أن يدفعون كل ما يطلب منهم وآثر باسم ( الصدق ) فقيل منهم عمر ذلك ، وقال : هؤلاء القوم حمتي ، رضوا المعني ، وأبدا الاسم ! وهو يكلف لهم حرية الاعتقاد والتعبير ، ويحافظ على دائمة ، وأعراضهم ، وأموالهم ، كما يحافظ على المسلمين سواء بصفه ، وحريتهم من الأظلم في الداخل ، كما يحميهم من العداو من الخارج ، ويجعل لهم من الحقوق والحريات في الجملة ، ما للمسلمين ، وعلىهم ما عليهم ، إلا فيما استثنى ، مما له علاقة بالتمييز الديني ، ووضع من الظلمات المعنوية والمادية والقانونية ، ما يكلف هذه الحقوق ، ويضع في المسلمين روح التسامح الذي لا يدخل في نطاق القانون ، وإذ يدخل في نطاق الأخلاق والقيم ، التي تميز بها الأمم بعضها عن بعض ، والمسلمون لهم من ذلك التصنيب الأولي .

35
لا كهانة في الإسلام:

11 - الإسلام لا يعرف الكهانة، ولا يوجد فيه طبقة كهونية؛ تحتكر الدين، وتحكم في المسائر، وتغلق على الناس باب الله، إلا عن طريقها؛ عنها تصدر قرارات الخمران، أو سكوك الغفران. إنما كل الناس في الإسلام رجال لديهم، ولا يحتاج المرء فيه إلى واسطة بينه وبين ربه، فهو أقرب إليه من حل الوبد. وعلماء الدين ليسوا إلا خبراء في اختصاصهم، يرجع إليهم كما يرجع إلى كل ذي علم في علومه.

ولا يبتكي مثل خبير (1)، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (1).

ومن حق كل مسلم - إذا شاء - أن يصبح عالماً، بالدراسة والتخصص، ولا بالوراثة، ولا باللقب، ولا بالرعي، ولا احترار في هذا ولا تفجير.

فالأسلام يرفض التقسيم المستورد للناس والمؤسسات إلى ما هو دينى، وما هو غير دينى؛ فلا انقسام للناس ولا للتخصص ولا للقوانين ولا للمؤسسات، فكلها يجب أن تكون في خدمة الإسلام.

حكومة العدل والشورى الملزمة:

12 - الإسلام يؤكد حق الأمة في اختيار حكومتها، القانعية على العدل والمساءة، والشورى الملزمة، فلا يفرض عليها حاكم يقودها، رغم أنفها، بل يعتبر الحكم أجزاء عندها، أو وكلاء عنها، لها حق مراقبتهم ومعاشرتهم، كما عليها تقديم النصح والعون لهم، والطاقة في المعرف، فمن أمر عمدي فلا سمع ولا طاعة، ومن أعوج وانحرف، وجب أن يقوم بالنصب والإشراف، وإلا فالعزل والإبعاد، والدولة أو الحكومة بهذا - وإن كانت «إسلامية» - ليست دولة أو حكومة دينية، بل معنى الذي عرفته العرب في العصور الوسطى، فهي دولة فكرية ورسالة لا دولة عنصر وأرض. دولة تقوم على البيعة والشورى والنصيحة والعدل، وتحكم إلى دستور أو قانون، ثم تضعه هي، ولا تملك تغييره، بل هو شرع يهام، وليس قوامه «رجال الدين» بل كل قوى آمن، حفظ العلم، من الدين، إذا ما كنتم الله في الأرض، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأتوا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

هذا الإسلام يرحب بكل ما كسبته البشرية، ووصلت إليه من خلال صراعها مع الطاعة والمستبددين، من صبغ وصور تطبيقية، تضمن حقوق الشعوب في مواجهة الحكام، وحرية الضعفاء أمام الأقوياء، من دستور تفصل بين السلطات، وعدد

(1) فاطر : 14
(2) التحل : 43
العلاقات، وبرلمانات منتخبة، وقضاء مستقل، وصحافة حرة، ومنبر حر، وأحزاب معارضة، إلى غير ذلك، مما يتقدم مع روح الإسلام ومقاشه الكلية، وإن لم ترد فيه نصوص مباشرة جزئية.

المحافظة على المال وتنميته:

13 - الإسلام يحافظ على المال ويعتبر إحدى الضروريات الخمس أو السنتي، جاءت الشرعية للمحافظة عليها (الدين والنس والنقل والمس والمال والعبد)، ويري أنه قوم الناس، وخصب الحياة وغيهور لا تحقيق عمارة الدنيا، ولا نصرة الدين، وهو نعمة يجب أن تشكر، وأمالة يجب أن ترعى، كما أنه اختيار وفترة، ليل الله الناس فيما أتاههم. ولذا يلزم كسبه وتنميته بالطرق المشروعة، وأداء الحقوق الواجبة فيه، والمحافظة عليه من الشرف والرفاه والإعمال، وبخاصة المال العام، الذي له في الإسلام حرمة عظيمة، كحرية ملك البين، وهو يحترم الملكية الخاصة، لكن يفرض عليها قيودًا وتكاليف شديدة، ويقاوم نزعتها إلى السيطرة والاحتكار، ويقويه بالتشريع والترجيح لخدمة الملكية الاجتماعية، كما يعمل بكل قوة للتنمية الاقتصادية العامة للأمة، بحيث تستغل مواردها المادية، وتحدد طاقتها البشرية، وتكمال فيها بينهما - عربيًا وإسلاميًا - لتنافى كفاها ذاتيًا، وتحتاج إليه في مجال الزراعة والصناعة، ولا تظل عالًا على غيرها، وخصوصاً في قوتها الضروري واليومي، وسلاجها الذي تدود به عن أرضها ووجودها ومقومات الأرض عبادة، وتنمية المجتمع فريضة، وتقوية الأمة مدنية وعسكرية، جهدًا في سبيل الله، والعقل على غيرها وإفتكارها الاستقلال، من أفضل القيم إلى الله، وهذا يمنح الإسلام الأمة من الخواف والتوبيخات والمناهج والحركات العلمية، ما يدفع عجلة التنمية إلى الأمام بقوة، وما يفجر الطاقات الكامنة في إنسانها، الذي هو هدف التنمية، وهو - أيضاً - صانعها.

العناية بالفئات الضيقة في المجتمع:

14 - الإسلام يسعى غاية العناية بالفئات الضيقة في المجتمعات من العمال واللائحين والحرفيين، وصغار الموظفين، الذين هم عدد الإناث في السلم، والنصر في الحرب، كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح: "هل ترقبون وتصرون إلا بضعكم؟" فهو يحافظ لهم حقوقهم بحرية من الأجر الكافيه والضمانات الواقية، ومن كل، حسب طاقته، ولكن، حسب عمله وحاجته معا، كما يرعي الإسلام العاجزين عن العمل، أو الذين لا يجدون مبناً كفائاتهم من أجر عملهم.
من الفقراء والمساكين واليتامى وآبناء السبيل، ويلفظ لهم حقوقًا دورية، وغير
دورية «الزكاة»، وما بعد الزكاة، في أموال الأفراد الفقرين، وفي مال الجماعة
وموارد الدولة، ويعمل على تقرب الشقة بينهم، وبين الأغنياء، فيجد من طغيان
الأغنياء، ويرفع من مستوى الفقراء، ولا يقبل في مجتمعهم، أن يبيت فرد شيعان،
وتجار إلى جنبه جائع، ويرى أن الدولة مسئولة مباشرة عن رعاية هؤلاء،
فالإمام راح، وهو مسئول عن رعيته.

· ترشيد الفكرة الوطنية والقومية:

15 - الإسلام يرى أن لا حرج على المسلم أن يحب وطنه ويعتز به، وأن يحب
قومه ويعتز بهم، بما في ذلك لا يتعارض مع حبه لديه واعترافه به، وبهذا لا يضيق
صدره بالوطنية أو القومية، إذا لم يتضمنا حصول حريات الإسلام أو نتائجه كالإلحاد
أو التعددية أو النزاعات القبلية، ونحوها.
ويست.Username вاعف الإسلام تعاطفًا خاصًا مع العربية المؤثرة، يعبر عنها وعاء الإسلام،
وباعتبار العربية لسان القرآن والسنة، ولغة العبادة والثقافة الإسلامية، وباعتبار
العرب هم عصبة الإسلام وحملة رسالة، وباعتبار أرض العرب معلم الإسلام.
وكرمه، وفيها المساجد الثلاثة العظيم، التي لا تشهد الرحالة إلا لو أنها في مكة
والقدس والقدس العربي المقصود هو عروبة اللسان والثقافة، لعروبة العرق
والعصر، فمن تكلم بالعربية فهو عرب.
فالإسلام بهذا، ينبني ولا يهدم، ويوجد ولا يفرق، ويقوي ولا يضعف، يدعو
إلى وحدة الوطن وماسكه، ووحدة العرب، ووحدة الأمة الإسلامية، سعيًا إلى
وحدة الإنسانية، وتضمنها في ظل مبادئ أخلاقية مشتركة.

· الدعوة بالحكمية وال الحوار بالحسن:

16 - الإسلام يقبل الفكرة بالفكر، والشبهة بالحقيقة، فلا إكراه في الدين، ولا
إجبار في الفكر، ولا عنف في الدعوة، فهو يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والوعظة
الحسن، ويحارب المخالفين بالتي هي أحسن، يرفض العنف منهجًا، والإرهاب
وسيلة، سواء وقع ممن المخالفين من من المحكومين، ويؤمن بالإجابة الراضية الهادفة
البناء، الذي يتيح لكل طرف أن يعرّف عن نفسه بوضح، مع الالتزام بالوضعية، وأدب
الخطاب، الذي أشار إليه القرآن بقوله: "وَجَادِلُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَحْسِنَ" (1)

(1) النحل : 125.
ولا تجابلاً أهل الكتاب إلا يأتى هُنَّ 1) ، فلَو كانت هناك طريقان للحوار إحداهما حسنة، والأخرى حسنة منها وأضيق فلم تأتى بائتي هُنَّ. ومن ذلك: التركيز على نقاط الاتفاق والجوامع المشتركة، لتشادي الناس والاختلاف، نصيًا للآخرين، كما قال تعالى: وقولوا أمنا بِاللَّهِ نُزُل إِلَيْنَا وَنُزُل إِلَيْكُمْ، وألَّهُمَّ إِلَيْهِمْ وَإِلَيْهِمْ وَاحِدٌ 2).

* شريعة التعددية الدينية والسياسية:

17- إسلام يؤمن بأن الله خلق الناس مختلفين 3) وآمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربيك، ولذلك خلقهم. أي لاختلاف خلقهم، لأن الاختلاف نغمة إعطاء العقل والإرادة، ولذا يقدر الرأى الآخر، سواء كان في فقه الدين، أو في أوضاع السياسة، وأن الاختلاف رحمة وخير إذا نشأ عن تعدد الرؤى والاجتهادات، وأن تعدد الأحزاب في النظام الإسلامي: أمر مشروع في إطار أصول الإسلام وأحكامه القطعية، وأن تعدد الأحزاب في السياسة، أشبه بتفاوت الطيف في الأيام، وكذلك تعدد الجماعات والحركات العامة للإسلام، ما دام تعددها ينير تبادلاً وتفاهمًا، لا تعدد تبادل وتشانعًا، وما دامت تقف صفاً واحدًا، في القضايا المصرية، مناسقة خلافاتها الجزئية، وما دام مبورها جميعًا للقرآن والسنة، وهدفها نصرة الإسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وشعارها: تتعاون فيما أتفقنا عليه، ويعجر بعضنا بعضًا، فيما اختلتنا فيه.

* بناء حضارة جديدة متعددة:

18- إسلام لا يكتفي بالتغنى بحضاراته الزاهرة بالأمس، ولكنه يعمل على إبداع حضارة إسلامية معاصرة، تأخذ من حضارة اليوم أفضل ما عندها، من عناصر العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم، وتحافظ على أساساتها وخصائصها، فهي حضارة تفصل فيها الأرض بالسماء، وتم تسجيلها في الفهم الإنساني بمعناها الإنسانية، وتجلي فيها اصالة الإسلام، وروح العمر، ويجتمع فيها العلم والإيمان، وينتمي فيها الحق والقوة، ويتوازن فيها الإبداع المادي، والسمو الأخلاقي، وينتمى فيها نور العقل، ونور الوجدان.

(1) العنكبوت: 42  (2) العنكبوت: 46  (3) هود: 18  19
حضارة تبرز فيها مقومات الإسلام وخصائصه، وتجسيد فيها أهدافه ومناهجه في بناء الفرد، وفي تكوين الأسرة، وفي تشييد المجتمع، وفي إقامة الدولة، وفي توجه الإنسانية إلى التي هي أقوم.

حضارة متميزة عن حضارة المعسكر الشرقي المادية والأخلاقية، وعن حضارة المعسكر الغربي النفعية العلمانية، حضارة لا تنتمي إلى بين ولا يسار، بل تنتمي إلى الإسلام وحده؛ منه تستمد، وعليه تعتمد، وإليه تهدف، ويه تتحرك وتنطلق، وفيه نبرز وتفوق.

ويلى - معًا - تؤمن بالتفاعل بين الثقافات، وال الحوار بين الحضارات، والتعارف بين الأكاس، والإخاء بين بني الإنسان حيثما كانوا، ولكنها تأتي أن تدوب في غيرها، وأن تقف أصالتها وميزاتها، لذا ترفض كل أنواع الزو الفضائي، والسلاب الحضاري، والسلاب الغربي، وتقاو الأمراض المتقالة، التي يدخل بها غزوة اليوم، متكررين في يد الإنسان، وهم يحرون تحتها نبي السباع.

ومم الأفاعي، وروح الشيطان!

- إقامة حياة إسلامية متكاملة:

- إسلام لا يجعل أكبر همه التطبيق الظاهر للجانب القانوني في الشريعة، وبخصوصاً جانب العقوبات فيه من الحدود والقصاص، وإن كانت جزءًا، لا يجوز تعطيله من أحكام الشريعة.

ولكن معمرتها الأولي، ومهمته الكبرى، "السعي الحثيث لإقامة حياة إسلامية حقية، لا شكلية، حياة تعمل على إصلاح ما يناسب الناس، حتى يصلح الله ما بهم، فإنهم يتنين الإنسان المؤمن، والأمة المناسقة، والمجتمع المرتبط، والدولة العادلة، التي تتصف بالقوة والأمانة، حياة إسلامية متكاملة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتسودها مفاهيم الإسلام، ويشكلها أحكام الإسلام، ويتجلها آداب الإسلام.

حياة مجتمع متكامل متواصل، كالناس، يتشابك بعضها بعضًا، لا يجوع فيه فرد، ويجاده إلى جنب شعبان، يتميز فيها العلم التفاعلين لكل جاهل، والعمل المناصب لكل عاطل، والأسر العادل لكل عامل، والغذاء الكافي لكل جائع، والعلاج الناجح لكل مريض، والسكن الصحي لكل موطن، والفنون التامة لكل محتاج، والرعاية المادية والاجتماعية لكل عاجز، وبخصائص الأطفال والشيوخ والأرامل، والمغرومين. كما تتوفر في هذه الحياة ممتعة على كل صعيد: القوة في الفكر، والقوة في الروح، والقوة في البدن، والقوة في الخلق، والقوة في الاقتصاد.
والقوة في السلاح والإعداد، بจรار قوة الوحدة، والتضامن، وأساس ذلك كله،
قوة الإمام.

- توحيد الأمة للفهم برسالتها وتحرير أرضها:

20 - الإسلام بيري أن المسلمين - حينما كانوا - أمة واحدة، بسعى يغلبهم أئهم،
وهم يدل على من سواهم، وأنهم أخوة، جمعهم العقيدة الواحدة، والقلمة
الواحدة، والإيكان بكتاب واحد، ورسل واحد، وشريعة واحدة، وأن عليهم أن
يزيلوا كل العوامل المفرقة جمعتهم، من الخضوع للعصابات العنصرية والإقليمية،
ومن التبغي للمناهج والأنظمة المستوردة: بيتية أو مسارية، ومن الأزمات في أحضان
الولايات المتحدة لأمتنا: غربية أو شرقية، ومن اتباع الأهواء والأنانيات الحاكمة
التي تدوس صمالي الأمة الكبيرة، في سبيل مطامعها الصغرية، ومكاسبها الفردية.

كما أن عليهم أن ينتقلوا بالتماسك الإسلامي القائم، من مرحلة الكلام إلى
مرحلة العمل، وأن يشددوا آرهم، ويوسعوا نطاقهم، حتى يصل إلى شكل سياسي
من أشكال الاتحاد أو التكتل في العالم المعاصر، الذي رايناه في التكتلات الاقتصادية
والسياسية الكبرى، في أوروبا وأمريكا وغيرها، والذين لا يعيش فيه الصغر، إلا
في حماية كبيرة، ولا تنجح فيه إلا الدول الكبرى، وأمتنا جدران تكون كتلة
كبرى، إذا استجابت لدعوة ربها، واعتصموا بحيل الله جمعاً ولا شرفاً (1).

وعلى المسلمين متضامنين، أن يعملوا على تحرير الأرض الإسلامية، من
غاصبيها، على أن تبدأ كل جماعة تحريز وطنها الخاص، يعاملهم المسلمون في
كل مكان، وبخاصة جيرانهم وأقرب الناس لهم، حسب حاجتهم العسكرية،
والأقتصادية، والبشرية، وعملهم في هذا من أفضل الجهاد في سبيل الله.

فلسطين - خاصة - مكان في جهاد اليوم، فهي أرض النبات،
ومسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى، وهي قضية كل مسلم، حتى تحرر
أرضها السليبة، واستعيد شعبها حقه، ويجيب دولة المستقلة في أرضه.

وهو - مع هذا - لا يجعل من المسلمين أمة عنصرية معتصبة، مغلقة على ذاتها،
بل هي أمة منفتحة أخرجت للناس» (2) فهي تعمل لإياعد الناس، وتقطع
الناس، و과학 الناس، دعاء الجميع أن يعزعروا ولا يختاروا، وأن يتفاضوا بالعلم
النافع والعمل الصالح» إن آمرك الله أن تأكل» (3).

(1) آل عمران : 103. (2) آل عمران : 110. (3) الحجرات : 13.
مفهوم العلمانية

ذلك هو مفهوم الإسلام، وتلك هي مفهوم العلمانية، كما يفهمها، ويدعو إليها التيار الإسلامي، المميز بالاستنارة والاعتدال والالتزام، فما مفهوم العلمانية؟

"Secularism" (1) ترجمة غير دقيقة، بل غير صحيحة لكلمة "Laique" في الإنجليزية، أو "Secularite" بالفرنسية، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ "العلم" ومشتقاته، على الإطلاق.

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية، يعبر عنه بكلمة "Science"، والذين العلمي، يطلق عليه كلمة "Scientist"، والنظر إلى العلم هي "Scientific" في الفرنسية، "Scientifique" في الفرنسية.

ثم إن زيادة الألف والتنوء، غير قياسية في اللغة العربية، أي في الأسم المنسب، إذا جاءت سمعًا مثل "رباني" نسبة إلى "رب"، ثم كثر في كلام المتآخرين، كقولهم: "روحاني، نفسي، ونوراني..."، واستعملها المحدثون في عبارات: مثل "عقلاني"، و"شخصاني"، ومثل "علماني".

والترجمة الصحيحة لكلمة هي "الادنية" أو "الدنيوية"، لا يعني ما يقابل الأخرية فحسب، بل يعني أخص، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقة بالدين، علاقة تضاد.

إذا ترجمت الكلمة الأجنبية بهذا اللفظ "ال علمانية"؛ لأن الذين تولوا الترجمة، لم يفهموا من كلمتي "ال الدين" و"العلم" إلا ما يفهمه الغربي الميحي منها، والدين والعلم في مفهوم الإنسان الغربي، متضادان معارضان، فما يكون

(1) بعضها ينقفها، يفتح العين، نسبة إلى "العالم"، وعاش ذلك في عدد من المعاجم، حيث أخذ بعضها عن بعض، وهو صحيح بذلك لقب "العالمية"، وأخرون يطلقونها بكسر عينها، وآنا منهم، نسبة إلى "العالم"، وهو خطأ من المترجمين، ذكرت سببها بعد مسطور.
دِينًا لا يكون علميًا، وما يكون علميًا لا يكون دينيًا، فالعلم والعقل يقعان في مقابل الدين، والعلمانية والعقلانية، في الصف المضاد للدين.
وتشمل النحوية الصحيحة من التعريف، الذي تورده المعجم، ودوائر المعارف.
الاجتهاد لكلمة: «Secularism»: وهي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس، وتوجههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها؛ وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى، رغبة شديدة في الزواج عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت Secularism تعرف نفسها، من خلال تنبؤات النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطالبهم في هذه الدنيا القريبة.
وظل الاتجاه إلى الـ «Secularism» يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث، وظل الاتجاه إلى الـ «Secularism» كله، باعتبارها حركة مضادة للذين، ومضادة للمسيحية.
ويقول قاموس العالم الجديد لويستر، شرحاً للمادة نفسها:
1 - الروح الدنيوية، أو الأفكار الدنيوية، ونحو ذلك على الخصوص:
نظام من المبادئ والتطبيقات practices يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.
2 - الاعتقاد بأن الدين والشؤون الدينية، لا دخل لها في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة.
ويقول معجم أكسفورد، شرحاً لكلمة: «Secular»
1 - دينيًا، أو ماديًا، ليس دينيًا ولا روحياً؛ مثل التربية اللادينية، الفن، أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.
2 - الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا لأخلاق الدين، ويقول معجم الدول الثالث الجديد، مادة: «Secularism»
انهاء في الحياة أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية، يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات، استبعادًا مقصودًا. فهي تعني مثالًا "السياسة الاثنينية البحتة في الحكومة". "ويهي نظام اجتماعي في الآخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والأخلاقية، على اعتبارات الحياة المعاصرة والتعاون الاجتماعي، دون النظر إلى الدين".

ويقول المستشرق "أبرهى" في كتابه "الدين في الشرق الأوسط" عن الكلمة نفسها:

إن المادية العلمية والإنسانية والذهب الطبيعي والوضعية، كلها أشكال للأديان، والdaline صفة أثرية لآسيا وأمريكا، ومع أنها موجودة في الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو برية محددة، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية (1).

* * *

(1) هذه القول من كتاب "العلمانية"، وهو رسالة ماجستير من جامعة "أم القرى"،

LSFR SBN ADH REHMEN ALI
العلمانية بين الغرب المسيحي والشرق المسلم

العلمانية - كما ذكرنا - كلمة جديدة الاستعمال في لغتنا العربية، شأنها شأن
كثير من الكلمات، التي أصبحت المصطلحات أو لها قوة المصطلحات في عصرنا،
و«الطبيعة» المذكورة في النسب، والألف والالفون زائدة.

ومن ينطقونها بكسر العين «العلمانية»، نسبة إلى «العلم» بكسر،
فسكون وهذا هو الأشهر، ومن ينطقونها بالفتح «العلمانية»، نسبة إلى «العلم»
بفتح، فسكون، يعني «العالم»، أي الدنيا، وعلى جرى «المعجم الوسيط»،
الذي أصدره مجمع اللغة العربية.

وكلمة - على كل حال كسرت عينها أو فتحت - مترجمة عن اللغات
الأوربية، كما رأينا، وكان يمكن أن يترجم بلغة لا دينية، لأن معنى الكلمة
الأجنبية ما ليس بديني، وكل ما ليس بديني، هو لا ديني، ولكن اختيرت كلمة
"علمانى" أو "مدنى"؛ لأنها أقل إثارة من كلمة "لا دينى".

وكم أن لفظ الكلمة دخل على معاجمنا العربية، فإن معناها ومدلولها، سواء
أكانت بكسر العين أم بتفتحها، ما يقابل "الدين". فالعلمانى، ما ليس بدينى،
ومقابله الدينى أو الكهنوتى، وكان مدلول "العلمانى"، اتفقت عليه يعني:
"عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع"، وإيقاع، حسبا في ضمير الفرد، لا يتجاوز
العلاقة الخاصة بينه وبين ربه، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه، فهي الشعائر
التعبدية، والرموز المتعلقة بالزواج والوفاة، ونحوها.

وهذا المعنى غير معروف في تراثنا الإسلامي، فتقسيم "الحياة" إلى ما هو
ديني، وما هو غير ديني، تقسيم غير إسلامى، بل هو تقسيم مستورد، مأخوذ
من الغرب النورساني. وما نراه اليوم في مجتمعنا العربي والإسلامى من تقسيمات
للحياة، وللمجالس، وللمؤسسات، إلى دينى، وغير دينى، ليس من الإسلام في
شيء.
لم يكن في الإسلام - كما في عصورنا الأخيرة إلى اليوم - تعليم ديني، وتعليم غير ديني، ولم يكن في الإسلام أئمة يسرون رجال الدين، وآخرون يسرون رجال العلم أو السياسة أو الدنيا، ولم يعرف الإسلام سلطتين: إحداهما دينية، والآخرى زمنية أو دنيوية، ولم يعرف في تراث الإسلام دين لا سياسة فيه، ولا سياسة لا دين لها.

لقد كان الدين منتزجًا بالحياة كلها، امتدًا الروح بالجسم، فلا يوجد شيء منفصل اسمه الروح، ولا شيء منفصل اسمه الجسم، وكذلك كان الدين والعلم، أو الدين والدنيا، أو الدين والدولة في الإسلام.

إن العلمانية "بضاعة غربية" لم تثبت في أرضنا، ولا تنتقم مع عقائدها ومسلماننا الفكرية.
مثيرات ظهور العلمانية في الغرب المسيحي

لقد كان لظهور العلمانية في الغرب مثيراتها الدينية، والفكرية، والنفسية، والتاريخية، والواقعية، وهي مثيرات خاصة بالعالم الغربي، لا يجوز للعالم الإسلامي أن يقلله فيها:

أ) المسيحية تقبل قسمة الحياة بين الله وبين قيصر:
إن المسيحية - نفسها - تحتوي من النصوص ما يؤيد فكرة العلمانية، أي الفصل بين الدين والدولة، أو بين السلطة الروحية والسلطة الرئاسية.

أجل، تعترف المسيحية بهذه الثنائية للحياة، بحيث تقسمها قسمين:

أ) القيصر وهو الجانب، الذي يخضع للسلطة الزمنية، سلطة الدولة، والثانيهو: الله، وهو الجانب، الذي يخضع للسلطة الروحية، سلطة الكنيسة.
وهذا واضح في قول المسيح (عليه السلام) كما يرويه الإنجيل: "أعط ما ليقبني لقيصر، وما لله الله!"

ويندل هذا من تاريخ الفكر الغربي، أنه لم يعرف الله، الذي نعرفه نحن المسلمين، محلياً بكل شيء، مديراً لكل أمر، لا تخفي عليه خافية، ولا يبيب عن علمه ذره، في السماوات ولا في الأرض، وسع كل شيء، رحمة وعلماً، وأحصى كل شيء عددًا، وجعل لكل شيء قدرًا، بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وإنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكموا بين الناس، فيما اختلقوا فيه.

إذا ما الفكر الغربي إلى آخر، مثل إنه "أرسطو"، الذي لا يعلم شيئا غير ذاته، ولا يدري عما في الكون شيئاً، ولا يدير فيه أمرًا، ولا يحرك ساكناً، فهو - كما قال مورخ الحضارة والفلسفة، ولد ديوان "إله مسكون، أشبه بملك الإنجليز، يملك ولا يحكم!

أما الإسلام، فهو لا يعرف هذا الإله المسكون المعزول عن الكون والإنسان، ولا يقبل الثنائية، التي عرفها الفكر المسيحي والفكر الغربي، الذي يشتر الإنسان،
ويقسم الحياة بين الله تعالى وبين قيصر، فليس قيصر نداً لله، فنانعه في ملكه، بل هو عبد الله، يخضع لحكمه، ودين لأمره ونهبه، كما يدين كل العباد.

إن عقيدة التوحيد الإسلامية ترفض الشرك في العبودية لله، أو الشرك في الولاء له، أو الشرك في الطاعة لحكمه، فالسلم لا يسعى غير الله ولياً، ولا يتخذه غير الله حماً، كما وضحت ذلك سورة التوحيد. سورة الأعاص، وإذا يجب أن يكون المسلم كله الله، وحياته كله الله، فقل إن صلاني ونسكني ومحلوي وماماتي لله رب العالمين (1).

(ب) المسيحية ليس فيها تشريع لشؤون الحياة.

ومن ناحية أخرى، لا تملك المسيحية تشريعًا مفصلًا لشؤون الحياة، يضطرب معاملاتها، وينظم علاقتها، ويعوض الأولاد والموارين فقط لتصرفاتها. إذا هي روحايات وأخلاقيات تضمنها مواضع الإجليل، وكلمات المسيح فيه. على خلاف الإسلام، الذي جاء عقيدة وشريعة، ووضع الأصول لحياة الإنسان من المهد إلى اللهد. ونزلنا عليك الكتاب نبينًا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (2).

ولهذا شمل التشريع الإسلامي الخلاص والجنازة في حياة الفرد، كما نظم الحقوق والواجبات في دائرة الأسرة، ونظم شئون المبادلات والمعاملات في المجتمع بين الناس بعضهم وبعض، كما عني بشئون الإدارة والمال والسياسة الشرعية، وكل ما يتعلق بهعقود الراعي والرعية، وكذلك العلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية، وغيرها من الأمم المسلمين محاربين.

ووُلَد هذا ما تضمنه الفقه الإسلامي، الذي يضمن في جنباته، كل ما يتعلق بحياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، من كتاب الظهارة إلى كتاب الجهاد، ومن آداب الأكل والشرب، إلى بناء الدولة.

أما المسيحي، فليس عدود مثل هذا التشريع، يرجع إليه، ويحكم به، أو يحكم إليه.

(1) الأمم : 162
(2) التحليل : 89
فالسيحي، إذا حكمه قانون مدني وضعي، لا يزعج كثيرًا ولا قيالًا؛ لأنه لا يعمل قانونًا فرضه عليه دينه، ولا يشعر بالتناقض بين عقائده وواقعه، كما يشعر به المسلم، الذي يوجب عليه إيمانه بالله ورسوله الاحترام إليهما فيما شرعا، والسمع والطاعة لما أمره به أو نهايته عنه. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بهم أن يقولوا سعيا واطعما، وأولئك هم المفلحون.(1)

(ج) ليس للإسلام سلطة دينية بابوية:

على أن العلمانية، إذا فصلت دين السيحي عن دولته، أو دولته عن دينه، لا يضيع دينه، ولا يزول سلطاته؛ لأن لديه سلطة الفعل قائمة، لها قوتها وخطرها ومالها ورجالها.

فهناك سلطتان بالفعل في المسيحية: السلطة الدينية، ويليها البابا، ورجال الاكليروس، والسلطة الدنيوية، ويليها الملك أو رئيس الجمهورية، ورجال حكومته، وأعوان سلطته.

فإذا انفصلت الدولة عن الدين هناك، بقي الدين قائماً، في ظل سلطته القوية الغنية الثرية، وبقيت جيوشها من الرهبان والراهبات والبشر والبشرة تعمل في مجالاتها المختلفة، دون أن يكون للدولة عليهم سلطان بخلاف ما لو فعلت ذلك دولة إسلامية، فإن النتيجة أن يبقى الدين غير سلطان يؤده، ولا قوة تستند، حيث لا بابوية له ولا كهنة ولا اكليروس.

وهو ما حدث في تركية المسلمة، حين أعلن كمال أتاتورك علمانية الدولة، وفصل الدين، وفصل الدين عنها. كما فعل ذلك الكاتب المغربي المسلم الأستاذ إدريس الكتاني في كتابه: المغرب المسلم ضد الأديانة. يقول الأستاذ: إن التحريج التركية خلال 30 عامًا، أكثر من 60 عامًا الآن، أتاحت الدليل على أن تنطلق هذا النظام في دولة إسلامية، معناه الفضاء على الإسلام، كفيدة حية مزدهرة، ورسالة إنسانية خالدة؛ ذلك أن تجري الحكومة من السلطة الدينية، ومن صبغة الدين - مع العلم بأنه لا يوجد في المجتمع الإسلامي من يمثل هذه السلطة،

(1) الدور: 51.

م 4 (الإسلام والعلمانية)
كما هو الشأن في المسيحية - لا يعني إلا انقضاض سلطة الدين الإسلامي بالمرة.
وهذا عين ما حدث في تركيا، فإن الكمالينون عندما فضلوا دولة عن كل سلطة دينية لم يكونوا راغبين فعلا في وجودها، ولذلك عمدوا إلى إنشاء إدارة صغيرة للشئون الدينية، تشرف على المساجد، وهي المظهر الوحيد، الذي يبقى للإسلام في تركيا.

ومن البديهي أن هذه الإدارة لم تكن لها أي سلطة دينية، لأنها في الواقع مصلحة حكومية صرفه، ولا يمكن - بحال من الأحوال - مقارنة نفوذ هذه الإدارة بسلطة "البابا" الروحية العظيمة في العالم المسيحي، وسلطاته المستقلة - تماما - في إدارة الكنسات والمؤسسات والمصالح المسيحية كلها.

ومن هذا يتشضح لنا أن نظام "لادينية الدولة"، إذا كان ينسجم مع المسيحية، ولا يقضي على سلطتها، وإذا يحدد احتراماتها بالنسبة للسلطة الدنيوية، فإن هذا النظام يتعارض - تمامًا - مع طبيعة الإسلام، ويكون خطرًا مباشرًا عليها، كشريعة كاملة للحياة، ويعطل أجهزته المتحركة، عن القيام بوظيفتها، ويجهله بالتالي، إلى عاطفة وجدانية نائمة في قلوب الناس.

ولذلك فإن المغرب العربي المسلم، لن يسمح بإعادة "التجربة التركية" فوق أراضيه الطاهرة، ولن يصبح "لايكي"، إلا عندما ترغب شعوبه في التخلص عن عقيدتها وإعمالها، والتنكر بتاريخها ورسالتها، وهذا ما لم تسجمه به للاستعمار في الماضي، ولكن تسجمه به للذين وقعوا تحت سيطرته الفكرية في المستقبل، بإذن الله (1).

والواقع، أن هذا ليس موقف المغرب العربي المسلم وحده، بل هو موقف المشرق العربي المسلم أيضًا، وموقف العالم الإسلامي كله، لأن منطلق الجميع واحد، والوجهة واحدة، والخطر عليهم واحد.

(د) تاريخ الكنيسة غير تاريخ الإسلام:
إن تاريخ الكنيسة نفسه مع العلم والفكر والحرية، تاريخ مخفٍ، فقد وقف...

(1) ، 94 . ص 93 .
التاريخ الكنيسة في ذهن الإنسان الغربي المسيحي، يعني الاضطهاد والقتل ومحاكمته، والمذاهب المستمرة بين الطوائف المتنازعة بعضها وبعض، وعودة السلطة إليها، تعني عودة هذه الآلهة، فلا غرбо أن ينفر الإنسان الغربي منها، ويقف في سبيل حكماها وسلطتها.

لنتسهب إلى شاهد من أهلها، وهو الأستاذ "أمير رفيق"، حيث يحلل أسباب فشل المسيحية في كتابه "تحليل السلام"، يقول: "إن القتال الواسع النطاق، والتعذيب، والاضطهاد، الضغوط، التي شهدتها في منتصف القرن العشرين، لأمّة قاطعة على الإفلاس الكامل للمسيحية، كوسيلة لترويض الأفعال الإنسان الغزيئة، ولتحويل الإنسان، من حيوان إلى مخلوق اجتماعي معقول.

وإن بعث البربرية، والاستعمال القذر لقتل الجماعي، في العالم بأسره، لا يمكن اعتباره عمل لقلة من الأفراد، الذين لا يؤمنون بالله، أصابهم مرض التلذذ بالتعذيب "الصادم"، أو جماعة من المتخصصين للمشتوية اليابانية.

لقد قتل ملايين من الأبرياء، دون أن تهتز شعور في جسم من قتلهم، كما نهب عشرات الملايين من البشر، وجردوا ما يملكون، ونفوا عن بلدتهم، واستعبدوا، وقد لقوا هذا المنير على أيدي مسيحيين، انحدروا من أصل أسر مسيحية، استنفت منذ قرون، إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أو إلى الكنيسة الشرقية البروتستانتية.

ولقد ارتكبت فظائع ومأس مفزع، ومجردة من كل مظهر إنساني، لا على يد ألمان، ويبانيين فحسب، بل على أيدي إسبانين، وطليان، وبولنديين، ورومانين، ومجري، وفرنسيين، وصربي، وإثنان، وروس. ولقد أغتست عن هذه القطاعات، وأغمضت عينها، كل المجتمعات المسيحية، على اختلاف مذاهبها.
وليس قصدنا هنا، أن نفهم أو أصدر حكمًا على أي دين منزل منظم. لاغضائه عن هذه الانفجارات الوعائية الشبيهة بحيوانية الإنسان ما قبل التاريخ. ولكن مجرد حصول هذه النكسة أو وقوع تلك الرجعة، قاطع الدلالات على عدم كتابة الوسائل المسبحة في تكييف الأخلاق الإنسانية، والتأثير عليها، وحمل الإنسان على ترك ما توحي به غرائبه، وال.getUsername بالمثل الروحية.

إنه من البدع نكران أن المسيحية عجزت عن التسبب إلى نفس الإنسان، وعن غرس جذور في تلك النفس، لقد اقتصر نجاحها - فقط - على خلق قشرة رقية من السلك الخلقى، وطبقا خفيفة من الخضار، لم تلبث القلاقل الاجتماعية، التي شهدتها القرن العشرين، حتى مرقتها قطعا.

ثم يتبع تحليه قائلًا: إن ألفية سنة، لزم كاف، للحكم على جوهرية أية طريقة، بصرف النظر عن المذهب، الذي تطبقه هذه الطريقة. خلال هذه القرون العشرين، خُلِّى إلى الناس أن المسيحية نجحت في تأسيس الحيوان الراقد في صدر الإنسان، وفي ضبط وتقيد النزاعات والخصائص الإنسانية المشردة. ولكن منذ حادث الكانص عن رسالتها الإنسانية العالمية، تحولت إلى "منظمات وطنية"، مؤيدة لآر الوطينة الوثيقة القبلية، كم هي ضعيفة قضية المسيحية على العالم الغربي! ذلك لأنها من أجل عرض الدنيا، قد تخلت عن تعاليمها الروحية، مستسلمًا أمام غرائز الإنسان البركانية، التي يعلم بعضها بعضًا، ما لم ينظرها القانون، ويلزمها قدما.

إن ما في المسيحية من قداسة، ودواج للحضارة، هو توحدها وأعمالها، أي تعاليمها القائلة: أن الناس خلقوا متساويين آمن الله، وأنهم عبيد لآله واحد، يحكمهم قانون واحد، فتلك هي التعاليم المنطوية على الفكرية حقًا، في تاريخ الإنسانية.

ولكن لنمسؤول القسط: المسيحية كدين منظم، تحولت شيئًا فشيئًا إلى منظمة، ذات سلطة رئاسية مطلقة، وقد أدى هذا إلى Shism، ثم إلى الفرق، وبذلك انحدر القانون الواحد العالمي، إلى دينكورية من ناحية، وإلى انتشار الفرق.
والذاهب على أوسع نطاق من ناحية أخرى. وفي هذه اللحظة، بدأت الأوطان والقوميات الحديثة تتكمل، كما بدأ الشعور الوطني يسود العالم الغربي، ويفوق على الشعور المسيحي، فانقسمت الكنائس المسيحية فيما بينها إلى عدد جديد من الفرق المذهبية، وجعل كل فريق منها يؤيد المثل الأعلى الجديد الناشيء، أعنى المثل الأعلى الوطني.

وأما لينا المسيحية أن تشابهت بالوطنية، وفي كل وطن اعتبرت السياسة الوطنية، كأنها سياسة مسيحية، لناشئة الأفكار الإشكالية والموجات المناخية والنزاعات الحرة.

هذا نموذج للمطاعن، التي وجهت للمسيحية، وهو غني عن كل تعليق. فهل الإسلام كان كذلك؟ وهل يمكن أن يؤخد ب مثل ذلك؟ إن وقائع التاريخ وحقائق الإسلام تجيب بالنفي، ولكن الإسلام مع ذلك تأثر من هذه الحملة، كما تأثر من طبائق الأفكار الوطنية والقومية عليه، ليس فقط؛ لأن الغربيين أصبحوا ينظرون إليه ويكتبون عنه، باعتبار أنه نسخة من المسيحية كما يفهمونها؛ بل لأن المسلمين الذين تعلموا في مدارسهم "اللايكية"، أصبحوا يعتقدون ذلك بدورهم، وينظرون إليه بنفس المنظار (1).

* * *

(1) المغرب المسلم ضد اللادينية ص 71 - 73.
فشل العلمانية في ديار الإسلام

من أجل هذا، لا يتضور للإسلامية أن تنجح في بلد إسلامي، لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام، الذي تدين به الشعوب المسلمة، ومناقضة لفهوسه وسلوكه وتاريخه... ولا يوجد أي مبرر لقيامها، كما وجد ذلك في الغرب النصراني.

كل ما تفعله العلمانية أنها تتحاول تغيير طبيعة الأمة واتجاهها، والأمة لا تستجيب لها، حيث ترفض أيجزة المناقة في كيانها، زرع هذا الجسم الغريب في داخلها، وتقوم بكل قوة، فينشأ بين الحكم العلماني وبين الأمة المسلمة صراع، يظهر حيًا ويختفى أحيانًا، ويهدد يومًا، وينكمش يومًا آخر، ولكنه صراع باق مستمر.

لا شيء صراع بين الذات وبين العدوان على الذات، وقد يخدم كمون النار في البركان، ولكنه لا يدم يومًا أن ينفجر.

والاتجاه العلماني - على كل حال - يفوق انطلاق الأمة بكل طاقاتها، لأنه قريب عنها، دخيل عليها، لا يحركها من داخلها، ولا يخطط لها بالسان، الذي يهز كينوتها.

وأبرز بلد إسلامي حكثته العلمانية، ونفدت فيه خططها، وضربت بدء من حديد كل من يقاومها، وضاقت في ذلك بحرًا من الدم، هو: تركيا، بلد الخلافة الإسلامية الأخيرة، الذي فهو ً أتاتورك ً على تطبيق الأنوثة الغربي في الحياة كلها، في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والتعليم، والثقافة، وسلخه من تراثه، وقيمه، وتقليده، كما تسخن النشأة من جلدها، وأقام دستورًا لا دينًا، ينزل الدين عن الحياة عزلًا كاملاً، قامت - على أساسه - قوانين مكافحة للإسلام كل المجاففة، حتى في شؤون الأسرة والأحوال الشخصية.

فهل استطاع أتاتورك وخلفاؤه من بعده، ومعهم الدستور والقوانين، والتعليم، والإعلام، والجيش والشرطة، ومن وراءهم الغرب بكل جبروه وقوته، أن يجتهدوا جذور الأفكار الإسلامية، والمشاعر الإسلامية، والتطاولات الإسلامية، والقيم الإسلامية، من حياة الشعب التركي المسلم؟
الواقع الذي يشهد، كل من زار تركيا في السنين الأخيرة، يشهد بمسجد المزحمة بالمصلين من كل الأجيال، وتشهد به المدارس القرآنية التي تعد بالآلاف، ويشهد به معايذ الأئمة والخطباء، ويشهد به انتشار الكتب الإسلامية، ويشهد به حال الأتراك الذين يعيشون في ألمانيا، وغيرها من بلدان أوروبا - هذا الواقع يقول: لا، وألف لا.

ولا يتأمل هنا ما كتبته جريدة "لوموند ديلومانيك" الفرنسية، في 1983/1/18م، عن تركيا بين مدنية الغرب وأصالة الإسلام، وقلتته مجلة "الرائد" التي تصدر في ألمانيا تقول الصحيفة: بعد قرنين من الإصلاحات، الرامية إلى طبع المجتمع التركي بالطابع الغربي، وبعد نصف قرن من الحكم العلماني، هناك حديث الآن عن ابتدعات الإسلام مجدد في تركيا، التي كانت من أواخر الدول الإسلامية، التي تفعل بين السياسة والدين.

فالثورة الكمالية كما أثار، كانت قد جعلت من العلمانية أساس الدولة وأساس التحديث فيها، مما كان يعني أن الإسلام يجب أن يخرج من الحياة العامة، لبببسات فقطبق التأثير في ضمائر المثليين، وكذا تجنبت الإسلام، الذي هو دين وسياسة قبل كل شيء، إلى مسألة خاصة، بجرة قلم من جانب الدولة، التي راحت تسرف عليه.

والواقع أن فصل الإسلام عن السياسة في بلد مسلم بصورة تامة تقريباً، كانت تجربة فريدة، تقوم بها دولة علمانية قائمة على النمط الغربي، وأدى هذا الوضع إلى انتقال الإسلام من موقع السيادة والسلطة إلى موقع الظل في الأوساط الشعبية، وخاصة الفلاحين في الأناضول، وأصبح عرضة للتقدم غالياً، فالمدارس القرآنية والزوايا، اعتبرت غير شرعية، ابتداء من عام 1925، على اعتبار أنها مراكز للتطرف والتأمر الرجعي.

ولكن هل انطفأ الإسلام - مع ذلك - في ضمائر الأتراك، واختفى من الحياة السياسية التركية؟ يبدو أن العكس هو الصحيح، ومع اختفاء الإسلام من أعلام الطبقة الحاكمة، تحول إلى مركز الخيارات السياسية في البلاد. فالجماعيات
الإسلامية والتعليم الدينية، استمرت تمارس نفوذها وسط الجماهير في الأناضول، بل اكتسبت أنتصارًا جدًا.

إن حماس الجماهير التركية للرموز الإسلامية، لا يرجع فقط إلى نشاط الجمعيات «التشيكيدي» و«القادرى» وغيرهما، أو لكون الحكم معاديًا للدين، بل يرجع كذلك إلى رفض المجتمع التركي لأي نموذج اجتماعي يخرج عن الإطار الثقافي الإسلامي، وخصوصًا هذا المجتمع من رؤية الهوية الثقافية التركية، تذوب شيئًا فشيئًا وسط تبامي نفوذ تنامي نفوذ الحراك الغربي داخل تركيا. إن من الصعب الآن تحديد عدد أتباع الجمعيات الدينية في تركيا، وعدد الذين يذهبون للمدارس الإسلامية السرية، لأن هذه الجمعيات والمدارس لا تعمل كما تعمل الأحزاب، ولكن يمكن أخذ فكرة عن طريقة نسبة الأصوات التي حصل عليها حزب الخلاص الوطني، الذي يترأس السيد أزركان، الذي يقع الآن في السجن بتهمة معارضته مبادئ العلمانية، ومخالفة المادة 123 من القانون، التي تحرم الدعوة لأي ريب بين الدين والحياة الاقتصادية أو السياسية. وواقع أن حزب الخلاص بدأ مع دخول النمط البرلماني إلى تركيا، وقد حصل في انتخابات 1973 على 11.8 بالمائة من مجموع الأصوات، واحتفظ بهذه النسبة عمومًا - عوضًا مع ميل للانخفاض، حتى قيام الانقلاب العسكري في أيلول 1980 م 1 هـ.

* * *

16
العلمانية والعلمية:

نرى العديد من العلماء في الترجمة الخاصة بكلمة "العلمانية"، محاولةً أن يجعلها مصطلحًا بـ "العلمية". وقالوا: إن العلمانية تعني استخدام العلم والعقل، مؤذن بناž أو مصريين - بأن الإسلام صدر العقل والعلم.

وهذه مغالطة مكشوفة، فإن البون شائع بين العلمانية والعلمانية، ونحن نقول:

"نعم" للأولى، و"لا" للثانية.

العلمانية وجهة تنسب إلى العلم، وتعتبر إلى ما في كل مجالات الحياة.

وهي مادية وادبية، مدنية وعسكرية، سياسية وإقتصادية، فردية واجتماعية.

والعلمانيون من الناس، هم الذين يتبينون هذه الوجهة في جبرم ما يقره العلم، ويبنون على حكمه، ويكيفون حياتهم وفقاً للفضاء، أما غيرهم، فيمضون في طريقهم، تبعًا للأهواء والعواطف الشخصية أو "الحزمة" أو للفترات والأوهام، أو تقييدًا لغيرهم، دون فحص ولا اختبار.

ونريد بـ "العلم" هنا، ما قامت عليه الأدلة القاطعة؛ فكم من قضبان أدخلت تحت عنوان "العلم"، وهي ليست من العلم في شيء.

ومع ذلك كثير من نتائج العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي يربط بعضها ان برسوها ثوب العلم البديل، وهي ليست أكثر من استنتاجات، بنية على مقدمات غير قومي، قد يقبل بعضها، وأولى بعضها، وقد ترفض كلها. ولا أرى على ذلك من اختلاف النتائج، باختلاف المدارس الفكرية، التي ينتمي إليها الباحثون، ما بين شرق وغرب، وما بين يمين ويسار، يختلف كل منهما في درجاته من يمين اليسار إلى يسار اليسار.

وما أجد أن يطبق على هؤلاء، الذين يدعون العلمانية، فيما ليس علميًا.

ما قاله الله في قوم قبلهم: "وَمَا لَهُم بِكُن مِّن عَلَمٍ، إِن يَتَعْبُونَ إِلَّا الْخَطْأَ، وَإِنَّ الْخَطْأَ لَا يُعْيِنِرْ مِنْ أَلْحَاقِ شَيْئًا" (1)

(1) النجم: 28

57
ونحن المسلمين أولى الناس باحترام العلم، وتبني العلمية في كل أمرنا، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين. ولم يعرف تراثنا صراعًا بين الدين والعلم، كما عرفه العرب الذي آثاره الغرب بينهما قرونًا، كان من أمثالها محاكم التفتيش وأهوائها التي يبدى لها جبين التاريخ.

ومعجزة نبي الإسلام لم تكن كونية، تخضع لها الأعناق مفهورة، بل آية علمية تدعى لها العقول مقنعة، وهي القرآن الكريم.

ولما طلب مشركون العرب من النبي ﷺ أن تكون له آية حسية، كما كان للاحياء من قبله، كان الرب الإلهعلىهم: "أو لم تخففهم أن أرسلنا علّيك كتابًا يتعلى عليهم" (1).

وحسناً أن أول سورة نزلت في القرآن، بدأت بقوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" (2).

وثاني سورة نزلت بدأت بقوله: "ن، والقلم وما يسرعون" (3).

وثاني القرآن ينشيء العقلية العلمية، التي تعتبر التفكير عبادة، والعلم فرضية، وترى الإنسان والتاريخ والكون كله سراجًا للنظر والتأمل في الأرضايات للملوثين وفهي أنسكم آثارًا تصرفون" (4).

"أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء" (5).

"قل سيراً في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" (6).

"أو لم يسبروا في الأرض كيفما كف كاف عبادة الدين من قبليهم" (7).

"أقد يسبروا في الأرض بكون لهم قلوب يعلمون بها أو آذاً يسمعون بيهما، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب آله في الصدور" (8).

________________________
(1) الظهر: 1
(2) الفصل: 1
(3) الأعلى: 185
(4) الذاريات: 18
(5) التوبة: 9
(6) الحج: 46
(7) الروم: 9

58
العقلية، التي لا تقبل دعوى، بغير برها يثبت صحتها، إلا فدعاوا مرودة
عليه، كان ما كان قل هنالك برهاكم إن كنت صادقين (1).
فمن أدعى النبوة، طلبت بالبيئة فأت بها إن كنت من الصادقين (2).
ومن دعا الناس إلى عبادة، قل له: إن عدكم من سلطان بهذا، أنكمون
على الله ما لا تعلمون (3).
ومن أدعى في الدين شيتا، ينسب إلى الله تعالى، قبل له ولمن وافقه: قل
عذكم من علم فتخروجو لنا (4). نبوني بعلم إن كنت صادقين (5).
إنهما العقلية العلمية، التي تطلب البرهان البحت في العقلات، ورصد
التجربة في الحسابات، وصحة التقل في المرويات: أن تكون بكتاب من قبل هذا
أو آثار من علم إن كنت صادقين (6).
العقلية، التي ترفض الطين في مقام اليقين، وما يتبع أكثرهم إلا طنا،
إن الطين لا يغني من الحق شيتا (7).
وترفض أن تتبع الهوى بدل اتباع الحق، هو النفس، أو أهواء الغير، ومن
أصل ممن تتبع هواه بغير هدى من الله (8). ثم جعلناك على شريعة من
الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (9).
وترفض مبدأ تقليل الآباء، ولم كانوا في ضلال مبين: أو لم كان آباهم لا
يعلمون شيتا ولا يهتدون (10).
وترفض اتباع الآخرين غير حجة، ولم كانوا سادة القوم وكبارهم: وقالوا
ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبارنا فأضلونا السبل (11).
وحسبنا أن القرآن نوه بالعلم، وأشاد بأثره في عدد من قصص الأنبياء الكرام.

(1) البرق : 111. (2) الإعراف : 106. (3) يونس : 68.
(11) الأحزاب : 67. (10) المائدة : 142.
فهو في قصة آدم، المرشح الأول خلافة الإنسان في الأرض، وله أثبت آدم تفوقه على الملائكة المقربين.

وهو في قصة يوسف، الذي أنقذ الله به مصر وما حولها من المجاعة الماحقة، نتيجة التخطيط الاقتصادي الزراعي المحكم - إنتاجًا وإدخالًا واستهلاكًا - لمدة خمسة عشر عامًا. وهو في قصة سليمان، الذي استطاع به صاحبه، الذي عنده علم من الكتاب، أن يحضر به عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام، قبل أن يرتد إليه طرفه، وهو ما لم يستطعه عشرين من الجن، فدل على أن قوة الإنسان بالعلم تفوق قوة الجن، على ما لهم من قدرات وإمكانيات.

وفي السنة الثامنة يحمل على الأوهام والخوفات، التي يعتمد عليها الكهنة والعرافون في الجو الوثني.

كما أنكر بشدة الاعتماد على النائمات والأجحيدة ونحوها، دون أن يبحث عن الدواء المناسب له، معلناً: أن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علبه، جهله من جهله.

وئى الرسول الكريم ينزل عن رأيه الخاص، إلى رأي الخبراء، كما في موقعة بدر، ونزوله على رأي الحباب بن المطر.

ونراه عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة، يبادر بعمل إحياء للمؤمنين به، يعرف منه مدى القوة الضرارية لمهله، فقال: «أحسوا ما عدد من يلفظ بالإسلام» فأحسوا له، فكانوا ألقاً وخمسمان رجل، كما رواه البخاري.

ونراه يعتبر نتائج التجربة في الشؤون الفنية المتعلقة بشئون الدنيا، من كيفيات الزراعة والصناعة وتجارة التسلح والطب ونحوها، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: "أنتم أعلم بأمر نناكم".

لم تكن هذه التعليمات القرآنية والنبوية حبرًا على ورق، فقد آتى أكلها، وقامت في ظلها حضارة شامخة اليمن، وطيدة الأركان، آتى بين الإنسان والعالم، بين العقيدة والفكر، بين الشريعة والحكمة، ولم يصطدم فيها معقول صريح، بمقولات
في العقيدة عندنا - نحن المسلمون - تقوم على أساس البيئة والبرهان، لا على أساس التقاليد للآباء، أو الطاعة للركب، والدعوة في الإسلام يجب أن تكون على بصرة، وليس في الإسلام ما عرف في أديان أخرى من مثل قولهم: اعتقده وأنت أعمى! أو أغمض عينيك ثم اتبعني!

ولهذا شحن القرآن بالأدلة على توحيد الله تعالى، وعلى صدق رسوله، وعلى إمكان البعث، وحكمة الجزاء في الآخرة، وغيرها.

والشريعة في الإسلام قائمة على رعاية مصالح العباد، في المعاش والمعاد، كما يعبر فقهاؤها، وكما يدل على ذلك استقراء أحكامها في العبادات والمعاملات، وكما يؤكد ذلك تعليمات الأحكام في القرآن والحديث.

فهي شريعة "منطقية"، لا تفرق بين متساويين، ولا ترى بين مختلفين، ولهذا كان "القياس" أصلاً من أصولها المعتبرة لدى جماعة الفقهاء المسلمين، ولن هذا قال أحد من آمن بالنبي ﷺ: «ما أحر شيء، فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمره عليه».

والانكاح "العلمي" أو "العقلانية" في الإسلام، أمر واضح ثابت، اعتبر به كل منصف، فمن تعلّم على شيء من تعاليم الإسلام الأصلية، في مصدرها النقاية، ولو من غير المسلمين، بل من بعض من اتخذوا موقفاً ضد الإسلام.

فهذا الكاتب الماركسي، مكسيم رودتسون، يقول في حدثه عن "العقيدة القرآنية" (1): "القرآن كتاب مقدس، تحت فيه العقلانية مكاناً، جد كبير. فلهذا...

(1) ص 134 وما بعدها، من كتاب "الإسلام والرأسمالية" ترجمة نزيه الحكيم، نشر دار الطليعة.
لا ينفك فيه نقاش ويقين الراهنين. بل إن أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحني نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتساعًا بالعقلانية في أي دين، الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور، وعلى خاقهم محمد - يعتبر القرآن هو نفسه أداة للبرهان؛ فهو في مناسبات عديدة، يكرر لنا أن الرسول قد جاءوا «بالبينات» وهو لا يألو يتزاح معارضيه، أن يأتي بمثله.

والقرآن ما ينفك يقدم الراهنين العقلانية على القدرة الإلهية، ففي خلق السمات والأرض، واحتكاف الليل والنهار، وتوالد الحيوان، ودورة الكواكب والأفلاك، وتنوع خبرات الحياة الحيوانية والنباتية، تنوعًا رائج التثابق مع حاجات البشر، آيات لأولى الألباب (آل عمران : 180) [1].

وفعل «عقل» يعنى ربط الأفكار بعضها بعضًا. حاكم البرهان العقلي ينكر في القرآن حوالي خمسين مرة، ويبكر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستكشافي، وكأنه لازمه: «أفعال تعلون» [1].

والأكبار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد، يوصفون بأنهم قوم لا يعقلون. لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي، يهذ تقاليدهم المروثة، وهم بهذا كالجمادات والأنعم، بل أكثر عجامة. ولذلك يكره الله هؤلاء الناس، الذين لا يريدون أن يعذروا النظر في أسس تفكيرهم.

ولكن كان يعنى الله سبحانه: «رسل الآيات الدالمة» على وجوده وإرادته، وأهمها الآيات المدللة على نبه محمد، فلكي يفهمها الناس، ويجعلوا منها أساسًا لتفكرهم. وترى الله يتم البيئة الفاضلة، ثم يختتم البرهان بقوله: «كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون» [1].

1) كان الأول الأستشهاد بآية البقرة رقم 164، فهي المقابلة لكلام المؤلف هنا. ويبدو من كلام المؤلف، أنه يبحث مادة عقل، فقط في القرآن، ولكن يبحث كلمات أخرى في الموضوع مثل: «نظر»، و«فكر»، و«فقه»، و«علم»، و«برهان»، و«لب»، و«نحوها»، وخرج بشيء كثير، وكثير جدًا.
2) البقرة: 44.
3) الروم: 28.
ويستمر الكاتب في بيان عقلانية الإسلام، مقارنًا هذا بما جاء في العهدゥن القديم والجديد، لليهود والمسيحيين، إلى أن يقول: "في مقابلة هذا، تبدو العقلانية القرآنية صلبة، كأنها الصخر" (1).

ومثل هذا المناخ العقلي، الذي صنعته آيات القرآن - كما اعترف به المفكر الماركسي وغيره - يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمي مصدر، قائم على استخدام أقنص الطاقات والمواهب البشرية.

وهذا كله بين لنا طبيعة "المناخ"، الذي هباه الإسلام لظهور "المهجة العلمية السليمة"، الذي لا يملك باحث الغرب أن ينكوه.

يقول العلامة رينيه ميليه: "لقد جاء المسلمون جميعًا في البحث بجدية، مبادأ يتفرع من الدين نفسه، هو مبدأ التأمل والبحث، وقد مالوا إلى العلم، وبرعوا فيها، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء. وقد وجد منهم كبار الأطباء.

يقول الدكتور فرحونترال: "إن أعظم نشاط فكرى قام به العرب، يبدو لنا جليًا في حقل المعرفة التجريبية، ضمن دائرة ملاحظاتهم وتجاربهم، فإنهم كانوا بدون نشاط واجتهادًا عجيبين، حين يلاحظون ويحبسون، حين يجمعون، ويرتون ما تعلموه من التجربة.

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الشهير جواستاف لاودون: "إن العرب هم الذين علموا العالم، كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، "و"العلمية" التي نتوه بها، لا تعني مجرد السعي للحصول على التفوق العلمي، وتأكيد الاهتمام بقرارات "العلم" وتطويرها، تأليفة وتعليمًا وبحثًا، في المدارس والجامعات، ومراكز البحث العلمي، وتوجيه العناية إلى التطور "التكنولوجي"، الذي ينمو بتصاعد يومًا بعد يوم.

"العلمية" لا تتفع عند هذا وحده، وإن كان الاهتمام بكل هذا غريزة وضرورة، والتقصير فيه منكرًا وإثماً مبينًا في نظر الإسلام.

(1) أنظر فصل "العقيدة القرآنية" من كتاب "الإسلام والرأسمالية".
إما تعني بـ "العلمية" - إلى جوار هذا - أن يسود "الفكر العلمي"، وتسود "روح العلمية" كل علاقاتنا ومواقفنا ومشوار حياتنا، بحيث ننظر إلى الأشياء والأعمال، والقضايا والملوثات "نظرة علمية"، وتصدر قراراتنا الاستراتيجية والتكنولوجية في الاقتصاد والسياسة والتعليم، وغيرها بعقلية علمية، وروى علمية بعيدًا عن الأرجالية، والذاتية، والانفعالية، والطغائية، والتحكيمية، والبريرية، التي تسود ساحة الزمان، وتضمن تصرفاتنا إلى حد بعيد، فمن سام من أصحاب القرار من اتباع هواه الشخصي، أو هوئ فتته وحزبه، كان أكبر همه اتباع ما يرضى أهواه الجماهير، لا ما يحقق مصالحها، ويؤمن مستقبلها، في وطنها الصغير، ووطنها الكبير، والأكبر.

وعلى "روح العلمية" دلائل ومظاهر أو ممارسات، كانت أشرت إليها أو إلى أهمها في كتاب "الحل الإسلامي" في مجال "ال النقد الذاتي" للحركة الإسلامية، يحسن بين أن أذكر بها هنا، وأؤكدها في مجال تأكيد حاجة الأمة إليها لا إلى "العلمانية" المستورة. وفي بعض الإعادة إفادة.

والروح العلمية سمات أبرزها:

1) النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال، بعض النظر عن الأشخاص، كما قال على بن أبي طالب: لا تعفر الحق بالرجال، اعرف الحق، تعفر أهله.

2) احترام الاختصاصات، كما قال القرآن: "فاأسألوا أهل الذكر" (1)، "فاأسأل به خبير" (2)، "ولا يبتلل مال خبير" (3). فلا تدين أهله، ولا الاقتصاد أهلها، وللعسكرية أهلها، ولكن فن رجال، وخاصة في مصر، عصر التخصص الدقيق. أما الذي يعرف في الدين والسياسة، والعلوم والفنون، وال帰نون الاقتصادية والعسكرية، ويتنافى في كل شيء، فهو في الحقيقة لا يعرف شيئاً.

(1) النحل: 43. (2) القرآن: 59. (3) فاطر: 14.
(3) القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه، وتقديم تجارب الماضي تقويمًا عادلاً، بعيدًا عن النظرة "النقبيّة"، التي تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد!
(4) استخدام أحدث الأساليب، وأقرها على تحقيق الغاية، والاستفادة من تجارب الغير، حتى من الخصوم. فالحكماء ضالة المؤمن، أني وجدتها، فهو أحق الناس بها.
(5) إخضاع كل شيء - فيما عدا المسلمات الدينية والعقلية - للفحص والاختبار، والرضا بالنتائج، كانت للإنسان أو عليه.
(6) عدم التعجل في إصدار الأحكام والقرارات، وتبني المواقف، إلا بعد دراسة مثالية، مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتتكشف المأخوذ والعيوب.
(7) تقدر وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، في الفقه وغيره، ما دام لكل دليله وجهته، وما دامت المسألة لم تثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع. ومن المقرر عند علمائنا: أن لا إنكار في المسائل الإجتماعية، إذ لا فضل لمجتهد على آخر، ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه في ظل التسامح والحب.

* * *

(م - الإسلام والعلمانية)
العلمانية والإخاد

إذا كان مفهوم الإخاد هو إنكار وجه الله سبحانه، كما هو مذهب المذبيين قديماً وحديثاً، ومنهم الشيوخون دعاة الماديات التاريخية، فإن العلمانية - حسب مفهومها - لا تعني بالضرورة الإخاد.

قد يوجد من العلماء من يجدوجود الله تعالى، أو يجد رسالته ووجهه، أو يجد لهجته في الآخرة، ولكن هذا ليس من اللوازم الذاتية للفكر العلمنائي، كما نشاهد في الغرب، فإن الذين نادوا بها، لم يكونوا ملحدة ينكرن وجود الله، بل هم ينكرون تسلط الكنيسة على شؤون العلم والحياة فحسب، فكل ما يعنيهم هو عزل الدين - مثالًا في رحلته وكنيسته - عن سياسة الدولة، وتوجيه أمرها، أو سياسية كانت، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو ثقافية، أو تربوية.

ولكن يجب أن نعزف بأن ثمة فرقًا واضحًا بين الإسلام، والمسيحية، في هذا الموضوع.

فالمسيحي يمكن أن يقبل العلمنائي، حاكمًا، أو محكومًا، ويقبل مع هذا مسيحيًا، غير مخدوش ولا مفهور في عقيدته ولا شريعته.

فالعلمانية لا تعني أن يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع، وأن يحتفل بأعياد ميلاد المسيح من كل عام، وأن يمارس شعائره الدينية الشخصية متي شاء.

والرسمي نفسها لا تتطلب شيء أكثر من ذلك، فليس فيها شريعة تلزم الحكم بها أو الامتثال إليها. وتifs بالتفكير والظلم والفسق من أعرق عنها.

ولم تDSL المسيحية نظامًا كاملًا للمجتمع، بصغرها بصغرها، ويقودها بتشريعاته ووصاياته، وأوامرها ونواحيه؛ في مختلف شؤون الفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، والعلاقات الدولية.
بل إن المسيحية في إخجلها نفسها، كما أظهرنا من قبل، تقبل ترك شؤون السياسة للحاكemin الذين يرون، بعيدًا عن توجيه الدين وإجلاله لله، كما هو ظاهر القولة، التي ذكرها الإنجيل عن المسيح (عليه السلام): "دع ما لقيصر لقيصر، وما لله الله!"

إذا نظرنا إلى العقلانية مع الإسلام وجدنا الأمر مختلف تمام الاختلاف، ذلك لأن الإسلام جاء نظامًا كاملاً للحياة، لا يقبل أن يشاركه أية "أيديولوجية" أخرى، في توجيهها، فهو الذي يحدد أهدافها، ويبني أصول منهجها، ويعد بالثواب أو العقاب، لن عمل بها، أو انحرف عنها.

جاء الإسلام عقيدة وشريعة، فالعقيدة هي الأساس، والشريعة هي المنهج.

فهو عقيدة، تبني منها شريعة، يقوم عليها مجتمع.

وهى شريعة ربانية المصدر، منزلة في أصولها من عين الله، والحكم بها والاحتكام إليها، من لوازم الإيمان، ودلائل الالتزام بالإسلام، ولهذا يكون المسلم، الذي يقبل العلمانية، مما تكن علمانية معتدلة متسائلة - في جبهة المعرضا للإسلام، وخصوصًا فيما يتعلق بتحكيم الشريعة، التي جاء بها كتاب الله تعالى، ونص رسوله.

إن هذا المسلم، الذي يقبل العلمانية، أو يدعو إليها - وإن لم يكن ملحدًا، يحكم وجود الله، وينكر الوحي، والدرا الآخرة - قد تنبه به عقلانته إلى الكفر، الوعي والعباذ بالله، إذا أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة - مثل خرير الربا أو الزنى، أو شرب الخمر، أو فرضية الزكاة، أو إقامة الحدود، أو غير ذلك من القطاعات، التي أجمع عنها الأمة، وثبتت بالتوازن اليقيني، الذي لا ريب فيه.

بل إن العلماني الذي يرفض مبدأ "تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتدي عن الإسلام بعقوله، يجب أن يستجب، وترجع عنه الشفاه، ويجب على الحق، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرد من انتخابه إلى الإسلام، أو سحب منه "الجنسية الإسلامية"، وفرق بينه وبين زوجته وولده.

وجرت عليه أحكام المرتدين المارقين، في الحياة، وبعد الوفاة.

* * *

٦٧
تحديد المعايير

إن تحديد الهوية أو الموقع ثم تحديد المفاهيم، بالصورة التي ذكرناها، يسهل علينا: "تحديد المعايير".

أريد بتحديد المعايير: الموارين التي يحكم إليها الفريقان، عند الخلاف، فإذا لم يكن هناك معيار يرضاه الفريقان، ظل الخلاف قائماً، ولم يحسم، بل لم يقبل الحسم؛ لأن كل طرف يدعى أن معه الحق، الذي لا يشوه الباطل، والصواب، الذي لا يطرق إليه الخطا.

وقد اتفق الناس في الماديات، على معايير يقissen بها، ويرجعون إليها؛ مثل الدربهم، أو الرطل، أو الكيلو جرام، في الموزعون، ومثل القدر، أو الذراع، أو المتر، في الأطوال والمساحات.

وكل ذلك لابد من معيار يرجع إليه في المعنويات، يحسم الخلاف، ويرفع النزاع.

وقد زعم الناس، في وقت من الأوقات، أن المنطق القياسي الصوري الأرسطي، يمكن أن يكون معيارًا صادقاً، وجعفو بأنهآ قانونية، تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر.

ولكن المنطق يعتمد على القضايا المسلمة عند الحسم، وإن لم تكن حقاً في ذاتها، ولها ذل الناس مختلفين أشد الاختلاف في عصر سيادة المنطق، ولم يعن عنهم منطقهم شيئاً.

قد يقال: إن هناك معايير إنسانية عامة، يرجع إليها الناس في كل زمان ومكان؛ مثل: العقل، والعلم، والمصلحة.

ولكن مشكلة هذه المعايير، أن كل الناس يدعونها، وبينهم من التباين والتناقض ما بين الشرق والغرب، أو ما بين السماء والأرض.

فاللهيرالي يزعم أن مذهب، يمثل قيمة العقل والعلم، ويرعى مصالح الناس.
والاشتراكي ينقض عليه دعوته، ويزعم أنه - وحده - ممثل العقل والعلم والمصلحة الحقيقية. وثالث لا يقر لهذا ولا لذلك.

وإذا نظرنا إلى مذاهب المفكرين والفلسفية قديمة وحديثا؛ نجد منهم من شرق، ومنهم من غرب، ومنهم المثوثن، ومنهم الحافظون، ومنهم الشاكون، الذين لا يثبتون ولا ينفون. منهم المؤلهون، ومنهم الملاحة المفكرون. منهم المثاليون، ومنهم الماديون الواقعون.

وكثيرهم ينتمي مذهب وفلسفته على دعائم عقلية، لها واجتهادا عندنا، وقد يجد من خصومهم من يدحضها ويبطلها، كما يجد من أنصارها من يدافع عنها، ويرد على معارضيها.

ولهذا كانت هناك حاجة ماسة، إلى نور آخر، بجوهر نور العقل، يسده ويرشده، فيكون له نور على نور، وذلك النور هو الوحي الإلهي، كما بين ذلك الإمام محمد عبدUTF "رسالة التوحيد".

الروحي، الذي لا يلغى دور العقل، ولكن يأخذ بيدا في المناهات، ويهدده في مفاصل الطرق، ومواقف الانتباه، التي كثر فيها الخلط، أو يحكم فيها الظن، أو يغلب فيها الهوى والتحيز، بحكم الضعف البشري.

من هنا يجب أن يكون وحى الله - أي الإسلام - هو المرجع عند التنازع، كما بناء من قبل.

ولكننا - مع هذا - نرحب بالاحتكام إلى العقل والعلم والمصلحة. حينما يكون العقل عقلا صرفا، لا يشوهه ظن ولا خروص، وينطلق من مقدمات صحيحة، ليصل إلى نتائج صحيحة.

وحينما يكون العلم علمًا محققًا ثابتا، لا مجرد افتراضات أو نظريات تخمينية، يناقض بعضها بعضًا، كما في كثير من حصاد "العلوم الإنسانية".

وحينما تكون المصلحة مصلحة حقيقية لا موهومة، مصلحة ترضي الجوانب الفردية والاجتماعية، المادية والمعنوية، الدينية والأخوية.

70.
نحن المسلمون، لا نخشى من تحكيم العقل ولا من تحكيم العلم، ولا من
تحكيم المصلحة. فهى - دائما - في جنبنا، ونحن أسعدهن بيه.
أما العلمانية في أوطاننا، فهى - بأى معيار - مرفوعة ؛ معيار الدين، ومعيار
العقل، ومعيار العلم، ومعيار المصلحة، إنها بض الدين، وض الدستور، وض
حقوق الإنسان، وض مصلحة الأمة، وأصابتها.
ولهذا نقول: إننا - مهما نختلف في تحديد المعايير، التي يجب الاحتكام
إليها - يمكننا أن نتفق على مجموعة منها:
- فلدينا: المعيار الرباني، وهو الوحى.
- وليدينا: المعيار الإنساني، وهو العقل.
- وليدينا: المعيار الاجتماعي، وهو المصلحة.
- وليدينا: المعيار السياسي، وهو الدستور.
- وليدينا: المعيار القومي، وهو الأصالة.
- وليدينا: المعيار الدولي، وهو وثيقة حقوق الإنسان.
- وليدينا: المعيار الديمقراطي، وهو احترام إرادة الأغلبية.
فماذا تقول هذه المعايير، إذا احتكمنا إليها في الخلاف بين الإسلاميين
والعلمانيين ؟
المعيار الرباني، الوحى:
أول هذه المعايير، ولا شك، هو المعيار الرباني، عنى الوحى الإلهى، الذي
أمده الله به البشر، ليهديهم فيما تعجز العقول عن الوصول إليه، وليرجعوا إليه،
إذا حارت أفكارهم، وتناقضت آراؤهم، وترفت بهم السيول، وهو ما أشار إليه
القرآن الكريم بقوله: "كان الناس أمةً واحدة فهي عبادة الله نبيين مبشرين ومتنرين
وأنزل معهم الكتب بالحق ليعظم بين الناس فيما اختلفوا فيه" (1).

(1) البقرة : 213.
والله العلي العظيم، يُمثل الآن في الإسلام، الذي ختم الله به رسالات السماء، وكتب نبأ القرآن كتب السماء.

وما دمنا مسلمين، رضيتما بالله ربياً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسول الله، وبالقرآن إماماً، فمن البديل أن نتحكم إلى الإسلام، فيما نختلف فيه، وهو خليف أن يهدينا سواء السبيل.

والاحتكام إلى الإسلام معنا الاحتكام إلى القرآن والسنة، كما قال تعالى: «فإن تنازعتم في شيء فعودوا إلى الله والله يعزل بينكم ويلجأ إليه الذين يأتون بصدق». (1)

وكما أجمع المسلمون على أن الرد إلى الله تعالى معنا: الرد إلى كتابه الكريم، والرد إلى الرسول معنا: الرد إلى سنته.

وإذا قال: إن الناس يختلفون في فهم القرآن والسنة، على صور شتى، فلنا إن القطعيات لا خلاف عليها، وهي التي أجمع عليها الأمة، جيلاً بعد جيل، ودل علىها محكم القرآن، وصحيح السنة.

أما «الظليات»، فهي أن تفهم في ضوء القطعيات: مهتدين بما وضعه علماء المسلمين من ضوابط للفهم، وتقسيم للنصوص، واستنباط الأحكام، مثلما في علم «أصول الفقه»، وعلم «أصول الحديث»، وعلم «أصول التفسير».

وأحق ما يجب الرجوع فيه إلى الإسلام هو ما يتعلق بالإسلام ذاته، إذا قال قائل: إن الإسلام مجرد دين، يعمل على تركيبة الأنس، وإقامة الشعائر، ولا علاقة له بالدولة وأصول الحكم، وشئون السياسة، والاقتصاد؛ كان الواجب في ذلك هو الرجوع إلى الإسلام ذاته، لتعرف من مصادره الأصلية: هو مجرد عقيدة وعبادة، أم هو عقيدة وشريعة، وعبادة وقائدة، ودين ودولة، ومصحف وسفيف.

إنها قضية شمول الإسلام، أو عدم شموله، ولا يفتح فيها إلا الإسلام نفسه، قرآناً وسنة نبه، وهدى الراشدين من خلفته، وإجماع المجتهدين من أمه.

(1) الآية: 59

72
فإذا قال بعض الناس: نعم للدين . . . ولا للدولة، أو نعم للعقيدة . . . ولا للشريعة، أو نعم للمصحف . . . ولا للسيف . . .، فلنا لهم: قولوا ما شئتم، وشاءت لكم أهواؤكم وثقافاتكم، ولكن لا تقولوا ذلك باسم الإسلام، الذي يقول كتابه، في بيان لا لبس فيه: ﴿وَقَالَ ابْنُ الْعِيْشَاءَ الْكَتَابَ نِيْبًا لَّكُل شَيْءٍ ﴾ (1) . ويعترف فيه في الإجماع: أن شريعته حاكمة على جميع أفعال المكلفين، وصرفاتهم الخاصة والعامة، ولا يشذ منها فعل واحد، دون أن تعطي حكمًا من أحكامها الحسنة المعروفة.

على أننا إذا احتمنا إلى أي معيار من المعايير، التي أشارنا إليها لتقييم العلمانية، والحكم في شأنا، نجد أنها في أوطاننا كلها، مرفوعة شكلاً ووضوعًا، كما يقول رجال القانون. هي مرفوعة بمعيار الدين، ومرفوعة بكل المعايير الأخرى، ولا يتأثر إلى ذلك في الصحفة التالية.

* * *

(1) النحل: 89.
العلمانية ضد الدين

قلنا: إن «العلمانية» بالمعنى الذي يبناه، مرفوضة في أوطاننا عامة، وفي مصر خاصة، بمعنى احتكمنا إليه، وأول هذه المعاني هو الدين.

فإذا احتكمنا إلى الدين، أعني الدين الذي تؤمنه الأغلبية، وتنزل على حكمه - وهو الإسلام - في نوبه يرفض العلمانية رفضًا حاسمًا، ذلك لأنهما هما لا تقبل التعايش معه، كما أنزله الله، كما بنيا ذلك من قبل.

فهي قد تقبل عقيدة في ضمير الفرد، ولكنها لا تقبل هذه العقيدة أساسًا للولاء والانتماء، ولا ترى أن من موجبات العقيدة الالتزام بحكم الله ورسوله.

وهكذا قد تقبل عبادة ونسكا، ولكن على أن تكون شائات موكولة إلى الأفراد لا على أن ترعاه الدولة، وتخابسه عليه، وتقدم الناس، أو تؤخرهم على أساس الالتزام بذلك أو عدمه.

وهكذا قد تقبلها أخلاقيًا وآدابًا، ولكن فيما لا يمس التيار العام، المتفاخر بالغرب، فالألبستر لدى العلمانيين أن يبقى الطابع الغربي سائداً غالبًا؛ على عادتنا، ونالتنا في المأكل، والملبس، والزينة، والمسكن، والعلاقة بين الرجال والنساء، ونحوها، ضاربين عرض الحائط، بما قد الله به الفرد المسلم والمجتمع المسلم، من أحكام الحال والحرازم.

أما الشيء الذي تكف العلمانية ضده بكل صراحة وقوة، فهو «الشريعة»، التي تظهر بأحكامها الحياة الإسلامية، وتضع لها الضوابط الهدائية، والعاصمة من التخطيط والانحراط، سواء في ذلك ما يتعلق بشؤون الأسرة، والأحوال الشخصية، أو المجتمع، أو الدولة، في علاقاتها الداخلية، أو الخارجية، الإسلامية، أو الحربية، وما يعني به الفقه الإسلامي بشىء مدارسه، ومختلف مذاهب,

وخلف لنا فيه ثروة تشريعية طائلة، تغني عن استيراد الفوانين من غيرنا، وهي فوانين، لم تثبت في أرضنا، ولم تتبع من عقائدا وقيننا وأعرافنا، وهي بالتالي تظل غريبة علينا، مرتبطاً في أذهاننا، وقلوبنا، بالاستعمار الدخيل، الذي فرضها علينا دون إرادتنا ولا اختيار منا.
هذا هو حال القوانين الوضعية بالنسبة لنا، ولكن العلمانية تقبلها، وترفض شريعة الله، تتبنى الزن، وتنتفي نسب الآب الأصيل.

فهناك أية من الإسلام ما يوافق هواها، وتعرض إيماناً يخالف هواها، يؤمن بعض الكتاب ويفكر بعض، وهو ما صنعه بنو إسرائيل قديماً، فرغمهم الله أشد التقوى حين قال: «أتفشلون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا عزيز في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وإن الله تعالى عما تعملون» (1).

وبدلاً من التناص العلمانية والعداء للدين، أعني للإسلام، الذي أنزله الله نظامًا شاملًا للحياة، كما أن الإسلام ينصحها الغداء أيضًا، لأنها تنازعه سلطات الشرع في قيادة سفينة المجتمع، وتوجيه دفنه، وفقًا لأمر الله ونهيه، والحكم بما أنزله على رسوله (ص)، وإذا لم يحكم المجتمع بما أنزل الله، سقط - لا محالة - في حكم الجاهلية، وهو ما حذر الله منه رسوله والمؤمنين من بعده، حين قال: «وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يبتناكم عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنه يريد الله أن يصيبهم بعض ذُنوبهم، وإن كثيرًا من الناس لفسقون» ( dotycحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكمًا أن تقوم بفَوْقُونَ) (2).

إن العلمانية يعشر الدين دعوة مرفوضة؛ لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية، أي إلى الحكم بما وضع الناس، ولا أنزل الله.

إنها دعوة تعامل على الله جل جلالة! وتستدرك على شرعه وحكمه! كأنها تقول للرب العالمين: نحن أعلم بما صلح لنا منك، والقوانين - التي أدخلها الغرب إلى ديارنا في عهود استعمارها - أهدي سبيلًا من أحكام شريعتك!! فماذا عسي أن يوصف من يقف هذا الموقف من ربه وشرعه؟!

* * *

(1) المائدة : 49، 50
(2) البقرة : 85
العلمانية ضد الدستور

وأما أن العلمانية ضد الدستور، فإن ذلك من وجه ثلاثة:

الأول: أن الدستور ينص في مادته الثانية بصريح العبارة: أن الإسلام دين الدولة الرسمي، كما أن اللغة العربية لغتها الرسمية.

وهذه مادة قديمة أصيلة في الدستور المصري، وقد كانت ثابتة في دستور 1923، فهي من المواد الأساسية المميزة، والمبنية لشخصية مصر العربية المسلحة.

فالمادة بالعلمانية - إذن - منافاة صريحة لهذه العبارة، التي لم يخالف فيها يمين ولا يسار.

الثاني: أن الدستور ينص في مادته تلك (الثانية) على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع.

وهذه المادة تأكيد لتلك المادة وتفسير لها، وإعطاؤها مدلولاً عملياً يتمثل في التشريع، الذي تصوره المجتمعات حياتها الدنية في قواعد قانونية.

ثالث: أن الدستور في مادته يكفل الحرية الدينية لكل مواطن.

والمسلم إذا فرضت عليه العلمانية، فقد فرض عليه أن يتحلل من دينه، وما يوجه عليه ربه، وما تلزم به شريعته، فإن العلمانية تلزم المسلم - رغم أنه يحكم ما حرم الله عليه، وأن يرتكب ما حرم الله عليه، فلا يستطيع إذا كان حاكماً (رئيساً أو وزيراً أو عضو مجلس تشريعي أو قاضياً) أن يحكم بما نزل الله، كما أمره الله. ومعنى هذا أن العلمانية تفرض عليه أن يخط ربه وتحداد جهه.

بتعطيل أحكامه، فيوصم بالكفر، أو الظلم، أو الفسوق، بنص القرآن.

وإذا كان محكوماً، لم تكن العلمانية أن يحكم إلى ما نزل الله، وهو فرض عليه، لا خيار له فيه شيء.

وكذلك لا يستطيع أن يمارس إسلامه بحرية كافية، فالمعاملات الربوية المحرومة، تحظى به من كل جانب، ورائه نفسه مشوب بالربا، ومواقيت الصلاة لا تراعى في
عمله، وهو إذا رأى متكرراً شائعاً، لا يستطيع أن يغيره أو ينفي عنه، إذا كانت القوانين الوضعية تحميه. وكذلك إذا رأى فرضًا ضنيعاً من فروض العين، أو فرض الكفاية، لا يستطيع أن يأمر به.

وهو لا يستطيع أن يوالى أو يعادي على أساس العقيدة؛ لأن العلمانية ترفض العقيدة، أساساً للولاء والانتماء.

ومن هنا يحرم المسلم، الذي يريد أن يرضي ربه، ويعمل بدينه، من التدين المفروض عليه، ولا يباح له إلا التدين الشعائري، التقليدي المعروف في النصرانية وما شابهها. بل إن هذا التدين - أيها - تحوطه قيود وأغلال لا تمكن المسلم من أدائه على الوجه المطلوب.

وهذا ضد الدستور نصاً وروحاً، بقين، فالدستور يكفل الخريات، وأولها الحرية الدينية، وأدنى دلالات الحرية الدينية أن تعمل بما يفرضه عليك دينك، بلا ضغط ولا تنازلات.

* * *
العلمانية ضد إرادة الشعب

وكما أن العلمانية ضد الدستور نسماً ورحاً، فهكذا كذلك ضد إرادة الشعب، ضد الدعوة إلى الديمقراطية.

والعلمانيون يهبون بأنهم ديمقراطون، وأنهم أنصار الديمقراطية ودعاتها. والديمقراطية هي النزول على إرادة الشعب، وقد قال بعضهم: إن إرادة الشعب من إرادة الله! فما بالهم هنا - في قضية تعميم الشريعة - يخونون مبادئه، الذي اتخذوه شعاراً لهم! ويحاولون أن يزرو عتان الشعب عمداً يؤمن به، ويعتقد أنه وحده، قبل النجاة، وسفينة الانتقاذ، وهو العودة إلى شرع الله.

وحق أن العلمانية معادية لإرادة جماهير شعبنا في مصر خاصة، وفي سائر البلاد العربية والإسلامية عامة، وأن تحكم شرع الله في ديننا الناس طلب شعبنا، تنادي به الجماهير من شتى الطبقات.

وهذا ما تبين - بجلاء - في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة في مصر 1984 م. (1) فقد تبينت الأحزاب كلها - حزب الحكومة، وأحزاب المعارضة، الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. فالحزب الوطني الديمقراطي، حزب الدولة، أعلن ذلك في بياناته، وعلى لسان مرشحيه.

وكذلك حزب الوفد أكبر أحزاب المعارضة، و كثيرًا ما أثير هذا الموضوع، وهو موقف حزب الوفد من تطبيق الشريعة، وهو في صحيفة الوفد الناطقة باسمه تعلن في عدد 17/7/1986 م: أن موقف الحزب من تطبيق الشريعة الإسلامية هو التأيد المؤكد بصراحة، وبدلاً مباورًا.

(1) كتب هذا منذ أشهر، قبل حل مجلس الشعب، وإجراء الانتخابات الأخيرة (أبريل 1987)، التي أثبتت بجلاء تجاوب الشارع المصري مع التيار الإسلامي، وشعار الإسلام هو الحل، والذي لم يحصل العلمانيون الصراحين فيها على مقعد واحد، ورشح د. فرج فودة - الباهي بعلمانيته - نفسه، وحصل على 396 صوتًا! وقد توههم أن يستطيع أن يكسب أصوات إخواننا الأقباط بالهجوم على الشريعة الإسلامية، فتخاب ظنه، ولم يعرفه الناس.
أما حزب العمل الإسلامي، فأصرح وأماضح، وموقفه أوضح وأوكل، وجذوره الإسلامية معلومة مشهورة، وغيره مسيحي الأول على الإسلام، لا ندب فيها، 
أعتي المرحوم الزعيم أحمد حسين، منذ أنشأ " مصر الفتاة " نواة حزب العمل 
القائم.

ولم يستطع د. فؤاد زكريا محامي العلمانية، أن يتذكر القاعدة العربية، التي تنادي بتحكيم الشريعة، بل اعتذر بذلك على مضض، فقال في ختام كتابه "الحقيقة والوسام": إن كثيرًا من المعترين على مقالاتي، فقد استمروا بالحجة القائلة: إن تطبيق الشريعة هو الآن، مطلب شعبي واسع النطاق، ولست أملك أن أخالف رأيهم في هذه المسألة، ولكن كل ما أستطيع أن أرد به عليهم، هو أنا نشأت في بلد إسلامي، وطلحتنا عشائر السين، لم تعرف إلا مواطنين متدينين 
معتدلين، يمارسون العبادة من خلال العمل، والكتاف في سبيل النهوض بالنفسهم 
ومجتمعهم، ولم تكن صحة المطالية تطبيق الشريعة، إلا صحة خانتها، لا تأثير 
لها على المجري العام لحياة الناس، هذه هي صورة الدين، كما عرفه شعبنا طوال 
أجاي عديدة، أما الموجة الحالية، فإنها، رغم انتشارها واسع، ظاهرة جديدة 
ودخلها على التدين المصري العاقل مهدئ، كأي ظاهرة دخيلة، ينبغى علينا أن نعجل أسبابها إلى عوامل طارئة.

وفي (التقديم) الذي وضعه لنكتابة، عاد للموضوع فقال: إن الدعوة إلى 
تطبيق الشريعة، التي تعلم أصواتها في الآونة الراهنة، تركز - بلا شك - على 
قاعدة جماعية واسعة، وكثير من أنصارها يتخلون من سمعة الاشتراك هذه، حجة 
لسقا_drawn:2476,1332,1272,1385,1137,1385,1385,1137,1555,1137,1555,1137

وقول للدكتور: إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة، لا يستدل على صحة 
الاجتهاد - وهم يستدلوا يومًا - بكثره من مناصرين على هذه الدعوة من أبناء شعبنا 
المسلم، فإن عندهم من الأدلة والبراهين العقلية، والنقلية، والتاريخية، والواقعية، ما يقطع كل ريب. على أنهم في غير حاجة إلى التدليل على صحة 
الاجتهاد بعد الانتماء بالإسلام، فمن رضي بالله وياهو، وبالإسلام ديننا، ليس له إلا 
الانقياد إلى ما شرع الله، والرضا بما حكم الله. وإلا راجع إيمانه.
إذاما يتخذ دعاة الشريعة من كثرة أشياعهم حجة عليكم ؛ لأنهم يحاكمونهم إلى منطقكم ، الذي تؤمنون فيه ، ولا يختلفون فيه ، وهو منطق الديمقراطية ، الذي يحتجون إلى أصوات الأغلبية ، فما رضيتهم الأغلبية ؛ فهو الحكم ، وهو المعمل به ، فالآمة التي قلها الأغلبية هي مصدر السلطات .
وكان المفروض أن يذعن كاتبنا - وهو من دعاة الديمقراطية - إلى هذا المنطق البين الناصع ، ولكنه فاجأنا - على عادته بالذكر للديمقراطية ، في هذا الوقت خاصة ، وهذا من العجائب ؛
فماذا كانت حجة ؛ هنا تضرب قوانى واستدلالها ؛ التي يعتسببها اعتسابا ؛
ففي موضع نراه يقول في كتابه عن تناامي القطر الإسلامى : إنما هو حالة شاذة ؛
لم تعترف مصر ، إلا في عهود الحكم الفردى !
وفي مناسبة أخرى في ردى على المنتقدان لمقالاتي في "الأهرام" يقول : أما الموجة الحالية - موجة المطالبة بتطبيق الشرعية - فرغم انتشارها الواسع ، فإنها ظاهرة جدية ودقيقة على الطييد المصري العاقبة الهادئة ؛ وكأى ظاهرة دقيقه ، ينبغي علينا أن نتعقب أسبابها إلى عوامل طارئة ؛ كالقمع ، والتسلط الفكرى ، والسياسى .
كان ما كان سائدا في عهود الاستعمار والملكية البائدة ، العسكري الظيفي ، هو الأصل ، الذي لا يسأل عنه ، أما ما يحدث حين يستطيع الناس أن يجدوا فرصة للتعبير عن أنفسهم ، فهو المخالف والشاب !!
إن ذاك التدين ؛ العاقب الهادئ ؛ كما وصفه الدكتور ، من صنع الاستعمار الثقافي ، ولم يكن يومًا تدين المسلمين ، ولا تدين المصريين ، خلال ثلاثة عشر قرنًا ، أي قبل دخول الاستعمار إلى ديارنا .
ويحدث الكاتب عن موقف ثورة 23 يوليو من الحركة الإسلامية ، فيغرب إغريًا شديدًا في التفسير والتحليل ، ويعبد عن كل منطق مقبول ، سواء في العهد الناصري ، أم السادسات .
فحين يتحدث عن الخلاف بين الحكم الناصري والثمار الإسلامي ، نراه ينكر أي نزاع أو خلاف فكري أو أيديولوجي بين الطرفين ، ويزعم أنه محض خلاف
سياسة، أي يحصره في الصراع على السلطة، منطقيًا أن أي حركة إسلامية حقيقية، لإيجاد أن تنادي بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة ومنهج حياة ودين، لابد أن تصطدم بحملة الأفكار العلمانية، الذين يريدون أن يحاصرو الدين في أفق اجتماع الصدور، أو خلف جدران المساجد، ولا يمكن أن يكون قوامًا لا يسمحون له بأن يمدد مسيرتهم المجتمع، ويوجه شعور الحياة، خصوصًا إذا كانوا من الطغاة المتآلمين، الذين يريدون أن يجعلوا من عداد الله عادًا لهم، وأن يتخذهم الناس أربابًا، لا يسألون عنما يعملون، ولا يراجعون فيما يحكمون، وأن يجعلوا الدين في خدمة سياساتهم، ومنابر الدين أبواق دعابة لهم، وعلماء الدين مداهين لمصيرهم.

لا ريب أن الصراع بين الحكم الناصري والنياب الإسلامي، كان صراعًا حتميًا؛ لأنه صراع بين الإسلام الحاول المتحرك القادئ، وبين حكم طاغوتي شمولي، يريد أن يحرك كل شيء في فضاءه، حتى الدين. وإذا سمى البعض هذا صراعاً سياسيًا، فليس ما شاء في الإسلام فصل بين ما هو دين وما هو سياسي، والدين عندما سياسة، والسياسة دين، ولم يعرف المسلمون هذا التفاصيل التعدد.

وعلوه إلى حجة د. فؤاد زكريا، في رفضه للأكثرية، التي تؤدي تحكم الشريعة الإسلامية، يقول:

وفي رأي أن إنسان القاعدة الجماهيرية، التي تنادي ببعد معين، لا يمكن أن يكون مقابلًا لنجاح هذا المبدأ، إلا في حالة واحدة فقط، هي التي يكون فيها وعي هذه الجماهير ناضجًا كل التزوج.

وستطع أن نقول أن وجهة نظرنا الخاصة - يقول الكاتب - إن الانشار الواسع للاتجاهات الإسلامية بشكلها الراهن، إذا هو مظهر صارخ من ظهور نقص الوعي لدى الجماهير... ويُعلّق ذلك بغطاء الطباع الشكل على فهمه للدين، وتركيز جهدها على الجانب الشعائري من الدين، وعلى التحريات السعودية، وشكل اللباس... إلخ. وتتصور أن أول جوانب تطبغ الشريعة وأهمها هو تطبيق حدود الحمر، والسروقة، والزمني، وتتباع - كلية - مشكلات الحياة الاقتصادية والسياسية بتعقيداتها، التي لا تنتهي - هذا الانطلاق لا يمكن أن يكون علامة صحة،

(6 - الإسلام والعلمانية)
وإذا هو حالة شاذة طارئة، لم تعرفها مصر، إلا في ظل عهود الحكم الفردي المتلاحم، وفي العهد الذي فتح الباب، لتسرب الفكر المخلف الوافد من مجتمعات يوروليا، تستخدم الذين أداة لحفظه على مصالحها في الداخل، ونشر أيديولوجيتها الهابطة في الخارج، 1, ه..

هذا نص ما قاله الكاتب الفيلسوف، في رد منطق الديمقراطية، والنزول على حكم الأكثرية. وفي هذا الرد أغلاظ ومعالقات شتى ...

من ذلك أن القاعدة الجماهيرية الإسلامية، تمثل في الواقع أنجح شباب الأمة وعلياً، وأركاهم خلقاً، وأقواه إرادة، وأنظفهم سلوكاً، وجمهورهم من شباب الجامعات، والمعاد بين العلماء، والمدارس الثانوية، والحريجيين الذين أثروا وجودهم في الاتحادات العلمية، والنقابات المهنية، وعلى مختلف أصعدة النشاط، رغم الفيروس التي تكيلهم، والعقبات التي توضع في طريقهم.

ثم إن الديمقراطية في العالم كله، تعتبر إلى عدد الأفكار، بعض النظر عن الكيف والنوع.

ولم يقل يوما حزب المحافظين لحزب العمال في بريطانيا، أو حزب=numerical_digit_1
لحزب الجمهوريين في أمريكا: إن الأغلبية، التي معكم، ليست في مستوى الأغلبية، التي معنا، ثقافة، ووعياً، ونصيحاً!

فليبق شعري من أين جاء الكاتب بهذا الشرط، وهو أن يكون وعى القاعدة الجماهيرية الواسعة، التي تنادي ببعض تناوج كقلب التضج! حتى أنه لم يكتمي مجرد الوعي، ولا يمجرد نضج الوعي، بل اشتظت معتقداً بيتضج كل التضج!

ولو سلمنا بهذا الشرط العسفي، الذي انفرد به الكاتب، فمن الذي هل الحق أن يقول: هذا نضج، وهذا ليس بنضج، وهذا بعض النضج، وهذا كل النضج؟!

وإن اختلاف المفاهيم، سيؤدي إلى اختلاف الحكم لمجالة.
وقد رأينا الكاتب يقع في أخطاء أو مغالطات شنيعة، في حكمه على القاعدة الجامعية الإسلامية، واتهامه لها بنقص الوعي، وتغييب العقل، وتغليب الطابع الشكلي في فهمها للدين.

هذا أن الصنف، الذي يتكلم عنه الكاتب، ويجهد في تضخيم عويبه، لا يمثل إلا شريحة محدودة من شرائح الصحوة الإسلامية. أما التيار الغالب على فضائل هذه الصحوة، فهو تيار "الوسطية الإسلامية"، وهو التيار الإيجابي الواقعى، الذي ينظر إلى الإسلام نظرة كاملة شاملة، ولا يكتفي من الجانب القانونى بالحدود والعقوبات، بل يعمل بكل وسعه لإقامة حياة إسلامية متكاملة. وهو لا يكفي من الإسلام بشكل دون الجهد، ولا بالفروع عن الأصول، ولا بالجزئيات عن الكليات، بل يعنى اهتمامه أكبر إلى صميم الإسلام وليابه.

إن هذا التيار يعيش هموم الناس، ولا يجهل أو يتجاهل مشاكل الحياة؛ الاقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو ثقافية، كيف وهو يحياها، ويدعو إلى علاجها! بل يخوض معركة الحياة مشاركاً في حلها، كما نرى ذلك في تأسيس الشركات، والبنوك، والمؤسسات الاقتصادية الإسلامية، وكذلك المؤسسات التعليمية، والطبية، والاجتماعية، وغيرها.

على أن بعض ما يعتبره الكاتب، أمراً شكلياً لا وزن له، إنما هو من صميم الدين وله، مثل الجانب الشعائري، الذي يتعلق بالاعتقاد لل تعالى، وإقامة فراحة، التي هي من أركان الإسلام، ومبادئه العظيم.

 بما يسميه الكاتب "التحررات الجنسية، وشكل الملبس"، ليس نافلأ في الدين، ولا أمر، على هامته، إنه يتعلق بربية المؤمنين والمؤمنات على العنف، والظهير، والإحسان، والاستعلاة على نداء الغرائز والشهوات، والبعد عن جو الفتنة والإغراء، وهو ما أمر به القرآن، فكل اللعونين يغضبان من أتباعهم ويحتذرون فرُوجهم، فذلك أمرٌ لنهم، إن الله خبير بما يصنعون. وقل اللعونين يغضبان من أتباعهم ويحذرون فروجهم، ولا يبدِين ذيهم إلا.
ما ظهر منها، ولا يضير بعضهم على جيبه، ولا يبدع زيتته إلا ل feminists أو أبنائها أو أبناتهن أو إخوانهن أو خواتمهم أو بني إخوانهن أو بني إخوانهم، أو نسائهم أو ملكت أيمنهن أو التابعين غير أولي الأمة من الرجال أو الفتيان الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضرن بارجلهن لعلم ما يخفون من زيتتهن، ونونروا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون (1) انها الي البني قل لأروهك ونانك وأياء المؤمنين
يدين عليه من جلبيهن، ذلك أدنى أن يعرض فلا يؤذين (2).

وعرّ جزء من بعض فصول الصحة الإسلامية، بعض التشديدات والتفارق، في أمور هيئة، وهذا من أسبابه، طبيعة الشباب المتحمس من جهة، ومن تطرف اللاديين من جهة أخرى، وقد شرحت أسباب ما يسمونه "التطف الدينى" في كتاب "الصحة الإسلامية بين الجهد والتفاف".

على أن هذا البخاري، الذي يوصف بالتفاف، لم يملك كتابنا نفسه، إلا ان يعرف له بأنه هو الذي وقف في وجه الطغيان، واستطاع أن يربى من شبابه، من يدفع حياته فداء وحنينه، وإنقاذًا لوطنه.

وهذا ما قاله الكاتب في رده على: حسن حنفي، في مقالاته، التي كتبها عن "مستقبل الأصولية الإسلامية"، والذي أكد فيها أن هذه الأصولية تعمقها، وإزايداً رصدها الشعبي، وقررتها على الإغراق، وشرعتها التاريخية في الماضي والحاضر، نقمت نفسها على أنها مستقبل مصر، الذي لا يدلي له...

يقول: فؤاد زكريا في كتابه "على رحم حسن حنفي": يتبقى بعد هذا كله نقطة جوهرية، ينبغي أن تلمس فيها العذر لأي كاتب، يتعاطف مع هذه الأفكار؛ ذلك لأن الشباق المتقدم إلى هذه الجماعات المتطرفة، وهو وحده، الذي استطاع أن ينجز شيئاً - بعض النظر عن دواوينه في هذا

(1) الأحزاب: 59
(2) النور: 30، 31.
الإنجاز، وهو الذي تمكن من إزالة حالة الجمود، التي بدا وكأنها استقرت، وسوف تستمر سنوات طويلة، وهو الذي ألقى في البركة الآمنة حجرًا ضخمًا، حرك مباهلاً، وأحدث فيها دوامات، فقد تحول يومًا ما إلى أموال وعواصف عantine. وفي مقابل ذلك، فإن التقدميين، والديمقراطيين، والعلماء، لم يكن لهم دور في هذا التحرير المفاجئ للأحداث، بل يبدو في الوقت الذي
حدثت فيه المفاجأة، أنهم وصلوا إلى طريق مسدد لا مخرج منه.

وأما زعم الكاتب أن التيار الديني تيار وافد من مجتمعات بترولية، فهو زعم غير صحيح، ومبني على مقدمات خاطئة، فالتدنيس في الشعب المصرى تدين أصل، وإمنح بالإسلام عقيدة وشريعة، يجري منه مجرى الدم في العروق، ولا يحتاج إلى استيراد من بلد آخر، وقد كانت مصر - ولا تزال - مصدر الإسلام عملاً، وحركة، وجهادًا، إلى غيرها...

بل إن كثيرًا من المستولين في تلك المجتمعات، التي يشير إليها الكاتب، تصف التيار الإسلامي الجديد، التي أبرزت شمول الإسلام وتوازنه، وأظهرت جوانبه الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والفكرية، وغيرها، بأنها تيار وافدة على ثورات أرضها، لم تكن تعرفها من قبل، وأن ألوانًا من الشباب باتوا يؤمنون بها، ويدعون إليها، ويعتقدون أن فيها وحدها الخلاص والإنقاذ. بل قال بعضهم بصراحة: إن هذا إسلام مصري غير الإسلام، الذي نورثاه!

إن التيار الإسلامي في مصر أصل كل الأصالة، بل هو التيار اللأب أو الآم لكل التيارات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، بل في خارج العالم الإسلامي أيضًا. وهذا أمر يعلمه الخاص والعام.

إن موقف الكاتب، والله، عجب حقًا، أنه ينادي بالديمقراطية، ويرتديها، إذا كانت نتيجة التحول في صاحبه، فإذا كانت نتيجة في صف الإسلاميين، فهي مرفوضة بأي شبهة أو غير شبهة، فأين العلم؟ وأين الإنسانية يا معشر العلماء، والتقديمين؟!!

* * *

80
العلمانية ضد مصلحة الأمة

وإذا كانت العلمانية دعوة مضاادة وانقاذية للدستور، فهي مضاادة وانقاذية لإرادة الشعب، فهي كذلك دعوة مضاادة وانقاذية لمصلحة الوطن، ومصلحة الأمة.

فلو كنا لا نقيم الأمور إلا بقياس المفيدة وحدها، كما هو مذهب البراجماتيين، فكان ذلك منفعة الوطن، ومصلحته العليا، والعامة، والدائمة، توجب علينا أن نرفض العلمانية، وتبنى الإسلام.

ولذلك أن الأوطان إذا تنهض وتتقدم وتنتج، بمقدار ما تملك من طاقات مادية، ومن طاقات بشرية، ولا قيمة للأمانيات، والطاقات المادية، والاقتصادية، وغيرها، لم تكن هناك طاقات بشرية قادرة على تسخيرها، والاستفادة منها، وفاعبة بذلك، مريرة له.

والشعوب - دائمًا - في حاجة إلى حوازل وأهداف ومتحركات معنوية، تفجر طاقاتها المنتوحا، وتستخرج قدراتها المخزورة، وتستثمر مواهبها المبدعة، وتغمض في أنفسها حب التفوق والإيثان، وتدفعها إلى بذل النفس، والمال، والوقت، والراحة، في سبيل ما تؤمن به، وفي سبيل الحفاظ على مقوماتها وخصائصها الذاتية، التي تميزها عن غيرها، وبعبارة أخرى: في حاجة إلى رسالة تعين قواها، وتجميع شتاتها، وتخييم مواتها، وتشييعها خطأ جدًا.

وإذا أخذنا الشعب المصري، مثلًا لذلك، فما الذي يحركه، ويتجه طاقاته الدفينة، ويدفعه بقوة إلى الأمام؟ ويكون عليه بذلك الأفاف والفائض من أجل أهدافه؟

إن قراءة التاريخ، واستقراء الواقع، يؤكد لنا: أن هذا المحرك الفنجر هو الإيمان، هو الإسلام.

يقص علينا القرآن في عدد من سوره «الأعراف، طه، الشعراء» قصة طائفة
من أبناء مصر، غرب بهم جينًا من الدهر، فساروا في ركاب الطغيان المتاله، طغيان فرعون، فاقدٌ لبهؤتهم، لا هدف لهم إلا المال أو الزنى إلى الطاغوت، فلما أثار الله بصائرهم بالإماني انتحلوا إلى قوة هائلة، تركف المال والجاء، وتستهين بالجريوت والطغيان، وتتحدى - مع ضعفها المادي - أقوى الأقوياء.

أولئك هم سحرة فرعون من أبناء مصر، الذين ضلوا من فرعون وملته، حتى أدرك الله لهم أن يتحرروا من الوهم والضلالة، حين ألقى موسى عصاء، فلقنت كل ما ألقى السحر من عصى وحبال. *وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون* فلقد هُناك وانقبؤا صاغرين *وألف السحرُ ساجدين* قالوا *آمنا برب العالمين* رَبٌّ موسى وهارون *قال فرعون أمامهم بقيل أن أدرك لكم* (1) وهدد فرعون، وتوعد هؤلاء المؤمنين الجدد بالتقليب والصيام، فلم يبالوا به، وقاموا، وهم في رسوخ الجبال: *إنا إلى ربنا مقتلون* وما بدأ منا إلا أن آمنا بأيات رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ، رَبُّنا أفرِ عَلَيْنَا صَبْرًا وَوَفْقًا مُسْلِمِينَ (2).

وعندنا مثل قريب واضح وضوح الشمس في راحة النهار - كما يقولون - يعبر أبلغ التعبير عن *آثار الدين* في تعبئة شعبنا، وتزويجه وبعثه في أي معركة بخوضها.

هذا المثل هو معركة العشير من رمضان - وهذا هو اسمها الذي يجب أن تذكر به دائما لا السادس من أكتوبر، كما قالوا بعد - إنها معركة هبت فيها راح الإيمان، ونفحات رمضان، وقام فيها الإيمان الدوالي، بدور هائل، شهد به المقاتلون أنفسهم، قادة، وجنودا، ولسهم كل مراقب لسير المعركة، من مصري، أو عربي، أو أجنبي.

ولسننا من السلاجة أو الجهالة، بحيث ننسى دور التخطيط والتدريب والإعداد لهذه المعركة، ولكن ما كان هذا يغني، لو فرغت القلوب من الإبان، وقطعت صلتها برب السماء، كما كان عليه الحال في يونيو (حزيران) سنة 1967 م.

---

(1) الأعراف : 118 : 123 .
(2) الأعراف : 135 ، 126 .
إن شعار "الله أكبر" حين دوت صيحاته في الأفاق، لم أُؤثر القلوب، وأقد جذوة الحمس في الصدور، وحرك كواكب النفس، وأيقظ معانى البطولة المستكشنة بين الضلوع، ووصل الخاضر بالخاضر البعيد، فتذكرك أبناء مصر المؤمنة، أيام قطر، وصلاح الدين، وتذكرك قبل ذلك غزوات النبي ﷺ، وسرايا أصحابه، ومعارك الإسلام الحاسمة في التاريخ.

وهناك كان العبور، واقتحام خط "بارليف"، والانتصار على القوة، التي تيل يومًا: إنها لا تقهر، كما قيل قديمًا عن النتار: إذا قيل لك: إنهم اهتزوا فلا تصدق.

لقد أقسم كثير من الضباط والجنود أنهم كانوا يرون مخلوقات بيش ببعض، تقاتل إلى جوارهم، وسواه كان هذا حقيقة أم خيالًا، كما يقول الماديون، فعلى كل حال لا يشك أحد في قيمة الروح المعنية عند من يحارب، وهو يعتقد أن الملاكهة تحارب معه، وتنصره على عدو الله وعدوه!

ومهما يختلف المرافقون والمحللون في شأن الثورة الإيرانية، ومدى صوابها، أو خططها في مواقفها، ومدى قربها من الإسلام أو بعيدها - فإن الذئب لا يختلف فيه اثنان: إنها استطاعت أن تعيق قوى الشعب الإيرانية تعظيمة، لا تنظر لها في التاريخ القريب، ولا في الواقع الحاضر.

لقد جعلت من الشعب كله جيشًا وراءها، بساندها في معاركها الداخلية والخارجية، وأشعلت إيمانه وحماسه، حتى لم يعد يبالو بالضيقات الاقتصادية، ولا بالخصور الخارجي، طلبًا للجنة، وسعيًا إلى "الشهادة"، التي نادى إمامهم الحسين (رضي الله عنه)!

أجل، لقد جعلت الشباب الغضب، يركض إلى الموت ركضًا عن حرص وحرب، وأبوه يبارك خطاه، وأمه تدعو له بإحدى الحسين، فإذا جاء نيا شهادته، انطلقت الزغاب في بينه، كأنه نمر زفافه إلى عروس، وليس نيا مقتله في المعركة!

ولقد تهجت الثورة نجاحًا منقطع النظر في إخراج المرأة من عزلتها وأميتها الدينية والسياسية، ومن اهتماماتها التفافة بالزيجة، والمودة، إلى الاهتمام بالقضايا المصريية للدين والوطن.
على أن مثل الأروى الذي لا يقبل الجحود ولا الشك، هو ما يصنع الإسلام اليوم على أرض أفغانستان الصامدة، وما يلقه المجاهدون الساطرون من دروس للقوة العظمى الثانية في العالم "الاتحاد السوفيتي". لقد هزم إيران الأفغان دبابات الروس وصواريخهم. وكذلك يصنع الإسلام دائمًا.

وعتقد أن قدرة التيار الإسلامي على تعبئة الأمة، وإلهام حماسها، وإحياء روحها، واستنفار طاقاتها للعمل والبناء والجهاد، ما لا يختلف فيه الثان.

وقد يقول بعض العلماء: إننا لا نمانع في استخدام الدين لتشجع الهجم، وبعث العزائم، وتعبئة الطاقات لدى الشعب لمواجهة التحديات، في معارك التحرير والتقدم والبناء.

ونقول لهؤلاء:

أولاً: إن الدين أشرف وأرفع قدرًا من أن يتخذ مطية تركب، أو أداة تستخدم لغرض موقت، ثم يلقى به - بعد ذلك - في سلة المهملات. إن الدين هو جوهر وجود، وسر الحلم، وروح الحياة، وهو غاية تقصده لذاتها، وليس مطية تركب.

ثانياً: إن الدين لا يؤدي رسالته في البعث والإحياء والتعبئة، إلا إذا كان هدفًا لا وسيلة، وكان دمًا يجري في عروق الحياة كلها، لا شياً على هامش الحياة، إذ كان يثير الدين في الشعوب، ويغير من حياتها وسلوكها، إذا كانت كلمته هي العليا في التشريع والتوجيه والتعليم والتثقيف، بحيث يضع الحياة صيغته، فينطلق الناس تحت لوائه، عاملين مخلصين، وفي الخبرات مسارعين ومستثنين.

ثالثًا: إن الشعوب بحاجة الفطرة، لا تستجيب لم يجندها باسم الدين، إلا إذا لم تس له الولاء لدين الله، واحفظه بحراً للخلاص له، والحرص على تطبيق شرايعه، وتعليم شعرائه، والدخول فيه كافة كما أمر الله. ولا أرغم عنه، وكشفت خداعه ونفاقه، وقالت في قوة وجلاء: "أُفْتُؤُمُونَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ وَكَفَرُونَ فِي بَعْضٍ" (1).

* * *

(1) البقرة : 85

89
العلمانية مبدأ مستورد

والعلمانية من ناحية أخرى، ضد أصالتنا وسياقتنا؛ لأنها مبدأ مستورد من خارج أرضنا، ومن قوم غير قومنا، لهم تاريخ غير تاريخنا، ومبادئ غير مفاهيمنا، وقيم غير قيمنا، وعقائد غير عقيدتنا، وقوانين غير شريعتنا، وأوضاع غير أوضاعنا.

إنهم احتاجوا إلى العلمانية لظروف خاصة بهم، ونحن لا حاجة لنا إلى العلمانية; لأنها كانت حلاً لمشكلهم مع كنستهم، وهي عندها، تكون مشكلاً في ذاتها.

والعلمانية لا تصادم عقائدهم، ولا شريعتهم، ولا تعارض أحكاماً إلهية مفروضة عليهم من ربهم، ولكنها عندها تصادم العقيدة، التي من مقتضياتها النزول على حكم الله ورسوله، وتعارض الشريعة، التي أنزلها الله، منظمة لحياة الناس، بوضع الأصول الضابطة لها، والاحكام الهادية لمسيرتها.

والعلمانية عندهم، لم تتح سلطة الدين ورجاله، وإنما فصلت بين السلطتين: الروحية والزمنية، وترك لكل منها مجالها ونفوذها وحرية تحركها. وقد بقت هناك سلطة الكنيسة، تمارس نشاطها بما تملك من سلطة ورجال وسلطة.

أما نحن، فليس لنا سلطة دينية مستقلة مقدرة، فالعلمانية - عندها - تعني تصنيفية الوجود الإسلامي، بحيث لابقى له قدرة ولا سلطان ولا حريه، ما لم يكن خادماً للسلطة السياسية القائمة.

* * *

90
تحرير موضع النزاع

بعد تحديد المواقع أو الهويات ، وتحديد المفاهيم المتتاز عليها ، وتحديد المعايير التي يحكم إليها ، يأتي الأساس الرابع للحوار ، وهو : تحرير موضع النزاع أو الخلاف بين الفريقين : فريق الإسلاميين ، وفريق العلمانيين .

وأعتقد أن من السهل تحديد مواقف الخلاف ، بعد تحديد القضايا الثلاث ، التي أسلفنا الحديث عنها : المواقع ، والمفاهيم ، والمعايير . كما يمكننا تحديد نقاط الاتفاق - أيضًا ، إن صح الآخرون ، وصدقت الراقين .

نحن متفقون على ضرورة النهوض بأوطاننا ، والعمل بأقصى طاقاتنا لتنمية شاملة ، واستخدام أحدث ما وصل إليه العلم والتكنولوجيا في العالم المعاصر ، والاستفادة من كل جديد نافع ، وكل قديم صالح ، والوقوف في وجه الجمود والتحرر في العلم ، والفكر ، والأدب ، والفن ، والصناعة ، وتحديد الحياة مادية ومعنوية ، بكل ما يرقي بها ويتمب وينيرها .

ومنفقونا على ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن حاجة الامة إلى زكاة الأنفس ، وصلاح الضمائر ، واستقامة الأخلاق حاجة أساسية ، كحاجتها إلى الغذاء اليومي .

ومنفقونا على الاعتزاز بالإسلام ، باعتباره دين الأغلبية ، واحترام الأديان السماوية في غير المسلمين ، وأن الإسلام للمواطنين منهم ثقافة وحضارة ، وإن لم يكن دينا وعقلية .

ومنفقونا على إعادة نظام سياسي يحقق الارادة ، التي أقام عليها الإسلام قاعدة الحكومة الإسلامية ، وعلى إقرار كل الظلمات ، التي هي بناء الديمقراطية الحديثة للمحافظة على حق الشعوب في اختيار حكامها ومرافقتهم ومحاستهم ، وتحريرهم إذا ساءوا ؛ من دسائس مكتوبة مفصلة ، وأنتخابات حرة نزيهة ، وصحافة لا تستطيع الحكومة إغلاقها ، ومعارضة قادرة على أن تنصع وتتفقد ، بلا خوف من الحكم واعوانه .
ومتفقون على إقامة نظام اقتصادي يحقق زيادة الإنتاج، وعدالة التوزيع، وترشيد الاستهلاك، وسلامة التداول، يعني بحماية الضعفاء من الأقوياء، وحقوق الفقراء لدى الأغنياء، ويقيم تكافلاً اجتماعياً، يجعل الأمة كالبيتين الموصوف.

ومتفقون على ضرورة توفير الأمن لكل إنسان في وطنا، بحيث لا يخاف على نفسه أو أهل وماله، أو أي حرمة من حرمائه، وتوفير الحرية له، دينية أو سياسية أو فكرية أو مدنية، بما لا يهدم القيم السائدة، والأصول العامة المتفق عليها في مجتمعنا.

ومتفقون على ضرورة تحرير أوطاننا من كل تبعية أجنبية، غربية كانت أم شرقية، عسكرية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو ثقافية.

ومتفقون على رفض "الدولة الدينية" بالفهم الذي عرفه الغرب في العصور الوسطى، الدولة التي تعادى العلم باسم الدين، وتقف مع الطغيان ضد الخريمة، ومع الملوك ضد الشعب، وتزعم أنها تمثل في الأرض سلطان الله في السماء! ولكننا مع هذا كله نختلف في أمور أساسية، وقضايا جوهرية، يجب أن نغلبها، وخصوصاً فيما يحدد العلاقة بين العلمانية والإسلام.

* * *
العلمانية والإسلام

العلمانية - بالمعنى الذي شرحناه - لا تتفق من الإسلام موقفًا مباشراً ولا يمكن أن تكون محاباة كما زعم بعض العلمنائيين العرب. فهذا بالنسبة للإسلام مستحب.

إن الإسلام يواجهها بجمال كل جوانب الحياة الإنسانية: مادية ومعنوية، فردية واجتماعية، وهي لا تسلم له بهذا الشكل، فلا يمكن من الصدام بينهما.

إن النصرانية قد تقبل قسم الحياة والإنسان شطرين: شطر للدين، وشطر للدولة، أو يعبر الإغريق: شطر لله وشطر الققدر، فتعطي ما تقدر قدرًا، وما لله! أما الإسلام، فيري الحياة جزءًا لا يتجزأ، ويري الإنسان كيانًا واحدًا لا ينقسم، ويري أن الله هو رب الحياة كلها، ورب الإنسان كله، فلا يقبل قصير شريكاً لله، فله ما في السماوات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وقصير وما لله! فلا يجوز أن يستولي على جزء من الحياة، يوجها، بعيدًا عن هدى الله.

إن الإسلام يأمرنا إذا أن نوجه الحياة كلها بأحكامه ووصايته، وأن يصبحها بصيغته، وهي صيغة الله، ومَن أحسن من الله صيغة (1)، وضفت عليها من روح الصالبة، وهي روح رابطة الغاية، أدلاقًا المزروع، إنسانية المضمون.

ولا يقبل الإسلام إلا أن يصحب الإنسان - توجيهه وتشريعه - في رحلة الحياة منذ أن يولد، إلى أن يموت، بل قبل أن يولد، وبعد أن يموت (2).

ولا يرضي الإسلام أن يكون في الحياة فضيلة لا عمدة، وأن يكون لها منها الهامش لا الصلب، وأن يكون لغيره القيادة، وعليه الطاعة والابتعاد!

إن طبيعة الإسلام أن يكون قائدًا لا مقدوًا، وسيديًا لا مسودًا، لأنه كلمة الله.

(1) كـ : 38
(2) لأن هناك أحكامًا وتنويين، تتعلق بالجيش في طن أمه، وأخرى تتعلق بالجيش بعد وفاته، مثل غسله وتكفيه والصلاة عليه، إلخ، أنظر فصل: الشمول، من كتبنا «الأخطاء العامة للإسلام».

93
والعلمانية تريد من الإسلام أن يكون تابعًا لها، ويتنهى بهنها، لا أن يأخذ موقعه الطبيعي والمنطقى والتاريخي، أمرًا ناهيًا، حاكمًا هادئًا.

إنه تبارك وتضرب عنه، إذا بقي محصورًا في الموالد والأخلاق، في دنيا الدراويش والمجاهدين، في عالم الخلافة والإسلام، أما أن يتحرك ويركز، ويوجه الشعوب، ويقود الجماهير، ويفجر الطاقات، ويضيء العقول، ويلبض المشاعر، ويصنع الأبطال، ويربي الرجال، ويضيق مسيرة المجتمع بالحق، ويقيم بين الناس الموازين القسط، ويوجه التشريع والثقافة واللغة والإعلام، ويعلم الناس أن يدعوا إلى الخير، ويرمهم بالمراعي، ويهوا عقلهم، وينظموا الأنساب والفساد...

فهذا ما لا ترضى عنه العلمانية بحال.

تريد العلمانية من الإسلام أن يتقن بركان أو زاوية له في بعض جوانب الحياة، لا يتجاوزها ولا يعتدها، وهذا تفاضل منها عليه، لأن الأصل أن تكون الحياة كلها لها، بل مزاج أو شريك!

فعلى الإسلام أن يتقن بالحديث الدينى، في الإذاعة أو في التلفاز.

وأن يتقن بالصفحة الدينية، في الصحيفة يوم الجمعة.

وأن يتقن بحصة التربية الدينية، في برامج التعليم العام.

وأن يتقن بقانون الأحوال الشخصية، في قوانين الدولة.

وأن يتقن بالمسجد، في مؤسسات المجتمع.

وأن يتقن بوزارة الأوقاف، في إجهاز الحكومة، على أن يتقن بذلك، ولا يتجاوزه إلى ما هو أكثر من ذلك، بل عليه أن يرجى من الفكر أجزئه للعلمانية، التي أثنت له أن يظل برأسه من هذه النواحى، أو تلك الزوايا!

الإسلام - بطبيعته - يرفض أن يكون له مجرد ركز في الحياة، وهو موجه الحياة واصطحابها. يرفض أن يكون مجرد ضيف على العلمانية، وهو صاحب الدار!

من هنا يتصدح الإسلام بالعلمانية، ولا بد، في أكثر من مجال، يصفدم بها في كل شعب من شعوب تعاليمه الأربع الرئيسية: العقائد، والعبادات، والأخلاق، وال التشريع.

* * *

94
العلمانية والعقيدة

العلمانية لا تتجزح الجانب العقيدة في الإسلام، ولا تنظر على الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، انطلاقًا من مبدأ مسلم به عينها، وهو تقرر الحرية الدينية لكل إنسان. فهذا حق من حقوقه، أفراده الموالقون الدولية، ومضت عليه الدساتير الحديثة.

ولكن الإسلام في دار الإسلام، لا يكتفى بأن تكون عقيدته مجرد شيء مسموح به، وليس محظورًا كالخدرات والسموم البيضاء.

إن يريد أن تكون عقيدته روحي الحياة، وجهر الوجود، وملهم أبناء المجتمع، وأن تكون أساس التكوين النفسى والفكري لأفراد الأمة، وعبارة أخرى، تكون محور التربية والثقافة، والفن والإعلام، والتشريع والتقليد في المجتمع كله.

إن الإسلام يغرس في نفس الطفل، منذ نعومة أظفاره، عقيدة التوحيد التي تحرر الإنسان من العبودية لكل ما سوى الله، من العبودية للطبيعة، والعبودية للحیوان، والعبودية للجنة، والعبودية للبشر، والعبودية للحجر، والعبودية لهوى النفس، والعبودية لأى طاغوت، عبد الناس من دون الله، وإفراد الله تعالى بالعبادة له، والاستعانة به، وحده، لا شريك له. كما تعليم ذلك سورة الفاتحة، التي يقرأها المسلم في كل صلاة: "إِبَّاكَ اسْتَعِنْ بِيَٰبَّاكَ ۗ ۖ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهَ وَحْدَهُ ۗ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اَللَّهِ"(1).

بل إن المسلم منذ ولد له طفل، ذكرأ أو أثنا، مطالب أن يؤمن في أذهنه اليمنى، أي يسمع كلام التكرير "الله أكبر... الله أكبر" وكلمة التوحيد: "أشهد أن لِلَّهِ إِلَّا اَللَّهُ"، وكلمة الرسالة: "وأشهد أن محمد رسول الله"، وإن لم يكن المولود يعي ذلك، ولكن لذلك إيجاده ودلائه في المستقبل، حين يعلم أن أول كلمة طرقت تسمعه، هي كلمة التوحيد.

(1) الفاتحة : 5.
كما يعلم أن آخر كلمة يسمعها المسلم، وهو على فراش الموت هو كلمة التوحيد - أيضًا.

فهو يستقبل الحياة بالتوحيد، ويروع الحياة بالتوحيد، وهو ما بين الاستقبال والوداع، يعيش لرسالة التوحيد، ملتزمًا بها، ودافعًا إليها.

إن التوحيد - الذي هو جوهر الإسلام - ليس مجرد كلمة تقال، أو شهادة تعلن: إنه اتجاه فكري، ونفسي، وخلقى، وعملي، يفرض على المسلم، لا يغيب عن الله ريا، ولا يتخذه غير الله ولياً، ولا يبتغي غير الله حكمًا.

وهو - بهذا - أسس الحريات الحقيقية، إذ لا حرية لمجتمع اتخذ بعضه بعضًا أربابًا من دون الله، سواء كان هؤلاء الأرباب من رجال الملك، مثل فرعون، الذي قال للناس: "أنا ربيكم الأعلى"، أم من رجال الدين، الذين حرموا على الناس ما شاءوا، وحللون لهم ما شاءوا، دون إذن من الله تعالى. كما قال القرآن عن أهل الكتاب: "اتخذوا أحببهم ورهبائمهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم" (1).

وسواء أعلن هؤلاء المؤلهون هذه الرربية للبشر بالستهم وأقوالهم، أم أعلنها بمارساتهم وأعمالهم، كما هو الغالب، فالنتيجة واحدة، وهو استعباد البشر للبشر.

ولهذا كانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم تتعمل إلى قصر وغيره من ملك الأرض، تتم بهذه الآية الكريمة: "قل: يا أهل الكتب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعوذ بِالله وَلَا تَجَذَّبْنَا بَعْضَنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله" (2).

وعرف ذلك المسلمين الأوائل، فقال ربي بن عامر (رضي الله عنه): لرستم قائد الفرس: "إن الله ابتغثنا، لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله. وحده..." .

التوية: 31
(1) التوبة: 64
(2) آل عمران: 64
96
التوحيد - كذلك - أسس الإيمان الحقيقي بين البشر ، فالآرباب لا يؤخذان
العبد ، إما يتأخت العبد أمام رب العباد .

وقد كان من دعاء النبي ﷺ ، دير كل صلاة ، كما روا أحمد وأبو داود :
اللهم ربي ، ورب كل شيء وملكيه ، أنا شهيد أنك الله ، وححد لا شريك لك .
للهم ربي ، ورب كل شيء وملكيه ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك . اللهم
ربنا ، ورب كل شيء وملكيه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة .

وبهذا وضع الأخوة في المرتبة التالية للشهادتين ؛ لأنها ثمرة لهما .

التوحيد - كذلك - أسس المساواة الحقيقية بين البشر ، فإن المتآترين في
الأرض ، لا يتساوون ممن يؤولونهم ، وبخون لهم خشعين .

أما عقيدة التوحيد ، فتشوي بين الناس جميعًا ، باعتبار عبوديتهم لرب واحد ،
إلى جوار بنوتهم لأب واحد . وقد أعلن النبي ﷺ ذلك في حجة الوداع ، على
رؤوس الأشهد ، وقال : "با أبها الناس ، إن ربك واحد ، وإن أباكم واحد ،
كلكم لآدم ، وأدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على
أسود ، إلا بالقورى ، " إن أكركم عند الله أتاقكم " (1).

حتى النبي ﷺ نفسه ، لم يرفع نفسه عن مرتبة العبودية قيد شعرة ، فهو
عبد الله ورسوله ليس إلها ، ولا تصف إله ، ولا ثالث إله ، بل خاطبه الله
 تعالى بقوله : "علٌ إِنَّمَا أَنَا يُصَلِّي مَلَكِكَ يُوحِي إِلَى أَنَا إِلَهُكَ إِلَهٌ واحِدٌ " (2).
وحذر أمه من الغلو ، الذي سقط في هوته أصحاب الأديان السابقة ، فقال : "لا
تطوروني ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله
منثقة عليه .

هذه العقيدة - عقيدة التوحيد - وما تفرع عنها من الإيمان بنزه الله تعالى عن كل
نقص ، ووصفه بكل كمال ، ومن الإيمان بإثباته ، وكيته ورسله ، واليوم الآخر ،
يجب أن تكون الملهم الأول ، والمؤجج الأول ، للحياة الإسلامية .

(1) المخزوم : 13 .
(2) الكهف : 10 .

(م7 - الإسلام والعلمانية)
فالمجتمع المسلم، مجتمع عقيدة وفكرة، وليس مجتمعًا ساقيًا، وعقيدته وفكرته هي الإسلام، فيجب أن تصgium الحياة به "صيغة الله، ومن أحسن من الله صيغة ونجح بل عابيدين" (1).

إن وضع العقيدة الإسلامية في المجتمع المسلم، يجب ألا تكون دون وضع العقيدة الماركسية في المجتمع الشيوعي، فهو يبرأها أساس فلسفة الثقافية، والاجتماعية، والسياسية.

ولا يقبل في مجتمع مسلم، أن يكون الإسلام - وهو في قلب داره وعز سلطاته - مجرد شيء ماضون فيه، لا يغير على من آمن به، كما لا حرج على من تركه. فالدين الله والوطن للجميع، كما قلنا!

ومن ناحية أخرى، نرى العلمانية - وإن قبقط عقيدة الإسلام نظرًا أو كلاميا - ترفض ما تستلزم العقيدة من معتقداتها، وما توجه على إبنائها إيجابيًا حتمًا، بمحتوى الإيمان. وذلك بين واضح في أمرين أساسيين:

أولهما: رفضها اتخاذ العقيدة أساسًا للإنسام والولاء، فهي لا تقيم للرابطة الدينية وناتئًا، بل تقدم عليها رابطة الدم والاصر، ورابطة التراب والطين، وأي رابطة أخرى.

وهذا مناقض تمامًا لتوجه القرآن، الذي يقيم الأخوة على أساس الإيمان والعقيدة، "إنما المؤمنون إخوة" (2)، "فآصحت بنعمت إخوائي" (3).

ويعمل وراء المؤمن - قبل كل شيء - الله ورسوله وجماعة المؤمنين "إنما ولبك الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويتون الزكاة وهم راكعون ومن يذكى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حسب الله هم الفعالون" (4).

وبلغ كل رابطة منها يمكن قربها وقوتها، إذا تعارضت مع رابطة الإيمان، حتى

10 الحجرات
138 البقرة
56، 56
55 المائدة
103 آل عمران
(1)
رابطة الآب وابناءه والأخوة، يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا أبناءكم وابناءكم أولياء إلا من يؤمنون بالله و心仪的 الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وَلَوْ كَانُوا أبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عِشْرَيْنِهِمْ، فَأَوْلَئِكَ هُمُ الطَّالِمُونَ (1) "لا تجدهم قومًا يؤمنون بالله و心仪 الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا أباؤهم أو أبناؤهم أو إخوانيهم أو عشائرهم." (2)

ويضرب القرآن مثلما يباب الأنبئاء إبراهيم ( عليه السلام )، الذي برئ من أبيه، حين بيعن له أنه عدو الله تعالى، وكذلك موفقه هو والذين آمنوا معه، من قومه حين كانوا بالله وحادوه: "قد كنتم أسرى حسبا في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم: إننا براءأائكم من عبادة من دون الله كفرنا بكم ونذاك بيتنا." (3)
ويضمن العاداة والغضب أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده (3)

كذلك قال الله تعالى لوح عن ابنه من صله، لما طرد على ربه: "يا نوح، إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح." (4)

ويحذر المؤمنين من اتخاذ أعداء الله أولياء في آيات كثيرة، ويشدد في ذلك، حتى يكاد يعتبره ردة عن دين الله: "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" (5) ويقول بعدها: "يا أيها الذين آمنوا من يرئد منكم عن دينه فسوف يأتي الله يقوم بحجه ويحكيه بهذه أدلته على المؤمنين أعزة على الكافرين (6)

ولا يبرئ في شيء من ذلك، إلا في حالة الصدف، التي لا تجد فيها جماعة المؤمنين بدلا من إظهار النقبة للكافرين، وذلك استثناء من القاعدة العامة. يقول القرآن: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تلقوا منهم نذأ، ويجتركم الله نفسه، واللى الله المصير (7)".

والآية تدل على أن الولاية تعني الانتصار لهم والوقوف في صفهم، من دون المؤمنين، وليس المراد المودة القلبية، فلو كان هذا المراد، ما رخص فيه. لألن الضعيف يكفي أن يضمر الكراهية والبغضاء في قلبه، ولا يطلع عليه أحد.

والأمر الثاني: أن العقلانية ترفض ما توجه العقيدة الإسلامية على أبنائها، من النزول على حكم الله ورسله، والتسليم لهم، دون تردد أو حرج.

وهذا هو موجب الإيمان، ومقتضى الإلتزام بعقد الإسلام، وهو ما نطق به القرآن في بيان محكم صريح، لا ليس فيه ولا تشابه.

يقول الله تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أمرًا أن يُّكُونُ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَمَنْ يُصَبِّحُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا عَظِيمًا" (1).

"إِنَّمَا كَانَ قُوَّةُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَعَوُا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَعِينَا وَأَطْعَنَا، وَأَوْلَاهُمُ الْمَلَكُ" (2).

"فَلا وَرِيَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمْ عَلَيْهِمْ نَزْلًا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مَّا كَأَتَبَعَتْ وَيَسَّلَمُوا تَسْلِيمًا" (3).

فالعقيدة الإسلامية تفرض على المسلم أن يكفي ج 하고ه، وفقًا للأحكام التي تبديها، وأن يتجلى أثرها في سلوكه وعلاقاته كلها، سواء كان حاكماً أم محكوماً.

والعلمانية تريد من العقيدة أن تظل حبيسة الضمير، لا تخوض معارك الحياة، ولا تؤثر في أهدافها ومناهجها، فإن سمح لها بالظهور، فليكن بين جدران المسجد، لا تخرج عنها، على أن يكون المسجد نفسه تحت سلطاتها.

(1) الأحزاب : 36. (2) الأنور : 51. (3) النساء : 65.
وبهذا، نرى المسلم الذي يعيش تحت سلطان العلمانية، يعاني من التناقض بين العقيدة، التي يؤمن بها، والواقع، الذي يفرض عليه، عقيدته تشرق، وواقعه يغرب. عقيدته تحرم، والعلمانية تباح. عقيدته تلزم، والعلمانية تعارض. وهكذا، لا تعيش بين الإسلام الحقيقي والعلمانية الحقيقية، فهما كالضررين، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، أو كفت الميزان لا ترجع إحداهما إلا بمقدار ما تقف الأخرى.

* * *

101
العلمانية والعبادة

والعلمانية قد لا ترفض الإسلام، باعتباره عبادة وشعائر، يقرب بها الإنسان إلى ربه، بناءً على أن ذلك جزء من الحرية الدينية. ولكنها لا تجعل لهذه العبادة أهميتها، باعتبارها غاية الحياة، والمهمة الأولى للإنسان وما خلقه للجن والإنس إلا لا يعودون (1). ولا تقيم نظامها التربوي والثقافي والإعلامي على غرس هذا المعنى، وتنفيذه، وتعهده، حتى يوتي أكله.

ولا تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية تنظيماً، يسرع المسلم أداء عبادته، بغیر عوائق، ولا ضغوط، بحيث لا تتعارض أنظمة العمل والدراسة وغيرها، ومواقفها مع مواقيت العبادة المفروضة.

وهي لا تجعل للالتزام بفرضية العبادات، أو إهمالها، مكاناً في تقديم الناس وتأخيرهم، وخصوصاً عند الترشيح لمناصب القيادة، وجلال الأعمال، على أساس مقولات خاصة: هي التفرقة بين السلوك الشخصي والسلوك الاجتماعي للإنسان، وهو ما لا يقول به الإسلام.

والتي - كذلك - لا ترى المجاهر بترك العبادات، التي هي أركان الإسلام العملية، شيئاً يوجب المحاسبة أو المؤرخة، بله العقوبة، التي أجمع عليها فقهاء الإسلام، ففيما يصر على ترك الصلاة، أو منع الزكاة، أو إفطار رمضان، حتى أُنهم أتفقوا على تكثير من ترك شيء منها، استخفافاً ببحرتمها، أو إنكارًا لفرضيتها، لإكراه ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وهي كذلك لا تعتبر الزكاة - التي هي الركن المالي الاجتماعي من أركان الإسلام - جزءًا من نظامها المالي والاقتصادي والاجتماعي، تأخذ من الأغنياء، لترد على الفقراء بوساطة «العاملين عنها»، بل تعتبرها عبادة شخصية، من شاء أداها، وعلى عبء الضرائب الوضعية كاملاً. ومن شاء أعرض عنها، ولا حرج عليه، ولا ملامة!

* * *

(1) الداريات: 56.

102
العلمانية والأخلاق

ذلك هو موقف العلمانية من العقيدة، ومن العبادة في الإسلام، فما موقفها من الأخلاق، التي جاء بها الإسلام؟

رغم يبدو لأول وهلة أن العلمانية لا اعتراض لها على الجانب الأخلاقي في الإسلام، بل لعلها ترحب به، وتدعو إليه، باعتبار أن الأخلاق هي قوام المجتمعات، وعادات النفوس، وأن الإنسان، الذي هو محور التقدم، وصانع التنمية، ومنشئ الحضارة، إذا تنبى الأخلاق والفضائل الإنسانية الرفيعة، ولم يلّ

بيت شعر قاله شاعر في عصرنا، ما ناله بيت شوقي الشهير:

إذا الأمام الأخلاق ما بقيت فإن هم، ذهب أخلاقيهم، ذهبا!

هذا ما لا خلاف عليه - على وجه العموم - بين الإسلام والعلمانية.

ولكن عند التأمل والتحقيق، نجد بينهما خلافًا أكيدًا في موضعين:

أولاً: في مجال العلاقة بين الجنسين، حيث تتميز الأخلاق الإسلامية هنا، عن أخلاقيات الحضارة الغربية، التي تنتج من ثقافاتها، شرابة بشيرة، وذراعًا بذراع.

فإن الإسلام - وإن كان لا يصدر هذه الغرزة ولا يعطيها، أو يعتبرها في ذاتها قذارة ورجسًا - يصر على تصيرفها في نطاق الزواج الشرعي، الذي به يجد كل من الزوجين السكونة والمودة والرحمة، وبهذا تكون الأسرة، التي هي نواة المجتمع الراقي.

ويحرم الإسلام أي اتصال جنسي خارج هذه الدائرة، ويعتبره من الزن أو الشذوذ، الذي يجلب سخط الله تعالى، ويشيع الانحلال والفساد في المجتمع، ولا تقرب الزن، إنه كان فاحشة وساء سبيلًا (1).

(1) الإسراء : 32.
كما يحرم الإسلام كل الوسائل التي تسر وقوع الفاحشة، أو تغرس بها، أو تجري عليها. ولذا يربى المؤمنين والمؤمنات على العناية والإحسان، وغض البصر، كما يوجب على المسلم الالتزام الحشمة، والوقار في الزكاة، والكلام والمشي والحركة، فلا تتخضع بالقول قطيع من الذي في قلبه مرض وقدن قولًا مغروفاً (١)، ولا يزينين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضرين يضرهن على جبرين (٢)، ولا يصرين بارجلين لعلم ما يخفين من زينتهن، وحمرها السفر وحدهابغير زوج، ولا محرم، وخصوصاً مع عدم الأمن.

هذة الأحكام والتوجيهات الإسلامية، لا تحرج بها العلمانية المستغرقة، ولا ترى أن تقيد المجتمع الذي يحكمه، يقيدها، وأن تنزل الجبل على الغرب للجنسيين، ليصرفا كما يحلو لهم، بناء على أن ذلك يدخل في نطاق الحرية الشخصية.

وهو الموضوع من المحاكات الأساسية التي تعطى فيها العلمانية والإسلام، فالإسلام يغلق بقوة الأبواب، التي تهب منها رياح الفتنة من الأغنية الخبيثة، والصورة المشينة، والقصة المكشوفة، والأولى الريحية، وين])).، ويدعم كل ألوان الديانات والإثارة والخلية غير المشروعة، ويجتمد في حل مشاكل الزواج وإزالة العواطف من طريقه، حتى يستغل الناس بخلال عن الحرام.

والعلمانية لا تنظر للأمر على أنه مشكلة تتطلب حلاً، ولا ترى حرجاً من إثارة الفرص لاستمتاع أحد الجنسيين بالآخر، كما تفعل المجتمعات المتقدمة اليوم! وتنظر لوقف الإسلام هنا، على أنه موقف متزامن من التشريع، وللدعاة الإسلاميين على أنهم قوم معقدون يضخدمون مسألة العلاقة الجنسية، ويعظونها من المساحة، أكثر مما ينبغي.

والإسلاميون لا ذنب لهم، إلا أنهم يحلون ما أحل الله، وبحرون ما حرم.

(١) النور : ٣١.
(٢) الأحزاب : ٣٢.
الله، ويجرون ما أوجب الله، ويجرون ما شرع الله، وهل يسع مسلمًا صحيح
الإسلام، إلا هذا الموقف؟
والوضع الثاني: أنهم لا يحبون أن يربطوا الأخلاق بالدين، وإلا يريدون
أن يقيموا على أساس فلسفى أو عقلي، بعيدا عن الدين، وترغيب وترهيب،
«فالأخلاق الدينية» عندهم في موضع الاتهام، أما الأخلاق المدنية فهي أقوم
قيل: وأهدى سبيلًا (1).

* * *

(1) قال هذا - بوضوح - الأستاذ خالد محمد خالد، في فترة أثناه إلى العلمانية، في
كتبه: «لكيلا غربوا في البحر»، وقد رجع عما كتبه عن "قومية الحكم" في كتابه: "من هنا
نبدأ»، ونرجع أن يصحح ما كتبه عن الأخلاق - أيضًا - وهو لذلك أهل، غفر الله لنا وله.
العلمانية والشريعة

أما الجانب الذي تقف العلمانية ضدّه، من تعاليم الإسلام، بصورة وقوة، فهو الشريعة، أو الجوانب التشريعي أو القانوني في الإسلام.

وقد يتساهل بعض العلمانيين، فيدعو للإسلام التشريعي المتصل بالأسرة، أو ما يسمى "الأحوال الشخصية" من الزواج، والطلاق، والميراث، ونحوها، على اعتبار أن هذه متعلقة بالحرية الدينية، أو الشخصية للإنسان، ولهم حين يشعرون بذلك، يعتبرونه منهم، على الإسلام.

فالعلمانية الأصلية، لا تسمح للإسلام بأي مساحة في التشريع، ولو كان ذلك في الأحوال الشخصية، فالذين مكانه - عندنا - الضمير، أو المسجد - فحسب.

وقد رأينا علمانية "آتاتورك"، وهي أم العلمانيات في البلاد الإسلامية، تطرد التشريع الإسلامي في كل المجالات، حتى في الأحوال الشخصية، لهذا حرمت الطلاق، وتعهد الزوجات، وبذلك بين الأبناء والبنات في الميراث، مخالفًا بذلك قطاعات الشريعة، وما علم من الدين بالضرورة.

وفي بعض البلاد العربية في الشمال الأفريقي، رأينا بعض العلمانيات الحاكمة، تقلد العلمانية "الأتاتوركية" في الزواج والطلاق، وأوشكنا أن نتفقذ في قانون الميراث، لولا ضغط الرأي العام.

ترى العلمانية أن التشريع للمجتمع من حقها هي، وليس من حق الإسلام أن يحكم ويشرع، ويجعل ويحرم، أي أنها تغلب حق التشريع المطلق من الله الحاصل، وتعطي للإنسان المخلوق.

والعلمانية بهذا تجعل الإنسان ندا لله، الذي خلقه، بل هي - بهذا - تعلي كلمة الإنسان، على كلمة الله جل جلاله، فهي تمنحه السلطة والاختصاص، ما تسنه من الله سبحانه، وبهذا يصبح الإنسان، يحكم بما يريد، ويأمر بما شاء.

106
قد تعترف العلمانية الله في هذا الكون، بالخلق، ولا تعترف له بالأمر، والإسلام يقوم على أن الله الخلق والأمر جميعًا: { آلاَّ هَيْنَ أَلَآَّ إِنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ وَأَلَآَّ إِنَّهُ الْأَمَرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } (1).

وإذا تسامحت العلمانية، وأعترفت الله بحق التشريعة، فإننا نجدها تعطى الإنسان حق النسخ لما شرع الله، بدعاوي باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، فهي تحل ما حرم الله، وتحرم ما أجله الله، وتسقط ما فرض الله، وتتعلق ما شرع الله.

إنها - في قراءة نفسها - لا تقدر الله حق قدره، حين تستبعد أن يحيط الله تعالى شأنه، بما يحدث للبشر، رغم تغير الزمان، وتبدل المكان، وتطور الإنسان، وأن يشعر لهم من الأحكام، ويضع لهم من القواعد، ما يصح لهم، ويصلحهم ويرقي بهم، أفراداً وجماعات، وإن مضى عليه أربعة عشر قرنًا من الزمان.

والمسلم يقوم على عقيدة راسخة، بأن الله العظيم، لا تحفظ عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء، في السماوات ولا في الأرض، وأن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة له سواء، فهو يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون.

وما تكوّن في شأن وما تتولى منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليهما شهودًا إذ تفسرون فيه، وما يعزب عن ربك من مثاله دارًا في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب همین (2).

إن الشريعة هي العدو الأول للعلمانيين في البلاد الإسلامية؛ لأنها هي التي تنقل الإسلام من عالم النظريات والمثاليات إلى الدنيا الواقع والتنفيذ. وهي التي تهيئ للمجتمع سياجاً من القوانين، يحميه من عدوان العاديين، وهي التي تردع من لم يرتد ثواب الإيمان، كما قال الخليفة الثالث: { إن الله ليزوع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن }.

وأشد ما تكون عداوة العلمانيين للشريعة، فيما كان مضاذاً لانضاج الحضارة

(1) الأعراف : 54.
(2) يسوع : 61.
الربية ، وفلسفتها في التشريع ، والنظرة إلى الفرد والمجتمع ؛ وذلك مثل : تحريم الربا في القانون المدني ، أو تحريم الزنى والسُكر في القانون الجنائي ، أو تحديد الجزاء على الجرائم ، بعقوبات بدنية ؛ مثل : الجلد ، والقطع ، و نحو ذلك . 
إن العلمانية تقبل القانون الوضعي ، الذي ليس له في أرضنا تاريخ ولا جذور ولا فبول عام ، وترفض الشريعة ، التي تدين أغلبية الأمة برابتيها ، وعدائتها ، وكما لها ، وخلودها ، وخص بالائم والقلق ، إذا أعرضت عن أحكامها ، وترى أنها مهادة بعاقب الله في الدنيا والآخرة .

* * *
العلمانية والدعوة إلى تطبيق الشريعة
الشرعية من عند الله

قديما، قال الشاعر العربي:

لا يوجد في الأهدان شيء.
إذا احتاج النهار إلى دليل!

فمن أصبب الآثاء، أن تحاول إذاعة محارك باتك في نهار منشأ، إذا كانت
الشمس ساطعة، لا يحول دونها ضباب ولا سحاب. ولهذا قال علماؤنا:

إن توحيض الواضحات من المشكلات!
وينحن مضطرون أن نقصي هذه الصعوبة في توضيح الواضح، وإثبات الثابت،
مع د. فواد زكريا الذي ينكر أن هي الإسلام شريعة من عند الله!

لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة؟
لقد بدأ د. زكريا، فوجه سؤالاً من سؤالين رئيسيين عنده:

أولهما: لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية؟
وجاب الدكتور على سؤال نفسه، بما يجيب به أنصار الشريعة، ودعوة الخلل
الإسلامي عامة، من خلال منطق قوي، لا يستطيع عقل مؤمن أن يهرب منه،
or يرفضه بغير مكابرة، كما اعترف بذلك الدكتور نفسه.

يقول في جواب السؤال:

إن الرد الجاهز، الذي يجيب به كل من يتحمس لهذه الدعوة في هذا
السؤال، هو أن تطبيق الشريعة ضروري، لأن الشريعة آتية من عند الله، بينما
القوانين الوضعية، التي تعمل بها من صنع البشر، والمنطق البسيط والباشر، الذي
تغلغل به هذه الدعوة إلى قلوب الملايين من البشر وعقولهم، هو أنه لا وجه
لمقارنة بين قانون يأتي من عند الله، وقانون وضعه البشر. إن الإنسان كائن هش
ضعيف، لا ينتد عمه إلا لحظة خاطفة في زمن الكون الأولي، ولا يشغله كيانه إلا
ذرة ضئيلة في كون شاسع، تقاس أبعاده بملاین السنين الضوئية. فإذا كانت لدينا شريعة أوحى لناها خلق هذا الكون، وقانون وضعه هذا الإنسان الضئيل المحدود، فهل يصح أن نتردد في الاختيار بين الاثنين؟

إنه، كما قلت منطق واضح مباشر، يبدو في نظر الإنسان العادي أمرًا يستجلب الاعترض عليه، بل إن قدرته الإقناعية أعظم من قدرة أشد البديهيات الرياضية وضوحًا. وما يزيد من قدرة هذا المنطق على الإقناع، حالة التردد والتآزر، التي يعيشها الناس، فكلما أحكمت الآراء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قفضتها على رقابهم، ازدادوا استعدادًا لقبول الحجة، التي تخلط بينها، بكل ثقة - فقول: أراينكم إلى أين يؤدي هكذا حكم البشر؟ إن كل مصطلحات ترجع إلى ابتكار عن طريق الله. فلمما لا نسيرون في هذا الطريق، إن كنت تريدون - حقًا - أن تتشاور أنفسكم من هذه الهاوية؟

وهكذا اعترف الدكتور بوضوح منطق دعاء الإسلام، وقوته وقدرته على التأثير والإقناع، وخصوصًا مع ما نحن فيه من بلاء، لا تزيد الأمل إلا تفاقمًا.

ولكن كيف تختصر الدكتور الفيلسوف من قوة هذا المنطق ومحاصرته وبدهيته، التي تفوق أشد البديهيات الرياضية وضوحًا؟

هنا يبتلغ الدكتور، وينزل إلى المستوى، الذي وصف به الغزالي، من هم خبر منه من أعمدة الفلسفة، وهو مستوى «الهدف»! وليس ذلك لضعف الدكتور، فهو رجل متمكن في فنه، مالك لقلمه، ولكن لضعف الفكرة، التي يدافع عنها، وهي العلمانية الدخلية. وقديمًا قالوا: الحق أبلج، والباطل لجلج.

وقال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

هذا يقترب من النقر، يتأمل وإنصاف، ما يقول الكاتب، تعقيبًا على المنطق الفطري الناصح، الذي أعرضه بعبارتة، لندرك ونفحص - معًا - قيمة الآدة، التي يستند إليها، في نفي النسب الإلهي للشريعة الإسلامية، يقول:

* وبطبيعة الحال، فلو كان الاختيار - حقًا - بين حكم إلهي وحكم بشري،
لاصبحت المسألة محسومة على الفور. ولكن السؤال الأساسي هو: هل نحن - حقيقة - إرادة اختيار بين شرع الله، وقانون الإنسان؟ في رأي أعلى الأمور - على حقته - أبعد ما يكون عن ذلك، ويرتكز هذا الرأى، الذي أقوى عليه أساسيين جوهريين:

الأول: هو أن أحكام الشريعة، باعتبار الجمع، مثال في أغلبها مبادئ، شديدة العمومية، يتعين بذل جهد كبير من أجل إحلال تفاصيلها، بغضون صالح للتطبيق في ظروف كل عصر بعينه...، وكلما تعددت أوضاع الحياة ازداد الدور، الذي تلبى هذه التفاصيل أهمية. ومن المؤكد أن مجتمعنا المعاصر، يمثل قمة التعقيد، الذي يبلغته البشرية طوال تاريخها، نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي المذهل، وما يرتقي عليه من تغييرات متلاحقة في ظروف حياة البشر، وهي التغييرات، التي واجهتنا مواقف جديدة، لم يكن لها نظير في أي فترة سابقة، ومن هنا كان لزاماً على أي مجتمع، يريد نفسه الحياة وسط عالم متغير متجدد، يتبع عليه أن يتعامل معه، أن يبذل جهدًا حيالًا، لكى يترجم المبادئ الدينية العامة إلى واقع، يمكن تحقيقه في عالم كهذا.

ولنضرب لذلك مثليين: فمبدأ الإنسان مبدأ معترف به في الإسلام، نص عليه آيات كثيرة، تهدف كلها إلى إشعار الأغنياء بأن للمحرومين في أفواهم حقًا، أي إلى ضمان حد أدنى من المعيشة للفقر، أي أن الإنسان صيغة أساسية، تستهدف تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية، غير أن تعدد المجتمعات الحديثة، وعدم وجود اتصال وثيق أو تعارف مباشر بين الغني والفقير في مجتمع المدينة الضخم المزدحم، يجتمع علينا أن نأخذ من مبدأ الإنسان روحه العامة، وهي السعي إلى تضييق الفجوة بين الغني والفقير، ثم نبذل جهدًا هائلًا من أجل تحديد الوسائل، التي تكفل تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية في هذا المجتمع المقد. ولتفاوت الصيغة، التي يمكن تقريبها، بين قيم الغني بتفعيل صدقة مباشرة إلى الفقر، وهي صيغة لم تعد مجدية في معظم المجتمعات المعاصرة، وبين مع الأغنياء من أن يتملكوا الوسائل، التي تمكّنهم من استغلال الفقراء والضعفاء، في
الطرف الآخر من سلم الحلول الممكنة. وفيما بين هذين الطرفين تدور خلافات، لا أول لها ولا آخر، كلها خلافات بشرية خالصة، وإن كانت كلها قابلة لتندرج تحت المبدأ الذي يعاقب "بدأ الإحسان".

أما المثل الآخر، فهو مفهوم الشورى. فكما نتعلم جميعًا، ما زال الخلافوحيدًا حول طبيعة الشورى، وهله هي اختيار أم ملزمة للحاكم. ولكن الأهم من ذلك أن "بدأ الشورى" يحتل تفسيرات شديدة التباين: ما بين همس الحاكم في أذن وزرائه وأمرائه المقربين، و"للتشار" وما بين إجراء انتخابات نسبية نزوية تؤدي إلى اختيار ملثم حقيقين للشعب يكونون سلطة، تراقب جمع تصرفات الحاكم، وتضع لها ضوابط لا يستطيع أن يتعدىها. فبدأ الإلهي واحد، ولكن التفسيرات متعددة ومختلفة، وكلها تفسيرات تتم بجهود بشرية.

أما الأساس الثاني: الذي أقول من أجله: إننا لستنا إزاء اختيار بين حكم الإلهي وحكم البشر، فهو أن النص الإلهي لا يفسر نفسه بنفسه، ولا يطبق نفسه بنفسه، وإنما يفسره البشر ويطبقونه، وفي عملية التفسير والتطبيق البشرى هذه، تدخل كل أهواء البشر ومساندهم وتحرياتهم، ففي عصر الرسول وصحابته (1) فقط، كان التشريع الإلهي، والتشريع والتطبيق بدونه إلهيًا، لأن المكلف بالتفصيل والتطبيق كان مبعوثًا من عند الله في مثل هذا العصر - فقط - يحق للناس أن يختاروا بين الحكم الإلهي والحكم البشري، أما في عصرنا الحاضر، فقد دخل البشر بكل ما يصفون به من ضعف ووهوى، ولم يعد النص الشرعي الإلهي يتحول إلى واقع محقق، إلا من خلالهم، وهذا هو العلل الوحيد للتبانين الشديد بين أنظمة متعددة، يقسم كل منها بأغلظ الأقذار إلى الذي يطبق الشرعية، كما ينبغي أن يكون التطبيق.

ماذا نستنتج من ذلك كله؟ النتيجة الواضحة، التي تفرض نفسها على كل من (1) أخطاء الدكتور، حين جعل التشريع في عصر الصحابة إلهيًا، مثله في عصر الرسول، والصحابة. إنما هم مجتهدون بخطوات ونصوص، وإن كان لاجتهاداتهم قيمة أكثر من غيرهم، أما إجماعهم فهو حجة بلا نزاع.
يملك جدا أدنى من القدرة على التفكير، هل أن الهدف الأصلي، الذي تسعى إلى تحقيقه دعوة تطبيق الشريعة، هو هدف يجعل بلوغه، فصاحب هذه الدعوة، الذين تمتلكهم غيبة حقيقة في الإصلاح، يريدون أن يتخلصوا من ضعف البشر، وتخبطهم بالانتحال إلى حكم إلهي، يسمو على كل ما يصل إليه البشر القانون. ولكن المشكلة الكبرى هي أن ضعف البشر، وتجزؤهم، بل وفسادهم، وانحلالهم، سيظل ملازمًا لنا، حتى عندما نحكم إلى الشريعة الإلهية، ويبدد أن نطرد الهوى والتحيز البشرى من الباب، يعده يكفّر عائدًا إلينا من النافذة.

إن عملية الحكم عملية بشريّة، وما دام الذين يمارسونها بشراً، فسوف يقحمون مشاعرهم وموهؤهم في أي نص يحكمون بمقتضاه، حتى لو كان نصاً إلهياً. وعلى كل من يشك في ذلك أن يتأمل جميع تجارب تطبيق الشريعة، لا في العالم الإسلامي المعاصر فحسب، بل طوال التاريخ الإسلامي بعد عصر الرسول، لكي يتتأكد أن البشر، مهما فعلوا، لن يستطيعوا أن يهربوا من طبيعتهم أو يتخلصوا من أعمالهم?

مناقشة علمية هادئة:

ولتتفق قليلًا عند الأدلة، التي اتتكا عليها أستاذ الفلسفة، لينفي - بشدة - أن الإسلام شريعة، تسمى إلى الله، وبثبت أن الشريعة مثل القانون الوضعي، كلها من عمل الإنسان.

الحق أني ما كنت أحسب أن يتورط رجل مثله، في مثل هذا البطل المكشوف، وأنا بتوكل على عزازل مخمور، أكمله دابة الأرض.

ولا أدرى كيف بلغ به الزهر، أن يفهم الأمة الإسلامية كله بالغباء والجهل. فقد ظلت بجميع مذاهبها ورقها طوال أربعة عشر قرناً، تعتقد أن عندها شيئاً اسمه "شرع الله" عمل به من عمل، وانحرف عنه من انحرف، حتى الفلسفة، الذين لا يجهل الأستاذ أورامهم، كانوا يحاولون أن يثبتوا ما بين حكمة البشر وشريعة الله من الاتصال.

ثم لا أدرى - ولا المنجم يدرى - ماذا يقول في الآيات القرآنية، التي أزمن

(8 - الإسلام والعلمانية)
بالحكم، بما أنزل الله، ودمعت من لم يحكم بما أنزل، بما هو معلوم من الكفر، أو الظلم، أو الفسوق.

وأما معنى (1) فإن الحكم بينهم بما أنزل الله ولا تبتغي أهواءهم وأحترامهم، فإن يشتركون عن بعض ما أنزل الله إليك (2)، إذا كان الله لم ينزل شيء محددًا، وإذا أنزل مبادئ شديدة العقيدة، أي لا تستطيع أن تأخذ منها شريعة محكمة، ولا توجيهًا ببينًا! لماذا إذا وصف الله قرأه بأنه كتب مبين، وجعله نورًا، وبيانًا، وبرهانًا، وذكراً؟! ولما خاطب رسوله يقوله: (3) ولا أنزل إلا بعله الذكر لبيان للناس ما أنزل إليهم. ككيف يكون القرآن نورًا وبيانًا وبرهانًا، إذا لم يعطنا إلا مبادئ غامضة شديدة العقيدة، لا يؤخذ منها حكم، ولا يستند منها شرع.

أما لو رجع الدكتور إلى ما كتبه أهل الاختصاص - ولو من المحدثين والمعاصرين؛ أمثال: رشيد رضا، وأحمد إبراهيم، وخالد، وجعفر، وفيثر، وأحمد حسن، وأحمد عاشور، ومن عاصره، ومن بعدهم - لعل أن في الشريعة منطقتين متمايزتين:

الأولى: منطقة المقاصل الكلية، والقواعد الشرعية، والأخلاق القائعة، وهي التي أجمع عليها الأمة، وتوارثتها الأجيال، وغدت تجسد الوحدة الفكرية والشعورية والعملية للأمة، وهذه هي منطقة المحاكمات أو القطعيات، التي لا مجال للاجتهد فيها. كما يوجد في كل نظام مبادئ أو بنود لا تقبل الإلغاء.

والثانية: هي منطقة الظواهر من الأحكام، وهي معظم الشريعة، مما ثبت بنص، لم توافر له قطعية الشروط والدلالة معاً، لأن كان ظنيًا في نبوته، أو في دلائله، أو فيه مما.

(1) المائدة: 49
(2) النحل: 44

114
وأولى من ذلك ما لم يكن فيه نص أصلاً، بأن ترك للبشر فسدة، وهو ما سمى به منطقة العفو. أخذاً من الحديث الشريف: "ما أحل الله في كتابه، فهو حلال، وما حرم، فهو حرم، وما سكت عنه، فهو عفو، فقابلوا من الله عافيته"، فإن الله لم يكن لينسي شيئًا. ثم تلا: "وما كان ربك نسية" (1).

ومنطقة الطينات هذه بقسمها ما ليس فيه نص، وما فيه نص ظلي لا يست كلاً مباحًا، يراه كل من هب ودب، إذا يجد أن تفهم في ضوء المنطقة الأولى، وفي إطارها، بحيث يسير الجزء في كشف الكلي، ويردจน إلى القطعي، ويفهم المتداخل في دائرة الحكم، ولا تضرب النصوص بعضها ببعض "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا" (2).

ولقد كان من مفارغ التراث الإسلامي "علم" انفرد بوضعه المسلمون، وقعدوا قواعد العقلية، والدينية، واللغوية، ليضطموا به كيفية الاستدلال بالنصوص الشرعية، والاستنباط فيما لا نص فيه، ذلك هو "أصول الفقه"، الذي لم تضع أمة، من أعم الحضارة، مثله.

لقد أخطأ الدكتور خطأ فاحشًا، حين اتخذ من سعة الشريعة وموثوبتها، دليلاً على أنها جهد بشرى، لا يختلف عن القانون الوضعي: الروماني قديماً، أو الفرنسي حديثاً.

وكان أجرد به أن يجعل هذه مزية للشريعة الإسلامية، وخصوصية من خصائصها الأساسية. وقد ذكره في هذا بحثًا مستقلًا (3)، بينت فيه عوامل السعة والمرونة في الشرعية، وقابليتها لمواجهة التطور وتوجيه.

لو قال الكاتب: إن الدور، الذي يقوم به الاجتهاد في عصرنا، يجب أن يكون أكبر منه في أي عصر آخر، نظرًا للعوامل الحالية والمتفاحة، التي دخلت، وتدخل، حياة الناس، وتخرج إلى أن تغلب، بتفاصيل كثيرة، ليست

(1) مريم: 64 (2) النساء: 82 (3) نشر في دار الصحافة في القاهرة بعنوان: "عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية".

115
كلها نصوصًا دينية، بل هي اجتهادات مبنية على مراعاة مصالح البشر أفرادًا ومجتمعات. لو قال هذا، لكننا معي على طول الخط، وقد أوسعت هذا بحثًا في مقالاتي، التي نشرتها مجلة الدوحة 1984 م، وكذلك في كتابي: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية.

بداية الإنسان، الذي ضربه الدكتور مثلاً:

وأما توكأ عليه الدكتور، ليقوى دليله الأول وهو شدة العمومية في مبادئ،
الشريعة - أنه ضرب مثلاً: أحدهما عن الإحسان والآخر عن الشريعة.
قال: فمبدأ الإنسان مبدأ معروف في الإسلام، نتص عليه أيائ كثيرة، تهدف
كلها إلى إشعار الأغنياء بأن للمحرومين في أموالهم حقًا، أى إلى ضمان حد أدنى
من العيشة للفقير، أى إن الإحسان صيغة أساسية، تهدف تحقيق شكل من
أشكال العدالة الاجتماعية. غير أن تعالج المجتمعات الحديثة، وعدم وجود اتصال
وثيق، أو تعاف مباشر بين الغني والفقر في مجتمع المدينة الضخم المدحم،
يعتم علينا أن نأخذ من مبدأ الإنسان روحه العامة، وهي السعي إلى تضيق الفجوة
بين الغني والفقير، ثم نبذل جهودًا هائلة من أجل تجديد الوسائل، التي تكفل
تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية في هذا المجتمع المعلق. ونتناول الصيغة
التي يمكننا طبقيها، بين قيام الغني بتقديم صدقة مباشرة إلى الفقير، وهي صيغة لم
تعد مجديًا في معظم المجتمعات المعاصرة، وعلى منع الأغنياء من أن يتملكوا
وسائل، التي يمكنهم من استغلال الفقراء والضعفاء، في الظروف الأخرى من سلم
الحلول الممكنة. وفيما بين هذه الطرفين، تدور خلافات لا أول لها ولا آخر.
كلها خلافات بشريّة خالصة، وإن كانت كلها قائمة لأن تندرج تحت المبدأ الديني
العام، مبدأ الإنسان.

وهنا نقول للكاتب: إنك لم توفق في هذا المثل، الذي ضربته، فالإحسان(1).

(1) كلمة الإحسان كما وردت في القرآن والسنة، لنها دلالة غير دلائلها العرفية، التي
اعتمد عليها الدكتور، وإنما معناها إتقان العلم، وأداة على الوهجة الذي ينبغي، وفي جاء
الحديث الصحيح: إن الله كتب الإحسان على كلي شيء، وفي حديث جبريل: الإحسان أن
تعبد الله، كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.
بمعنى التصديق الاختياري الفردي لمعرفة الفقراء - ليس صيغة أساسية إسلامية، لإقامة عدالة اجتماعية أو تكافل اجتماعي، أو علاج مشكلة الفقر، بل الإسلام في ذلك فلسفة واضحة، لها أصولها، ولها أهدافها، ولها وسائلها، ولكن، كما قلت في ندوة "الإسلام والعلمانية": إن عبّد الدكتور وجماعته من العلماء والمسلمين واليساريين أنهم لا يعرفون الإسلام، ولا يقررون كتب علمائه القدماء ولا المحدثين، وأننا لن نغلب الدكتور على كتابه "فقه الزكاة"، فما يقع عليه قراءته، وهو من مجلدين، وربما لا يهتم معدته هذا النوع من الكتب، بل أهله على كتب أسهل منها، مثل كتاب:

العدالة الاجتماعية في الإسلام... للمرحوم سيد قطب.

اشتراكية الإسلام... للمرحوم صموئيل السباعي.

المجتمع الإنساني في ظل الإسلام... للمرحوم الشيخ أبي زهرة.

مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام... من كتبنا.

وسيجد أن الإسلام لم يعالج القضية الاجتماعية بطريقة "الإحسان"، كما توهيم، وكما فعلت ذلك أديان وفلسفات أخرى.

وقد حمل الاستاذ المرحوم الدكتور إبراهيم اللبان في بحث قيم له، قدمه لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: لماذا رفض الإسلام فكرة الإحسان، ولم يعد بحثها في رعاية حقوق الفقراء؟

والزكاة ليست - بالضرورة - علاقة مباشرة بين الغني والفقر، كما تخيل الكاتب، بل هي في الأصل تنظيم اجتماعي، تشرف عليه الدولة، فتأخذ هذا الحق المالي من الأغنياء، لتوزع على الفقراء. وهي تنظر ذلك بواسطة جهاز إداري ومالي سماه القرآن "العاملين عليها"، وجعل أجرهم من ميزانية الزكاة نفسها، حتى لا تتعطل الفريضة.

1) راجع ذلك في بحثه ضمن بحوث "المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية" بالأزهر.

وقد نشر المجمع، وانظر كتابا "مشكلة الفقراء وكيف عالجها الإسلام". 

117
ومن هنا تفرق الزكاة في الإسلام، عن الصدقات في الأديان الأخرى، افتراضًا

بناءً، يتغير في عشرة فروع أساسية، أقبسها من كتابٍ «فقه الزكاة».

أولاً: أن الزكاة الإسلامية لم تكن مجرد عمل طيب من أعمال البر، وخلع
حسنٌ من خلال الخير، بل هي ركن أساسي من أركان الإسلام، وشغيرة من
شماره كبير، وعبادة من عبادات الأربع، وفصول بالنفس من منعها، ويجعل
بالكثر على من أنكر وجوبها، فليست إحساناً اختيارياً، ولا صدقًا تطوعية، وإنما
هي فريضة تنتمي بأعلى درجات الإلزام، الخلق، والشرع.

ثانيًا: أنها في نظر الإسلام - حق الفقراء في أموال الأغنياء. وهو حق قرره
مالك المال الحقيقي، وهو الله تعالى، وفرضه على من استخلفهم من عباده فيه،
وجعله خزانًا له، فليس فيها معنى من معاني التفضيل والامتثال من الغني على
الفقر، إذ لا مثا لماين الصدوق، إذا أمرها صاحب المال بصرف جزء من ماله على
عيله.

ثالثًا: أنها حق معلوم، وقدر الشرع الإسلامي صببه، وقادره، وحدوده،
وشروطه، ووقت أداه، وطريقة أداه، حتى يكون المسلم على بيئة من أمره،
ومعرفة بما يجب عليه، وكيف يجب، ومن يجب؟

رابعًا: هذا الحق لم يوكل لضمان الأفراد وحدها، وإنها حملت الدولة المسلمة
مسؤولية جبايتها بالعدل وتوزيعها بالحِق، وذلك بواسطة العاملين عليها، فهي
ضرورة: "تؤخذ«، ولست تبرعًا يمنح. وللذا كان تعبير القرآن الكريم: "خُذَ مِن
أموالهم صدقة (1)، وتعيين السنة أنها "تؤخذ من أغنيائهم".

خامساً: أن من حق الدولة أن تؤدب - بما تراه من العقوبات المناسبة - كل من
يتمتع من أداء هذه الفريضة. وقد يصل هذا إلى حد مصادر نصف المال، كما في
حديث: "إذا أخذوها وشرب ماله".

سادساً: أن أي فئة ذات شوكة، تنحد على أداء هذه الفريضة، فإن من حق

(1) التوبة: 103.
إمام المسلمين - بل من واجبه أن يقاتله، ويعلّن عليه الحرب، حتى يؤدوا حق اللّه، وحق الفقراء في أمولهم. وهذا ما صرحت به الأحاديث الصحيحة، وما طبقه الخليفة الأول أبو بكر ومن معه من الصحابة الكرام (رضي اللّه عنهم).

سابعًا: أن الفرد المسلم مطالب بأداء هذه الفضيحة العظيمة وإعاقته هذا الركن الأساسي في الإسلام، وإن فرضت الدولة في المطالبة بها، أو تقاعس المجتمع عن رعايتها، فإنها - قبل كل شيء - عبادة ينقب بها المسلم إلى ربه، ويركز بها نفسه وماله، فإن لم يطلبها بها السلطان، طالبه بها الإمام والقرآن. وعليه - دينان - أن يعرف من أحكام الزكاة ما يكفي من أدائها على وجه المشروع المطلوب.

ثامنًا: أن حصول الزكاة لم ترك لأهواء الحكام، ولا تشذب رجال الكهنوت - كما كان الحال في اليهودية - ولا لمطاعم الطاعنين من غير المستحقين، تتفقه كيف تساهل. بل حدد الإسلام مصارفها ومستحقيها كما في آيةٍ: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَارَاءِ وَالأَمَامِ السَّاصِرِينَ " (1) -، وكما فصّلت ذلك السنة بدقة ووضوح. فقد عرف البشر من تجاريهم أن المهم ليس هو جلب المال، إنما المهم هو أن يصرف، ولذلك أعلن أن لا يحل له، ولا لأنه منها شيء، وإنما تأخذ من أغنياء كل إقليم، لتعرّف على فقراته، فهي منهم وإليهم.

نinth: أن هذه الزكاة لم تكون مجرد معونة وقبيلة، لسد حاجة عاجلة للفقير، وتخفيف شيء من بؤسهم، ثم تركه - بعد ذلك - لأتباع الفقر والفاقة، بل كان هدفها الفضاء على الفقر، وإغاثة الفقراء وإغاثة دائمًا، لتنشأ شأفة العزوف من حياتهم، ويدرهم على أن يفضوا - وحدهم - ببعض المعنى، وذلك لأنها فرضية دورية ممتقة دائمة الموارد، ومهمتها أن تسر للفقير قوامًا من عيش، لتمائم أو دريمات، كما فعلنا ذلك في مصارف الزكاة، من كتابنا في فقه الزكاة.

عاشراً: أن الزكاة - بالنظر إلى مصارفها، التي حددتها القرآن، وفصلتها السنة، قد عملت لتحقيق عدة أهداف روحية وأخلاقية واجتماعية وسياسية. ولذا
تصرف على المؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغامرين، وفي سبيل الله، فهي
أوسع مدى، وأبعد أهدافًا من الزكاة في الأديان الأخرى.

وبهذه المميزات يضح لنا: أن الزكاة في الإسلام نظام جديد متميز، يغازل
ما جاءت به الديانات السابقة، من وصايا ومواعظ، ترغب في البر والإحسان،
وتحذر من البخل والإمساك. كما أنها شيء آخر، يخالف الضرائب والمعاوضات،
التي كان يجنيها الملك والأباطرة، وكانت كثيراً ما تؤخذ من الفقراء، لترد على
الذين يطلبون الصدقات والمزايا، وتفتق على أمهات الحاكمين وترفههم، وإرضاء أقاربههم وأنصارهم، وحماية
سلطانهم من الرواية.

على أن الزكاة ليس هي الحق المالي الوحيد في أموال الأغنياء، بل هو الحق
الذي ي-et في المال حقًا سوي الزكاة، تضحي وتسع بحسب حاجة
الفقراء، وقدرة الأغنياء.
وفي موارد الدولة كلها تتساءل لتحقيق الكفاية الناتمة للفقراء، حتى يستغنا،
وتثبته لهم ولأسرهم حياة إنسانية كريمة.

بداية الندوة:
وأما المبدأ الثاني، الذي ضرره الدكتور مثلاً على شدة عمومية الشريعة، فهو
بداية الندوة.

ولا ريب أن الإسلام لم يضع صورًا مفصلة للشورى، ولكنه في القرآن الكريم،
الذي يفسر القواعد والأسس للفرد والمجتمع، جعله عنصراً أساسياً من عناصر
الحياة الإسلامية، وصفة ثابتة من صفات المجتمع المسلم، إلى جواز إقامة الصلاة
والإنفاق مما زكى الله، وذئبوا لزيادة أوراقهم وثوابهم ومساءهم شورى
بينهم ومهما رضتهم ينفعون (1).

وفي القرآن المدنى، أمر بها رسول الله ﷺ، يقوله: "وبشاعرهم في الأموٰل"(2).
وإذا كان رسول الله ﷺ مأمورًا بها، وهو مؤيد بالوحي، فغيره أولى أن يأمر بها.

(1) الندوة 38.
(2) آل عمران: 199.
يقول الإمام ابن عطية في تفسيره: «الشريعة من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يشتهر أهل العلم والدين، فعزله واجب، ذاك ما لا خلاف فيه».

وكان أكثر الناس مشاركة لأصحابه، وكان ينزل عن رأيه إلى رأيهم، فيما لم ينزل عليه فيه وحي، كما تدل على ذلك وقائع كثيرة، في غزوة أحد، وغزوة الخندق، وغيرها.

وإذا كان هناك من الفقهاء من قال بأن الشريعة معينة للحاكم، وليست ملزمة له، وإنما عليه أن يستمع إلى الآراء، ثم يبني ما يراه أقرب إلى الصواب منها، وينفذه على مستواه، فإن «تيار الوسطية الإسلامية»، الذي يتحدث باسمه، يرى الالتزام بالآراء الآخرين، وهو أن على الحاكم أن يانتشار وجهًا، ثم ينفذ ما تراه الأكثريّة، إن لم يكن الإجماع.

وقد وضع عمر (رضي الله عنه) مبدأ الأخذ بالأكثريّة في قضية السنة أصحاب الشريعة، حتى في حالة النساوي - ثلاثة إلى ثلاثة - اقترح عليهم مرجحًا من الخارج هو "عبد الله بن عمر "، فإن لم يترضوه، رجح الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

وفي كتاب "الحل الإسلامي فرضية وضرورة" ردت على الذين يقولون بأن الشريعة غير ملزمة لأولئك، مرجحًا الإمام بأدلة واعتبارات، أظهرها:

1. أن هذا يتفق مع ما قره فقهاء الأمة من نسبية أعضاء شورى المسلمين "أهل الحل والعقد"، فإذا كان رأبهم غير ملزم، ويمكن أن يضرب به عرض الخائن، فماذا يحكمون ويعددون؟ وقد قصر "أولو الأمر " في قوله ( تعالى) : "وأولو الأمر منكم" (1) بهؤلاء، فهم الذين يختارون الحاكم أو الأمر، وهم الذين يتركونهم، وهم الذين يعفونهم... إلخ.

2. ما فعله النبي ﷺ في غزوة أحد من الخروج إلى المشركين، نزولا على رأي

(1) انظر: تفسير الرأري، والنيسابوري، والمار، للآلية 59، من سورة النساء.
الأغلبية المتحمسة، وما فعله عمر في قضية السنة أصحاب الشورى، من التزام رأى الأكثريَّة العدَّة، واعتبار عبد الله بن عمر مرجحًا، إذا افترقا إلى ثلاثة وثلاثة. إلخ، وإقرار الصحابة لذلك، كل ذلك دليل على أن الشورى ملزمة، وكان رأي الأغلبية معتبر.

(3) ما ذكره ابن كثير في تفسيره، نقلًا عن ابن مددبه، عن علي مرفوعًا، في تفسير العزم في قوله تعالى: «وليشاورهم في الأمر، فإنما عزمتُ فتولِكُم على الله» (1). قال: العزم مشارحة أهل الرأي، ثم اتباعهم.

(4) أن الاستشارة من غير التزام يرأى المشوريين، ولو كانوا جمهور الأمة، أو أهل الحل والعقد فيها، يجعل الشورى شبه مسرحية، يضحك الحاكم المستسلم بها على الناس، ثم ينفذ ما في رأسه هو.

(5) أن تاريخ الإسلام في الماضي البعيد والحاضر القريب، ينطق بأن الاستبداد بالرأي هو الذي قوض دعائم القوة والخير، في حياة المسلمين، وجر الألفاظ على أن يعبثوا بمقدرات الأمور، كما يشعرون، دون أن يخشوا شيئًا، أو توجه إليهم كلمة؛ لأنهم غير ملزمين بشورة أحد أو رأيه.

(6) أن الإنسان - بطبيعته - ظلوم جهول، ورأى الفرد لا يؤمن انحرافه، لغبية الهوى، فيظلم، أو غلبة الجهل، فيضلل، ول لهذا كان رأى الاثنين أقرب إلى الصواب، وإلى العدل والعلم، من رأي الواحد، وإن كان الخطأ من الجميع محتملاً.

(7) أن الأغلبية، التي تشير بالرأي، تحمل مسؤوليَّة، وتتقبل نتائجه، أيًا كانت، وهذا ما يجعل الآمة شريكة الحاكم، في الصواب والخطأ، والخير والشر، ويجعل فيها معانى القوة، والكرامة، والإحسان بالذات، ويبردها على أن تقول: «لا يملأ فيها، وتلزم بها.

(8) أن الالتزام بشورى الأغلبية، وإن كان فيه خلاف، ينبغي أن يكون موضوع اتفاق اليوم، إذا تراست عليه جماعة ما، وتشارحوا على الأخذ بهذا الرأي.

(1) آهل عمران: 159.
فهنا يرتفع الخلاف، ويصبح واجباً على الجميع أن يتخذوا لأنه نوع من الوفاء بالعهود، التي أمر الله برعايتها. وفي الحديث المسلمون عند شروطهم.

أما عدم وضع الصيف النصيحة، فذلك لحكمة، ذكرها حكّام الإسلام في هذا العصر. يقول العلامة رضي الله عنه في تفسير آية (وَأَعْمَلُواْ فِي السَّيِّئَاتِ مِنْ دُونِهِم) في الأمر (1) : «الحكم والأسباب التي جعلت النبي ﷺ لم يضع نظاماً مفصلاً للشريعة، جميلة أسباب.

منها: أن هذا الأمر يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية، في الزمان والمكان، وكانت تلك المرة القليلة، التي عاشت ﷺ بعد فتح مكة، بدأ الدخول الناس في دين الله أفواج، وكان ﷺ يعلم أن هذا الأمر سينمو ويزيد، وأن الله سيفتح لامته الملك، ويضخع لهم الأمم، وقد بشرها بذلك، كله هذا كان مانعاً من وضع قاعدة للشريعة، تصلح للأمة الإسلامية في عالم الفتح، وما بعده من جيزة النبي ﷺ، وفي العصر الذي يلتوى عصره، إذ تفتح الملكة الوراعة، وتدخل الشعوب التي سبقت لها المدنية في الإسلام، أو في سلطان الإسلام، إذ لا يمكن أن تكون القواعد الموفقة للكثير من الزمن، والمنطقة على حال العرب في سماحتهم، منطقة على حالهم بعد ذلك، وعلى حال غيرهم. فكان الأحكام أن يترك ﷺ وضع قواعد الشريعة للأمة، تضع منها، في كل حال، ما يليق بها بالشريعة.

منها: أن النبي ﷺ لم يضع قواعد مؤلفة للشريعة - بحسب حاجة ذلك الزمن - لان تخذل المسلمون دينًا، وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان، وما هي من أمر الدين، ولذلك قال الصحابة في اختيار أبي بكر حاكماً: رضيه رسول الله ﷺ لدتنا، ألا نرضه لدينا؟ فإن قيل: كان يذكر فيها أنه يجوز للأمة أن تنصرف فيها عند الحاجة بالنسخ والتحديث والتعديل، نقول: إن الناس قد اتخذوا كلامه ﷺ في كثير من أمور الدنيا دينًا، مع قوله: "أنت أعلم بأمر ديناك، رواه مسلم. وقوله: "ما كان من أمر دينك إلاي، وما كان من أمر
فأنتم أعلم به روا أحمد، وإذا تأمل المنصف المسألة حق التأمل، وكان من يعرف حقيقة شعور طبقات المؤمنين من العامة والخاصة في مثل ذلك، يجعل له أن يضع على أكثر الناس أن يرضوا بتغيير شيء، وضعه النبي للامة، وإن أجاز لها تغيره، بل يقولون: إن أجاز ذلك تواضعًا منه، وتهذيبًا لنا، حتى لا يصعب علينا الرجوع عن آرائنا، ورأيه هو الرأي الأعلى في كل حال. 

• تفسير البشر وتطبيقهم للشريعة، لا ينفي إلتهبها:

وأما السبب الثاني، الذي اعتمد عليه د. فؤاد زكريا، ليقول: إننا لسنا إزاء اختيار بين حكم إلهي وحكم بشري، فهو أن النص الإلهي لا يفسر نفسه بأنه، ولا يطبق نفسه بنفسه، وإنما يفسر البشر، ويطبقه. وفي عملية التفسير والتطبيق البشري هذه، تندرج كل أهواء البشر ومصالحهم وتعزيزهم... إلخ.

ولكن أن تعجب أيها القارئ، ما شاء لك العجب، من هذا المكان، القائم على المغالطة المكتشفة.

فالتفسير لأي نص كان، تحكمه أصول تضبطه: من اللغة، والعرف، والعقل، والتقال.

فكيف نقص إلهي معجز، بالغ ذروة البيان والتيسير للذكر والفهم؟! تقرأ الله آيات الكتاب المبين: إن أنزلناها عربًا عربًا لعلكم تعلمون (1). فإنما يسرنا بسانتك لعلهم يتذكرون (2). ولقد يسرنا القرآن لذكر فهله من مذكر (3).

إن معنى كلام أستاذ الفلسفة أن الإلهي يقلب بشريا، يجرد تفسيره وتطبيقه من البشر: أنه لا قاندة من أن ينزل الله كتابًا لبداية البشر، ولا أن يلزمهم بمنهج يتعونه، ولا بأحكام يأتيهم بواجبها، ينتهون بنواحها؟! لأن هذا كله سيفقد ربابته وأصله الإلهي، إذا فسر البشر وطبقوه، ولا بد أن يفسر البشر وطبقوه!!

(1) يوسف: ١ (٢) الدخان: ٥٨ (٣) القرآن: ١٧.

١٢٤
أهذا كلام يا أولي الألباب؟ لما أنزل الله كتبه، وبعث رسوله إذا!؟ لما قال الله عن كتابه: { إن هذا القرآن يهدى للبئس إلى أفضل } (1)؟ لما قال: { وahn احكمين بينهم بما أنزل الله ولا تطيع أهواءهم وأحذرهم أن يفقنوك عن بعض ما أنزل الله إليك } (2)؟

اذا قال الله تعالى: { ولكم نصف ما تركوا أرواكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم ربع من ما تركتم من بعده وصية بوصون بها أو دين، ولهن ربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعده وصية بوصون بها أو دين } (3) وفسنا هذه الآية، أو هذا الجزء من الآية، بما هو معروف في كتاب التفسير والفرائض، وطبقناها بما هو معلوم من قواعين الأسرة أو الأحوال الشخصية - تكون هذه الأحكام قد فقدت نسبها إلى الله، الذي شرعها، وأنزلها في كتابه المبين؟

ولنأخذ مثلًا آخر من النصوص، التي تحمل أوجها من التفسير في جزئياتها، يقول الله تعالى: { والساق والسارقة فاقتعدوا أبدًا بما كسباً كثالًا من الله وله رزى حكيم } (4).

هذا النص القرآني جاءت السنة، فحدثت بعض معانيه، ووضحتها. حدثت المراد بالسارق الذي تقطع بده، وأنه من سرق من حرز، فلا قطع على من أخذ من الخفق، وأنه من سرق لغير حاجة، فلا قطع على من سرق طعاماً لا كله، وأنه من سرق مالاً له قيمة، فلا قطع، فيما دون نصاب معين.

كما بنيت أن القطع يكون عند الرسغ، وأن الحدود تدرو بالشبهات، ولي قال الإمام أن يدروا الحد بالتوية.

ولا شك أن بعض هذه الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال.

<table>
<thead>
<tr>
<th>المادة</th>
<th>49</th>
<th>الإسراء : 9</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td></td>
<td>38</td>
<td>النساء : 12</td>
</tr>
</tbody>
</table>

125
ولهذا اختفت فيها المذاهب، وتعددت الأقوال، وفي هذا سعة ورحمة، ولكن
بيقي الأصل، الذي لا نزاع فيه، وهو وجوه المحقق، عندما تستوفي الجريمة،
أركانها وشروطها، وتنتفى الشبهة عنها، وفي هذا ورد الحديث المنفِق عليه وأيم
الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرت، لقطعت يدها منفِق عليه.
وقد أطلق د. فؤاد زكريا الكلام في هذا الموضوع، وكرره، يحسب أنه
بالإلحاح والتكرار، يجعل من باطله حقاً، وهيهات.
إن الله أحكام وشرائع، جاء بها كتابه، وبينها رسوله، وطبقها خلفاؤه،
وفصلها فقهاء الأمة، وعمل بها المسلمون قرونًا متضاوَلة، قبل أن يدخل الاستعمار
أرض الإسلام، انفروا على بعضها، واختلفوا في بعضها، ولكنهم لم يختلفوا
يوماً في أن الله شريعة، يجب أن تحكم، وأحكامه يجب أن تطلع، ومنهاج يجب
أن يتبوع، وأنه إذا لم يتبوع حكم الله، سقط في حكم الجاهلية أحكم
الجاهلية، يغونٌ، ومن أحسن من الله حكمٌ لا يقوم بوقعُهٔ (1).
وهذا الإجماع التاريخي، يؤديه اليوم إجماع جماهيرى من أبناء الأمة الإسلامية،
بوجوب الرجوع إلى شريعة الله، وتحكيمها كما أمر الله، والتبحر من شرائع
الطاغوت، أو الاستعمار، التي فرضها أيام سلطونه وسلطانه على الأرض،
والناس في ديار الإسلام.
فإن هرب الدكتور، وأين المفرق؟ من إجماع الأمة، أو إجماع اليوم؟ كلاً
لا ورزَّ إلى زلِّك يومًا مُستمِّرًا (2).
ويقول الدكتور: إنَّ إجود تعبير "الحكم الإلهي" تعبر عن متناقضًا، لأن البشر
هم دائمًا - الذين يحكمون، وهؤلاء الذين يحكمون أية شريعة إلهية إلى نهية
بشريَّة، ثامنًا كما يطبق الحكم - في الغالبة الساحقة من الحالات - أحكام
destor، ويفسرها على النحو، الذي يخدم أغراضه ومصالحه.
ونقول للدكتور: إنَّك لو حددت مفاهيم الألفاظ كما ينبغي، ما وجدت مجالًا
للتفاقم بأي وجه من الوجوه.

(1) القياسة: 11، 12
(2) القياسة: 500
المادة: 126
فالحكم الإلهي - وهو التعبير الذي اختاره أنت - لا يعني السلطة الإلهية، فإن
يعني التشريع الإلهي الأصول، بما فيه من قطعي وظني، ومتفرق عليه، ومختلف
فيه. أما السلطة فهي للبشر، فهم الذين يحكمون ويبدون.

وقد ذهب قوم من الخوارج - قديماً - إلى إنكار حكم البشر، حين أنكروا على
الإمام على ( رضي الله عنه )، قبول التحكيم بينه وبين معاوية، فقالوا كلمتهم
الشهيرة: "لا حكم إلا الله"، فكان تعليق على ( كرم الله و وجهه )، الشهير أن
قال: "كلمة حق، براد بها باطل!"

وقد حاورهم ابن عباس، مبينًا أن تكريم البشر أمر لا مفر منه، وهو ما جاء به
القرآن في أبسط الأمور، مثل التحكيم في الخلاف بين الزوجين، "يَعْتَقَدُونَ حُكْمَهُ
من أهله وحكمًا من أهلها" (1). والتحكيم في جزء قتل صيد الحرم "يَعْتَقَدُ
به ذو عدل منكبه" (2).

فليس معنى الرجوع إلى "الحكم الإلهي" أن الله جل شأنه الذي يحكم
بذاته، أو ينزل ملاكية يحكمون الناس، إنما معنى الرجوع إلى شرع الله تعالى
بإقام الواعلي، وحرم ما أحل، وحريما ما حرم، وإباح ما أوجب، واستحباء ما أحب،
الاستمرار بما أمر، والانتهاء عمما نهى، والوقوف عند حدوده "فمن يتعبد حدود
الله فقوله هم الظلامون" (3).

- التكرار المعلم:

على أن تيار الوسطية الإسلامية، يستخدم كلمة "الحكم الإسلامي" لا "الحكم
الإلهي"، حتى لا يساء تفسيرها خطأ أو وقد، كما يفعل الدكتور زكريا،
محامي العلمانية.

وها نحن نراه - على عادته في الإلحاح على الدعاوى الباطلة، وتكرار الحديث
عنده بأسلوب أو بآخر، عسى أن تتعلق بعض الأذهان من طول تكرارها - يعود إلى
موضوع التشكيك في مصدرية الشريعة، وهي أن أصولها من عند الله، فيردها إلى

(1) البقرة: 229
(2) المائدة: 95
(3) النساء: 35
البشر، ويذكر نسبها الإلهى، مختلطةًا بذلك العقل والنقل، والتاريخ والواقع،
كان الله لم يبعث بها رسولًا، ولم ينزل بها كتابًا.

يقول فؤاد زكريا في مقدمة كتابه عن "الحركة الإسلامية":
"إن دعاء تطبيق الشريعة، يرد دون عبارات ذات تأثير عاطفي هائل على
الأجايب، ونتيجة لهذا التأثير العاطفي، تمر هذه العبارات دون أن يتوقف أحد
مناقشتها، وتتنافلها الألسن محتشماً بحتها للهلمين، حتى تشع بين الناس،
وكأنها حقائق ثابتة، مع أنها في حやすく التحليل العقلي، عبارات مثيرة
بالغموض والحلق. قال: وسأذكر من هذه العبارات بالمنتين: الحكم الإلهى في
 مقابل الحكم البشرى، وصلاحية أحكام الشريعة لكل زمن ومكان.

أما القضية الأولى: هي الحكم الإلهى في مقابل الحكم البشري، فنحن نعترض
على هذا التعبير، الذي يصر عليه الكاتب ويكبره، فنحن إذا ندعو إلى الحكم
الإسلامي، وهو حكم يقوم به البشر، مستندين إلى الشرع الإلهى. فالحكم
للبشر، والشريعة من عند الله.

فما بالدكتور لا يستعمل إلا عبارة "الحكم الإلهى"، التي توجيه بأنه حكم
يقوم على دعوى "الحق الإلهى"، وأنه حكم "الكهنة"، الذين يحكمون في
ضمان الناس، وما هلوا في الأرض، فهو محله في السماء؟
إن السر في اختيار هذا التعبير "الحكم الإلهى"، ما ذكره الكاتب نفسه في
موقع مشاهد: أنه تحريف بهدف إلى خلق خصم وهمي، حتى يسهل توجيه النقد
إليه.

ولقد أحسن الكاتب اللامع المعروف الأستاذ فهمي هودى، حين كتب في
صحيفة الأهرام (186/10/1) مـ: تحت عنوان "أكذوبة الحكم الإلهى"،
قال:
"تعترض فكرة الدولة الإسلامية لعملية إغتيال معنوي، باشرها العلمانيون
المتطوفون، واستخدموا فيها - غير الاجتهاد والاجتهاد- مختلف أساليب التدليس
والترويج، إذا حاولوا أن يثبتوا في الأذهان، أنها دعوة إلى "الحكم الإلهى" محملة
بكل شرور تلك الصفحة السوداء من تاريخ التجربة الأوروبية في العصور الوسطى.
وفي مختلف كتاباتهم وحواراتهم، فإنهم ما اتفقوا يدلون على عقولنا أفكارًا وصياغات، تضفي على التطبيق الإسلامي مختلف صفات الكراهية والنفور، فهو عندهم يقبل الحق الإلهي، ويباشر بدعوى التفويض من الله، ويتخلى بقناعات العصمة والقداسة، ويحل الحكم إلى كهونوت، يحتكره القابضون على «آسارة الشرعية» القائمون على السلطة الدينية، وهم في ذلك كله، ما كانوا يحتجون علينا بتاريخ، لم يثبت لنا في أرض، ويخفونا بعاقبته، لم نتدخل لنا بيتاً، وصطنعون أوهامًا وكوابيس، ما أنزل الله بها من سلطان، لا في ماضي المسلمين، ولا في فكرهم، ولا في تعاليم دينهم.
على أننا إذا تساهلنا، وقبلنا تغييره عن الحكم الإسلامي المشروّد، بالحكم الإلهي، فماذا يقول في رده؟
إنه يذكر: أن مهمة الحكم، أصبحت بشرية، وستظل بشرية، حتى لو كانت الأحكام التي يرجع إليها إلهية، فإن وجود النصوص الإلهية، لا يحل دون تدخل العنصر البشري، في اختيار النصوص، وفسيرها بما يرضى مصالح الحكم.
يربد. زكريا أن يثبت عدم جدوى النصوص الإلهية، ما دام البشر، هم الذين يفسرونها، والذين يطبقونها.
ويضرب الدكتور هنا مثلاً - للتدليل على دعوة - بالدستور والمبادئ الدستورية، واستطاعة الحكم أن يتلاعبوا بها، ويضربوا بها عرض الخاطف، فاسمي المبادي الدستورية - كما يقول - لا يقول دون قيام حاكم طاغية باضطهاد رعيته، ونشر الروع والظلم بينهم، وبالأصل فإن أوره التشريعات السماوية لا تمنع - ولم تمنع طوال التاريخ - من وجود حكام مستبددين، يتلاعبون بها كما يشاءون، ويفسرونها على هواهم...

١٢٩
(م ٩ – الإسلام والعلمانية)
ونقول للدكتور زكرياّ: إنك - دائمًا - تستدل بما ينقلب في النهاية عليك، فإن تلاعب الحكام بالدستور، والمبادئ الدستورية، وتفسيرها على هواهم، ليس مبرراً - أبداً - للمناداة بألغاء الدستور، بل إن الشعوب ودعاة الحرية دائمًا - يخوضون معركة بعد معركة - من أجل الدستور، يجاهدون ليعود الدستور، إذا ألغى، ويجاهدون حمايته، إذا عاد; حمايته من سوء التفسير، ومن سوء التطبيق، وسوء الاستغلال.

* * *

130
صلاحية الشريعة

لكل زمان ومكان

يقيس د. فؤاد زكريا بعبارتين، يضعهما، كما قرأهما في كتاب أو سمعهما من محاضر، وهو يزعم أن لهما تأثيرًا عاطفيًا هائلًا على المجاهير، ولكنها لا تثبت لمناقشة العقلية! والحمد لله. قد ناقشها في أولهما - وهي رياضية الشريعة، ونسبتها إلى الله - بما كشف عن تفاصيل أدلته، وسقوط حجمه.

أما العبارة الثانية، التي يضيق بها صدر محامي العلمانية، فهي صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان. يقول الكاتب: أنا أشك كثيرًا - في أن يكون هناك نص ديني مباشر، يحمل المعنى، الذي تفهم به هذه العبارة، لدى القائلين بها، واعتمد أن التفكير في هذه العبارة بشيء من التعمق، يكشف فيها عن تناقضات أساسيين:

الأول: يرجع إلى أن الإنسان كائن متغير، ومن ثم ينبغي أن تكون الأحكام التي تنظم حياته متغيرة، والحق أن تغير الإنسان حقيقة أساسية لا يستطيع إنسان يحكم عليه، مع أنه كان يعرف التنوير، التي يحاسب عليها متغيرة بدورها، فالعقل السليم، والمبشر، يأتي أن يكون هناك في المجال البشري ما يصح لكل زمان ومكان، ما دام الإنسان ذاته قد أثرت عليه تغيرات أساسية في الزمان، منذ العصر الحجري حتى عصر الصوايف، كما طرأت عليه تغيرات جوهرية في المكان، ما بين بيئة الجزر الاستوائية البدائية، وبين المدن الصناعية الشديدة التقدم.

أما التناقض الثاني: الذي يتصل بالأول اتصالًا وثيقًا، فهو أن التفسير المباشر لعبارة هذه، وهو التفسير الأكثر تداولاً بينهم، يعني الحفظ على الإنسان والحكم عليه بالمجدد الأبدى، فالمعنى المباشر لعبارة هذه هو أن الله قد وضع للناس في وقت ما، سنن ينبغي عليهم أن يسروا وفقًا لها، إلى أبد الدهر، وأقصى ما يمكنهم أن يتصوروا فيه هو أن يجدوا في تفسير هذا النص أو تأويل ذلك، ولكن الخطوط العامة لمسار البشرية اللاحق كله مرسومة ومحددة.

١٣١
والتناقض هنا يكمن في أن أصحاب هذا الفهم يؤكدون، في الوقت ذاته، أن الله قد استخلف الإنسان في الأرض، وكرمه على العالمين، فهل يتمشى هذا التكريم والاستخلف مع تحديد المسار البشري مقدماً، وضع قواعد يعين على الإنسان آلا يخرج عنها، مهما تغير وتطور؟ هل يمكن أن يلجأ الآب الخريص على رعاية ابنائه وسلامة موهوم العقل والنفس، إلى وضع قواعد ثابتة وأوامر محددة، لا يجدون عنها طوال حياتهم؟ 

والحق أني ما رأيت مثل الكاتب المذكور في اجتهاده على التشكيك في الحقائق القاطعة، يريد أن يجهلها إلى أمور محتملات، قابلة للأخذ والرد، والبذل والشد.

وهذه لعبة ماهرة من لعب العلمانيين وخصوص الإسلام، يحاولون جر المسلمين إلى التسليم بها، فتنقلب القطاعات إلى ظنيات، والمحكمات إلى تشبيهات.

ومن هذا المنطلق، يشكي الكاتب في وجود نص ديني مباشر، يدل على صلاحيات الشريعة لكل زمن ومكان.

يا عجبًا! هل يحتاج مثل هذا الأمر الخطير إلى نص جزئي؟ إن هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، وإلا فما معنى أن النبوة ختمت بمحمد ؛وأن الكتب ختمت بالقرآن، وأن الشرائع ختمت بالإسلام؟

إذا قال الله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصَّيْامُ (1) ، أو "كُتِبَ عَلَيْكُمُ التَّضَيُّعُ (2) ، أو "أَنْتُوْاَ اللَّهَ وَذُوْاَ الْرَّيْبَ (3) وَيَوْصِيَكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ (4) ، لَيْكَ ذِمَّةُ الرَّأْبِينَ (5) ، هل أَنزَلَ هَذَى الْأَحْكَامَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (6) أو جَمِيعًا ؛ ثُمَّ يَأْتِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي نَفْسِهِمْ ما شَرَعَ اللَّهُ بِأَوْحَاهُمْ ؛ يَقُولُونَ: هَذَا قَدْ أَنتَهِي أَمْثَلًا؟"

وعند أي جيل تتوقف أحكام الشريعة؟ وما الذي يفرق جيلاً عن جيل؟

(1) ، (2) ، (3) البقرة: 183 ، 178 ، 278. (4) النساء: 11.
إن الأصل في أواخر الله وأحكامه هو الثبات والبقاء، حتى ينسى الله ذاته بشرع آخر، إذ لا يملك بشر سلطة فوق سلطة الله، حتى يلغى أحكامه. ولا شرع الله بعد محمد.

إن شريعة الإسلام عامة خالدة، هذا من القطعيات الضرورية، ولكن الدكتور - بذكائه ودهائه - كثيرًا ما يدفعنا إلى توضيح الوضعيات، والتدليل على الضروريات!

فانعدى إلى مناقشة ما اتكرأ عليه من شبهات، يستدل بها على دعوات العريضة.

استدلالات منقوذة:

اعتمد قادم في رفضه لصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، على أمرين: أثنتاهما، بعبارة بحورها، حتى لا تنتجى عليه.

خلاصة الأمر الأول: أن الإنسان جوهره التغير، فلا تصلح له شريعة جوهرها الثبات.

وهنا أقول للكاتب: لقد أخطأت في القضيتيين كليهما، فلان الإنسان جوهره التغير، ولا الشريعة جوهرها الثبات.

حقائق كبرتان:

وقبل أن آين خطأ الكاتب في دعويه، أريد أن ألفت النظر هنا إلى حقائق كبرتين.

الأولى: أن منطق الإمام يرفض رفضًا كليًا مناقشة ما أثاره الدكتور من دعاوى.

فالسلاطين الذي رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبحكم رسولاً، وبالقرآن إمامًا، لا يتصور منه أن يناقش مبدأ صلاحية الأحكام التي شرعها له ربه وخلقه، لهدايته وتوجيهه إلى التي هي أقوم، لأن معنى هذا أن المخلوق يتعلم على الحقائق، وأن العبيد يستدرك على ربه، وأنه عرف نفسه، وبالكون، وبالحياة من حوله، من صنع الكون، وواهب الحياة، وباريء الإنسان.

فالسلاطين لا يتناقش - يحال - مبدأ صلاحية الشريعة، أو النصوص الإلهية للتطبيق والعمل في كل زمان ومكان ؛ لأن هذا يعني مراجعته للإسلام ذاته، أهو من عند
الله أم لا؟ وهذا أمر قد فرغ منه كل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أيقن بها قلبه، ونطق بها لسانه.
إذاً ينافس المسلم في بعض الأحكام والزكاة؟ هل هي من عند الله أم لا؟ هل صحت نسبتها إلى الله، بأن جاءت في محكم كتابه، أو تثبت على لسان رسول الله؟
وإذا تبت النص، أمك مناقشة، ما استنبت منه من حكم، أم هو من القطعيات المجتمعة عليها، أم من الظنيات القابلة للاحتفال والاختلاف؟
والحقيقة الأخرى: كنت تثبت عليها من أكثر من عشرين سنة، وهي ما يريده خصوم الإسلام من تشكيك في المسمى المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وذكر ذلك في كتابي 5 معاصرة 4 ميما أن هناك مؤامرة فكرية، تريد تدويل الحدود بين القطعيات والظنيات. وقلت في الرد على المتلاقيين، الذين يحاولون أن يشككون في تحريم أم الحجات:
«إن من أعظم الفتن تحويل الأمور القاطعة إلى أمور محتملة، وجعل الأمور المجتمعة عنها، أمورًا متناقضة فيها، وهذا يصدق بوضوح على تحريم الخمر، الذي أجمع عليه الأمة الإسلامية جيلاً بعد جيل، وأصبح معلومًا من دين الإسلام بالضرورة، بحيث لا يحتاج إلى مناقشة ولا دليل، كوجوب الصلاة، والزكاة، وكحرة الزنا، والربا.
ومن الخطر أن نتفاحن المفاهيم، الذين يريدون أن يجعلوا كل شيء في الدين - حتى الأصول والضرورة - محل بحث وجدال، وقيل وقال، وقد أجمع العلماء على أن من أكبر أمر معلومًا من الدين بالضرورة، ولم يكن محدث عهد بالإسلام، ولا ناشتاً بادية أو بند بعيد عن دار الإسلام، فإنه يكفر بذلك، ويرق من الدين، وعلى الإمام أن يطلب منه التوبة والإقلاع عن ضلاله، ولا طبق عليه أحكام المرتدين»  

(1) 5 معاصرة 6 ص 558.

134
ولهذا كان الأصل أقلًا أشتغل بالرد على دعاوى الدكتور ف. زكريا، بالتشكيك في المسلمين القطيعة عند المسلم. ولكن تنازلت عن موقع الأصل، وتشددت بالرد "تبرأًا" كما يقول علماء الباحث والمناظرة في تراثنا، ومن باب "إرباء العنان للخصم، كما في قوله تعالى: "قل إن كان للرحمن ولد فأنه أول العابدين" (1). وقوله: " وإنْ أَوْ إِيَامْ أَمَّا أَعْلَى هُدَى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مَّيْنَ" (2).

• الإنسان بين الثبات والتغيير:

بعد هذا البيان الواجب، أعود مثيرًا للرد على مقولة محامي العلمانية: "أن الإنسان متغير، والشريعة ثابتة" وهو ما قلت: إنه أخطأ الصواب فيه في القضتيين معاً.

أما الإنسان، فليس صحيحًا أن جوهر التغير، ويُعسف أن يُصدق هذا من أستاذ فلسفة! إن من يقول ذلك ينظر إلى الإنسان نظرة العوام، الذين يكتفون من الأمور بما يطفو على السطح، ولا ينافذ بصائرهم إلى الأعمق، وتركز أعينهم على الأعراض، ولا يخلصون إلى الجوهر.

قد ينظر هؤلاء إلى إنسان اليوم، وقد قرب البعيد، وانقط القلوب، وحطم الرؤوس، وأخذت ثورة في البيولوجيا، وصنعت القلوب، والآلات، وراح الأموات، ويرتدون النسيان في النسيان، الذي لم يكن وذلك غير جلبه يمشي عليهما، أو دابة يركبها، أو مرتكبًا شرعيًا يسبح عليه، تقاذاه الرياح والأمواج، ولم يكن يستطيع علاج نفسه، إلا بالاعشاب والكحلي بالنار.

أجل، قد ينظر هؤلاء إلى إنسان أمس، وإنسان اليوم، ويقولون: ما أعظم ما تغير الإنسان!

ولكن بالرغم من هذا التغير الهائل، الذي حدث في دنيا الإنسان، هل تغيرت ماهيته؟ هل تبدلت حقه؟ هل استحال جوهر إنسان العصر الذري عن

(1) الزخرف: 81 (2) سيا: 24

135
جوزر الإنسان العصر الحجري؟ هل يختلف إنسان أواخر القرن العشرين يلاتد تنزيله عن إنسان ما قبل التاريخ؟

أما عن جوزر الإنسان ، لا عما يأكله الإنسان ، أو عما يلبسه الإنسان ، أو عما يسكنه الإنسان ، أو عما يركبه الإنسان ، أو عما يستخدمه الإنسان ، أو عما يعرفه الإنسان من الكون من حوله ، أو عما يقدر عليه من تخدير طاقاته لصفته.

لقد تغير - بالفعل - أكبر التغير ماكان الإنسان ، وملبسه ، ومسكنه ، ومركبه ، وآلهة ، وسلامه ، كما تغيرت عرفته للحياة ، وإمكاناته لتخديرها ، ولكن الواقع أن الإنسان في جوزر وحقيقته في هو الإنسان ، منذ عهد أبي البشر آدم إلى اليوم ، لم تبدل فطرته ، ولم تغير دوافعه الأصلية ، ولم تبطل حاجاته الأساسية ، التي كانت مكونة له في الجنة ، وأصبح عليه بعد هبوطه منها أن يسعى لإشباعها ، وهو الذي أشار إليها القران في قوله تعالى : "إنَّكَ لَأَلَّا تَجَوَّعْ فيَّ وَلَا تَخَطَّـيَّ" (1).

إن الإنسان من القرن العشرين أو الحادي والعشرين ، أو ما بعد ذلك ، لا يستغني عن هداية الله المتمثلة في صيامه وأحکامه ، التي تضبط سيره ، وتخطف عليه خصائصه ، وتجمعه من نفسه وأهوائه.

سيظل الإنسان في حاجة إلى العقيدة ، التي تعرفه بصر وجوده ، وإلى العبادات ، التي تغذى روحه ، وتسكع بريته ، وإلى الأخلاق والفضائل ، التي تزكي نفسه ، وتقوم سلوكه ، وإلى الشرائع العملية ، التي تقيم الموازين القسط بينه وبين غيره.

سيظل الإنسان - وإن صعد إلى القمر ، أو ارتفى إلى المريخ - في حاجة إلى قواعد رياضية تضبط مسيرته ، وتحكم علاقته ، تامריש بالمعروف وتنها عنه المنكر ، وعمل له الطيبات ، وتحرم عليه الخبائث ، تلزمه بعمل ما ينفعه ، وتحجب ما يضره ، تأميش بالعدل والإحسان وإزالة ذي القربى ، وتهيئة عن الفحشاء والمنكر والبغي.

سيظل الإنسان في حاجة إلى تعريب الربا ، وتحريم الخمر والمسر ، وتحريم الزنى.

(1) ظه : 118 ، 119 .

136
والندوذ، وحرم السرقة والرشوة، وأكل أموال الناس بالباطل، وحرم الظلم بكل صوره وأنواعه.

سيظل الإنسان في حاجة إلى توثيق صلته بربه بإقام الصلاة، وصلته بالناس من حوله، بإيابة الركاك، وصلته بالكون بالبحث، والعملة للأرض.

سيظل الإنسان في حاجة إلى راعي برضه، إن هو تعدي حدود الله، أو عدا على حقوق الناس، في أنفسهم، أو أعراضهم، أو أمواتهم. وصعود الإنسان إلى الكواكب، وعُزوَّ النضوء، لا يعنيه من العقوبة، بل ربما يؤكدها؟ لأن النعم التي تغمره من فرنه إلى قدمه، والإمكانات المسخرة له بأمر ربه، لا تجعل له عنفًا، بل توجب عليه مزيدًا من الشكر لربه، والإنسان إلى ذلبه.

إذا نبت هذا، فلا معنى لقول الكاتب: "إذا العقل، الذي توصل إلى أن الإنسان كائن، جوهره التغيير، ليس من صنع الشيطان، وعلى القائمين بصلاحية النصوص لكل زمان ومكان، أن يعرفوا بأن العقل الذي خلقه الله للبشر، والعلم الذي حضمه عليه، ودعمه إلى النزور به، هو نفسه الذي كشف عن حقيقة التغيير الأساسية، التي لا تقلت منها أيها ظاهرة بشريه". زين الكاتب غلاف كتابه بهذه العبارة مزهوا بها، وكأنه اكتشف حقيقة كانت غائبة.

والحق أن الكاتب - على عادته دائمًا - لا يتبدل بشيء يتوهمه حجة دائمة، إلا انقلب في النهاية عليه؛ لأن حجمه كلها - إذا ساهمنا في تسيمها حججًا - أو هي من بيت العنكبوت، "وَإِنَّ أُوْهَنَ الْيَبِيْنَ لِبْيَتِ العْنْكَبَوْتِ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (1).

ونحن هنا نقلب على الكاتب حجته لتصدق وتوافق الواقع، فنقول: إن العقل الذي توصل إلى أن الإنسان كائن جوهره التغيير، ليس من صنع الشيطان، فلذاي تغيير في الإنسان هو العرض لا الجوهر، هو الصورة لا الحقيقة، وعلى هذا الأساس تتعامل معه نصوص الشريعة الحالية، تشرع له،

(1) العنكبوت : 41.
وثَفَّضَ في الثابت، الذي لا يتغيّر من حياته، وتسكت أو تجمّل فيما شأنه التغيّر.
وعلى المشكّبين في صلاحية نصوص شريعة الله لكل زمان ومكان، أن يختاروا
بأن العقل الذي خلقه الله للبشر، والعلم الذي حضّهم عليه، ودعاه إلى التزود
به، هو نفسه الذي كشف عن حقيقة الشبات في جوهر الإنسان، إلى جوار ظاهرة
التغيّر، التي تتعلّق بالجانب العرضي من حياته.

الثبات والمرنة في شريعة الإسلام

أما ما ذكره الكاتب عن الشريعة الإسلامية ومن جوهرها الشبات، فقد أخطأ فيه
الحق أيضاً. فإن الإسلام، الذي ختمه الله به الشروائع والرسائل السماوية، أوعى
الله فيه نصّة الثبات والخليفة، وعنصر المرنة والتطور، معاً، وهذا من وروائع
الإعجاز في هذا الدين، وآية من آيات عرشه وخلوده، وصالحته لكل زمان وكل
مكان.

ويسعّط أن نحدد مجال الثبات، ومجال المرنة، في شريعة الإسلام، ورسالته
الشاملة الخالدة، فقوله:

إنّ الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والآساليب.

الثبات على الأصول والكيالات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشروط الدونية والعلمية.

ومما سأل سائل: لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟! لماذا لم يودع الله المرنة
المطلقة أو الثبات المطلق؟!

والجواب: أن الإسلام بهذا، يتسم مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبّية
الكون الكبير عامة. فقد جاء هذا الدين مسبقاً لفترة الإنسان وفترة الوجود.
أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها؟ ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر
مرنة ثابتة للتغيير والتطور، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وإذا نظراً إلى الكون من حولنا، وjetsنا اطروها ثابتة، تمضي ألوان
الثنيين وألوان الألوف، وهي هي: أرض وسماه، وجبل وبحار، وليل ونهار،
وشمس وقمر، وقوم سنة من سنوات بأمر الله، كل في ذلك يسهمون.

١٣٨
وفيه - أيضًا - عناصر جزئية متغيرة، جزر تنشأ، وبحيرات نفخ، وأنها تعبر، وماء يغطي على البابة، ويسير يزحف على الماء، وأرض ميتة تميه، وصحراء قفر تخضر، وبلاد تعمر، وأمصار تخرق، وزرع يبت وينمو، وآخر يذوي، ويصبح هشيما تذروه الرياح.

هذا هو شأن الإنسان، وشأن الكون، ثبات وتغير في آن واحد، ولكنه ثبات في الكلايات والجوهر، وتغير في الجزئيات والمظهر.

فإذا كان التطور قانونًا في الكون والحياة، فالثبات قانون فيهما - كذلك - بلا مراء.

وإذا كان من الفلسفة في القديم، من قال بمبدأ الصيورة والتغير، باعتباره القانون الأولي، الذي يسود الكون كله، فإن فهم من نادي بعكس ذلك، واعتبار الثبات هو الأساس، والأصل الكلي العام للكون كله.

والحق أن البداية كليهما من الثبات والتغير يعملان معاً، في الكون والحياة، كما هو مشاهد وملموس.

فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام، ملائمة لفترة الإنسان وفترة الوجود، جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة.

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم، أن يعيش ويرتقي، ثابتًا على أصوله وقيمته، وغاباته، متطورًا في معارفه وأساليبه وإدواته.

فالثبات، يسعى هذا المجتمع على عوامل الانهيار والتفانى، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى، أو التفكك إلى عدة مجتمعات، تتناقض في الحقيقة، وإن ظلت دائمة مجتمع واحد في الصورة، بإثبات يستمر التشريع وتتبادل الثقة، وتبنى المعاملات والعلاقات على دعامات مكينة، وآساس راسخة، لا تعصف بها الآหา، والتفاني السياسية والاجتماعية ما بين يوم وآخر، وبالرتنوة، يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته، حسب تغير الزمن، وتغير أوضاع الحياة، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية.
وإن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى ، نجدها في مصادر الإسلام ، وشريعته وتاريخه .

يتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع من كتاب الله ، وسنة رسوله ، فالقرآن هو الأصل والدستور ، والسنة هي الشرح النظري ، والبيان العملي للقرآن ، وكلاهما مصدر إلى مصوص مثاني ، ولا يسع مسلمًا أن يعرض عنه ؛ فل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » (1) ». إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليبحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وآمننا ، وأولئك هم المفضلون » (2) .

وتنجلي المرونة في المصادر الاجتماعية ، التي اختلفت فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ، ما بين موعوض ومضيق ، ومقول ومكرر ; مثل : الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وأحوال الصحابة ، وشرع من قبلنا ، وغير ذلك من مأخذ الأجتهاد ، وطريقة الاستنباط .

ومن أحكام الشريعة (3) نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين :

قسم يمثل الثبات والخلود .

قسم يمثل المرونة والتطور .

ثابت يتمثل في العقائد الأساسية الخمسة من الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وهي التي ذكرها القرآن في غير موضع كقوله : "ليس ألبر أن تسندوا وردهم كل المشرق والمغرب ولكن ألبر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والأنبياء " (4) . ومن يكثر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل قلداً بعيداً " (5) .

---

(1) التور : ٥٤ .
(2) الثور : ٥١ .
(3) نريد بالشريعة - هنا - ما هو أعم من الجانب القانوني في رسالة الإسلام ، بل المراد : ما بعث الله به محمد ﷺ من عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، وغيرها ، كما عرفه بذلك المحقق في كتابه : " كشف اصطلاحات العلوم والفنون " .
(4) البقاء : ١٧٧ .
(5) النساء : ١٣٦ .

١٤٠
وفي الأركان العملية الخمسة؛ من الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإياء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهي التي صح عن الرسول ﷺ أن الإسلام بني عليها.

وفي المحارمات الباقية؛ من السحر، وقتل النفس، والزناء، وأكل الربا، وأكل المال اليمين، وقذف المحصنات العاقلات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، والغصب، والسرقة، والقضية، والنهبة، وغيرها مما يثبت بقطع القرآن والسنة.

ومن أمهات الفضائل؛ من الصدق، والأمانة، والعفة، والصبر، والوفاء، بالعهد، والحياء، وغيرها من مكارم الأخلاق، التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية؛ في شروط الزواج، والطلاق، والمراتب، والحدود، والقصاص، ونحوها من نظام الإسلام، التي ثبت تنصوص قطعية في التفسير، قطعية الدلالة. فهذه الأمور ثابتة، تزول الجبال ولا تزول، نزل بها القرآن، وتوافرت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الأمة، فليس من حق مجتمع من المجامع، ولا من حق مؤتمر من المؤتمرات، ولا من حق خليفة من الخلفاء، أو رئيس من الرؤساء، أن يلغى أو يبطل شيئاً منها؛ لأنها كليات الدين وقواعده واسمه، أو كما قال الشافعي: كلية أبدية، وضعت عليها الدنيا، وبها قام مصالحنا في الحق، حسبما بين ذلك الاستقراء. وعلى وقائف ذلك جائت الشريعة أيضًا، فذلك الحكم الكلي باق إلى أن يرث الله الأرض وما عليها). (1)

ووجد – في مقابل ذلك – القسم الآخر، الذي يتمثل فيه المرونة، وهو ما يتعلق ببعض الأحكام وشروطها العملية، وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه "إجالة اللهدان":

الأحكام نوعان:

نوع: لا ينغي عن حالة واحدة مرت عليها، لا بحسب الأزمة ولا الأمنة، ولا

______________________________
(1) المواقفات. 141
اجتهاد الأئمة ؛ كواجب الواجبات، وتخفيض المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك. فهذا لا يتطرق إليه تغيير، ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتميز بحساب اقتضاء المصلحة له زمناً ومكاناً وحالاً؛ كنصوص التعزيزات وأجناصها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة، وقد ضرب ابن القيم للكثير عدة أمثلة من سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين المهددين من بعده، ثم قال:

وأيضاً، والله أعلم، لم يبق عليه من العلماء، على كثير من الناس - الأحكام الثابتة اللازمة، التي لا تتغير، بالتعزيزات الواجبة للمصالح، وطمعاً وعابداً (1).

والنواب هنا واسع، ولا ينبع القمام أكثر من هذا، ومن أراد الاستناد، فليرجع إلى ما كتبناه في مؤلفاتنا، التي تعرضت لهذا الموضوع بإضافة وتنصيل (2).

*الشريعة والمحجر على الإنسان:*

زعم محامي العلمانية د. زكريا في رفضه لаемوم الشريعة الإسلامية، وقوله:

هنا ما يعرف عند المسلمين كافة بعبارة: صلاحية الشريعة لكل زمن ومكان - أن في هذه العبارة تنافضن أساسين، وأولهما يرجع إلى أن الإنسان جوهرته التغيير، والشريعة جوهره، الثابت. وقد بينا بالمنطق العلمي القاطع خطاً البينة في الدعويين كنتهما.

وفي التناقض الثاني - فيما يزعم - الذي يتصل بالأول إتصالاً وثيقاً، وهو أن هذه الصلاحية تتعلق بالمحجر على الإنسان، والحكم عليه بالجملة الأبدى؛ لأن معناها أن الله قد وضع للناس في وقت ما، سنن يتبادر عليهم أن يسبروا وفقاً

(1) إخالة الله، 1 ص. 1462.

(2) إخالة الله، 1 ص. 1462.
لها إلى أبد الدهر. وأقصي ما امكنتهم أن يتصرفوا فيه هو أن يجتهدوا في تفسير هذا النص، أو تأويل ذلك، ولكن الخطوط العامة لمسار البشرية اللاحقة كلها مرسومة ومحددة أ.

وو هذا يتناقض - في زعم الكاتب - مع استخلاص الله للإنسان في الأرض، وتكرمه على العالمين، فهذا يضيع هذا التكرم والاستخلاف، مع تحديد المسار البشري مقدمًا، ووضع قواعد يتعين على الإنسان ألا يخرّج عنها مهما تغير وتطور.

وإنهارت هذه الدعوي، فقد انهار ما بنى عليها، فإنها ما بنى على الباطل باطل.

ومع هذا نرد على الكاتب دعوات من عدة أوجه:

أولاً: أن الدعوى مرفوضة شكلًا - يعتبر رجال القانون، لأنها مخالفة للاتفاق عليه أهل الإسلام من كل الفرق والمذاهب، ستينين وشيعيين وخلافغير، فلا يختلف اثنان في أن الشريعة عامة من حيث المكان، خالدة من حيث الزمان، ولم يخطر بالله أحد منهم أن الشريعة جاءت لشعب أو إقليم من أهل الأرض، أو لجيل أو عصر معين دون غيره. وهذه قضية يقينية من قطعات الدين وضرورةها، فلا تحتاج إلى تدليل ولا ينافش من ينكراها.

ثانياً: من ناحية الموضوع، أن التزام الإنسان بشريعة الله لا يعني الحجز عليه، ولا الحكم عليه بالحجر الأبدى، لأن هذا يصح، لو كانت الشريعة تقيد الإنسان في كل حياته بأحكام جزئية تفصيلية، والحق أن الشريعة ليست كذلك، فقد تركت للعقل الإنساني مساحات واسعة، يحول فيها وصول.

 منها: شتى الدنيا الفنية، التي فسح لها المجال فيها، ليبتكر ويبتدع ما شاء، كما علمه رسوله الكريم: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" رواه مسلم.

ومنها: منطقة الفتاوى من التشريع، والإلزام في شتى الحياة والمجتمع، التي نطلق عليها: "منطقة العفو" أخذًا من الحديث النبوي: "ما أحل الله، فهو حلال، وما حرم الله، فهو حرام، وما سكت عنه، فهو عنو، فأقبلوا من الله. 143
عانيته ، فإن الله لم يكن لينسي شيئًا ، ثم ثلث : ﴿وَمَا كَانَ رَبِّكَ نُسُيًّا ﴾ (1) الحديث.

ومثله حديث : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَايَضَ ﴾ فلا تضيعواها ، وحد حدوها ، فلا تعتدوها ، وحرم أشياء ، فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ، رحمة بكم غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها ، رواه الدارقطني ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

ومنها : أن ما نتص عليه ، إلاما يتناول - في الغالب - المباديء والأحكام العامة ، دون الدخول في التفصيلات الجزئية ، إلا في قضايا معينة من شأنها النبات ، ومن الخير لها أن تثبت ، كما في قضايا الأسرة ، التي فصل فيها القرآن تفصيلًا ، حتى لا تثبت بها الأهواء ، ولا تطرقها الخلافات ، ولهذا قال المحققون من العلماء : إن الشرعية تفصل فيما لا يتغير ، وتحمل فيما يتغير ، بل قد تسكت عنه تمامًا .

عن أن ما فصلت فيه الشريعة ، كثيراً ما يكون التفصيل فيه بنصوص قابلة لأكثر من تفسير ، محتملة لأكثر من رأي ، فلا تقبل قطعية الدلالة ، ومعظم التفسير كذلك ، ظنية الدلالة . . ظنية السبب ، وهذا يعطى المجتهد المسلم - فردًا أو جماعة - فرصة الاختيار والانتقاء ، أو الإبداع والإنشاء .

هذا ، إلى ما قرره الجهاد من علماء الأمة : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعروف والحال ، وأن الضرورات أحكامها ، وأن الأمر إذا ضاق انسى ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الله يريد بعبادة البصر ، ولا يريد بهم العصر ، وما جعل عليهم في الدين من حرج .

كل هذا ، يبين أن الشريعة ليست أغلالاً في أعقاب الناس ، ولا قيوداً في أرجلهم ، بل هي علامات هادئة ، ومنارات على الطريق ، وقواعد للسير ، حتى لا يصطدم الناس بعضهم ببعض ، فتهده الأرواح والأموال .

ثالثاً : أن المسلمين الزموا بهذه الشريعة قرناً متطاولة ، فاستطاعوا - في ظلها - أن يقيموا دولة العدل والإحسان ، وأن يشيذوا حضارة العلم والإيمان ، وأن ينشروا

(1) مريم : ۶۴ .

144
الإسلام في الآفاق، ويدخلوا - في رحاب - بلاد المدنات القديمة؛ في فارس، والمرو، ومصر، وغيرهم، فلم تضخ شريعتهم بجدية، ولم تمنعهم من الحركة والانطلاق، بل كانت لهم نورًا، بهدف العقول أن تضل، وروحًا تهوي القلوب، أن تموت، وحكمًا يرجع إليه المختصمون، عند الخلاف، وعاصمًا يمنع النفس أن يتصف بها الشهوات، أو تزاعرها الشهات.

وتذكر في تاريخ الأمة، نورة تأمل وإنضاج، يبدد أنها كلما أحسنت فهم هذه الشريعة وأحسنت تطبيقها، فربى من ضعف، وأخذت من فرقة، وعزت من دل، وطممت من جوع، وأغنت من خوف. وكلما ساء فهمها لهذه الشريعة أو ساء تطبيقها لها، أصابها الضعف والذل والهوان، وسلط عليها أعداؤها من شرق وغرب، ووقائع التاريخ البعيد والقريب شاهد صدق على ما أقول.

وأنا لا أذكر أن هناك من أساءوا إلى الشريعة - على امتتداد التاريخ - فهماً أو عملاً. ولكن هذا ليس ذنب الشريعة، فهي منه براءة، وما أصدق ما قاله الإمام ابن القيم، في بداية فصله عن تغير الفنوى، يتغير موجاتها: «إن الشريعة عدل كلامها، حكمة كلامها، رحمة كلامها، مصلحة كلامها. وأي مسألة فيها خرجت من العدل إلى الظلم، ومن الحكمة إلى العبث، ومن المصلحة إلى الفساد، ومن الرحمة إلى ضدها، فهي ليست من الشريعة في شيء وإن أدخلت فيها بالتأويل».

رابعًا: أنه ليس مبتكرون أن يضع رب الناس للناس، شريعة، وقوانين شرعية، محدد للناس مسارهم العام، الذي يرضاه منهم، ويضخ ما عداه وترسم لهم الخطوط العامة، التي تشير لهم الطريق، ويعين عليهم أن يراعوها.

أجل، ليس ذلك مبتكرون، فهذا شأن الله تعالى، مع عابده؛ فقد وضع لهم من قبل - شريعة وقوانين كونية، تعاملون معها جزء لا احترامًا؛ مثل قوانين الحياة والموت، والصحة والمرض، والنوم واليقظة، والجوع والشبع، والظلماء والرزا، والشياطين والشياه، إلي غير ذلك من القوانين الكونية، التي لا يستطيع الإنسان الفكاك منها؛ لأنها تحكم ولا يحكمها، وعليها القوانين والستين، التي تحكم الكون الكبير، بأرضه وسمائه، بمسمى وقمره، وبحاره وآهاره، وجباله.
أو ودنه، وحيوانه ونباته وجماده، وأفلاكه، إنها سنن شاميلة لهذا العالم من الذرة إلى المجرة، وهي سنن صارمة، لا تحال ولا تلين، ثابتة لا تبدد ولا تتلون

«فَلَنْ نَجِدْ لَسْتَ الْعَالَمَ الْمَيْلَةَ، وَلَنْ نَجِدْ لَسْتَ اللهِ تَحْوَيْلاً» (1).

هل يعني وضع هذه السن الشاميلة الصارمة الثابتة حجرًا على الإنسان، أو حكماً عليه بالجمود الأبدي؟؛ لأنه لا يستطيع أن ينطق ويتحرك، إلا في حدود هذه السن الكونية، وداخل إطارها؟!

لا يقول مؤمن ذلك، ولا الكاتب نفسه فيما يظهر منه على الأقلاع، إن هذه السن وضعها الله لصلحة الإنسان، وليس لله حاجة ولا مصلحة فيها، وهو الغني عن العالمين، وهي موضوعة على أبعاد تقدر، وأروع نظام صنع الله الذي أتقن كل شيء عندنا بقدر (2)، وكل شيء عنده بقدر (3).

فلماذا نقبل قوانين الله الكونية، ولا نقبل قوانين البشرية؟! لماذا نقبل سن الله في خلقه، ونرفض سنته في أمره، وهو في كل الحلتين: العلم الذي لا يجهل، والحليم الذي لا يبعث، والحيوم الذي لا يلزمه ولا يعده، سنة ولا يوم!

بل نرى - على عكس ما يرى الدكتور - أن من ثم حكمة الله تعالى وبره بعباده ورحمة بهم، لا يدعهم هملاً، ولا يركبون سدلاً، وإن زلزؤهم بما فيه مصلحتهم، والرقي بأنفاسهم وعملياتهم، إلزاماً. فقد يضلهم الجهل أو الهوى، عن معرفة الصواب، وقد يعرفونه بنياً ناصعاً، فتشتت عنه شهوات أنفسهم، أو أهواء المحتفزين فيهم، كما رأب الذين يبيعون السكرات، ويروجون الخديارات، ويستحوذون الزنى، والشذوذ، ويأكلون الربا، ويبيعون المسير، ويحتكرون الأقوات، ويفرسون الضعفاء، ويدوسون بأقدامهم الفقراء، وقوانينهم تخيب لهم ذلك، بلا لوم ولا حرق.

إن الكاتب (هذا الله) لم يقدر الله الجليل حق قدره، على حين أعلى الإنسان فوق مرتبتة، فنصور الإنسان مستغيثًا عن هدي الله، ومنهج الله، وما أشبه

(1) فاطر: 43. (2) التمثيل: 88. (3) الرعد: 8.
الإنسان ؛ إذا تهم أنه قادر على أن يقوم وحده من غير حاجة إلى ربه ، الذي خلقه ، فسواه !.

والمثل الذي ضربه الكاتب ؛ وهو مثل الأب مع ابنه ، إنما يصدق في أب يقيد ابنه في مستقبله ، بتفاصيل لا يجوز له أن يخرج عنها ، أما إذا روده بترجيحات عامة ووصايا حكيمة ، في معايير الناس ، ووضع له بعض القواعد المستخلصة من تجارب السني ، ثم ترك له التصرف بعد ذلك ، فهذا ما يقتضيه فضل الآبها ، الذي يجب أن يقابل من اليابن البال ، بالاعتراف بالجميل .

* * *
كيف تطبق الشريعة؟

سأل د. فؤاد زكريا سؤالين رئيسيين: أولهما وأخطرهما: لم أدعوك إلى تطبيق
الشريعة؟! وأثار في ذلك ما أثاره من التشكيك في نسبة الشريعة إلى الله،
واعتبرها في النهاية عملاً بشريًا، وإن جاء بها محكم القرآن، وصحت بها السنة.
ثم التشكيك في صلاحية الشريعة لكل زمان ومنكان، ونحن الله أن شبهاته كلها
ذابت، كما يذوب البرد تسلط عليه أشعة الشمس الوهاجة.

أما السؤال الثاني فهو: كيف تطبق الشريعة؟!

وهنا تجاهل الكاتب أن يلتقى بالدعاة إلى تحكيم الشريعة، أنهم لا يريدون من
تطبيقها، إلا إقامة الحدود؛ من القطع، والجلد، والرجم، ولا شيء بعد ذلك.

يقول مجيبًا عن السؤال المذكور:

؟ يدور جدل كبير في هذه الأيام حول تطبيق الشريعة، فهل يكفي لكي يقال إن
الشريعة أصبحت مطغية، أن نفرض الحدود، أو أن نطبق حد السرقة، فقطع يد
المستهلك، وحد الحمر، فتجلد السكير، وحد الزنا، فنرحم مرتكب الخطيئة؟ إن
الكثيرين من العقلاء، في صميم الحركة الإسلامية ذاتها، يؤكدون أن تطبيق
الشريعة أوسّع مدى بكثير من موضوع الحدود. فالعقوبات ليست إلا الوجه السببي
للشريعة، إنها هي الجزاء، الذي ينبغي أن يتخذه الآلل، والعاصي، ولكن هل معنى
ذلك أن الناس الأسوأ، الذي لا يسرقن، ولا يسرقون، ولا يسبرون، ولا يذلون - وأن
أفترض أن هؤلاء هم الأغلبية - لن تسهم الشريعة، ولكن ننظم حياتهم؟ لا جدال
في أن الشريعة ينبغي أن تطبق على الجوانب الإيجابية من حياة الناس، لا على
الجوانب السلبية أو غير السوية فحسب. ومن هذا فإن تطبيق الشريعة، لا بد أن
يكون أوسع نطاقًا من فرض الحدود والعقوبات.

ومن جهة أخرى، فهل تتحصى مشكلات أي مجتمع في هذه الآلات و回馈ها؟
لنفرض أننا أقمنا الحد على السارق وشاربه الحمر والزنا، ولنفرض أننا استطعنا
بذلك أن نتأنمل هذه الآفات من المجتمع، فهل يكفي ذلك لكي نتصلح أحوال

١٤٨
المجتمع وتنتهى مشاكله؟ إن المشكلة الاقتصادية لا تخل بمنع السرقة فحسب ، بل
زيادة الإنتاج ، وعذالة التنوير، وتشريد الاستهلاك . وقلت مثلا عن المشكلات
الاجتماعية والأخلاقية ، في علاقاتها بالحدود الأخرى كحد الحمر والزنا . وهنا -
أيضاً - كفينا أن ننظر حولنا إلى مجتمعات أخرى طبقت فيها هذه الحدود بكل همة
ونشاط ، كالسودان في عهده السابق ، وبكستان ، لكي ندرك أن تطبيق الحدود
لم يكن كافياً - على الإطلاق - لحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والمثلية.

ولقد أدرك الكثيرون هذه الحقيقة ، فقالوا بالآلا تقتصر الجهود على تطبيق الحدود
وحدها ، و主权هم في ذلك كثير من المطالبين بالتطبيق العالج للشريعة ، حتى
يتخلصوا من الاعتراف الصحيح القائل : إن الشريعة أسوأ وأكثر إيجابية بكثير من
تطبيق الحدود .

ومع ذلك فإنه يشكي في أن يكون هذا هو موقفهم الحقيقي ، وأعتقد أن جهدهم
الفعلي يركز في تطبيق الحدود وحدها ، ذلك أولاً لأن التطبيق الشامل يحتاج إلى
وقت طويل وتدرج شديد ، ولا معنى للإجابة عليه في حلقة مهيبة ، أو تنظيم
جلسات ورسائل تدعو إلى تنفيذه على الفور ، والشيء الوحيد الذي يمكن تنفيذه
بين يوم وليلة هو أن يصدر قرار بتطبيق الحدود الشرعية .

وأقلب الظن أن هؤلاء الدعوة يؤمنون بأن الخطوة الأولى والحساسة في طريق
التطبيق الشامل للشريعة ، هي فرض الحدود ، وكل شيء يمكن أن يأتي بعدها سهلاً
( مسير ) . هذه بحروفه .

ولا أريد أن أطيل التعبير على الكاتب - هنا ، بعد أن اعتبر هو يوجد
مدرسة تؤمن بالتدريس الحكيم في تطبيق الشريعة ، كما اعتبر من كثير من المطالبين
بالتطبيق العالج للشريعة ، وافقوا الآخرين في أن الحدود ، ليست هي كل
الشريعة. ( وهذا ما أعلنه التحالف الإسلامي صراحة في برنامجه الانتخابي الأخير:
إبريل 1987 م )

وإذا أريد أن أعجب - بإيجاز هنا - على عدة أمور :
أولاً : تعبير الكاتب على الذين طالبوا ، بالآلا تقتصر الجهود على تطبيق الحدود
وقد وحدوا، بقوله: "إني أشك في أن يكون هذا هو موقفهم الحقيقي، وأعتقد أن جمهدهم الفعلي يتركز في تطبيق الحدود وحدوها", فهل شق الكاتب عن قلوب هؤلاء؟ وهل هو إذ يحسب على ما في الضمائر؟ لقد كان يكفيه - لو أنصف ما طالبوا به وأعلنوه جهودا. ولكن الإنصاف في الناس قليل.

ثانياً: يدلل الكاتب على أن الدعوة السائدة في هذه الأيام، لا يهمها من جوانب الشريعة إلا تطبيق الحدود وحدها، بأن أقطابها صفقوا بكل حماسة للنصب حينما أصدر قوانينه الشهيرة بإقامة الحدود في السودان. وهو يعده ويعيد، ويلح ويكرر في هذه القضية، بعد سقوط غيرها، وإخفاق جهاده.

كان الإنصاف يقتضي أن يقول: إن هناك كثيرين يُقنعون في تأييد غيرها، ومنهم كاتب هذه السطور، الذي قال في القرآن - بصراحة - كما نقلت ذلك مجلة "الامة" القطرية في حينها: إن الإسلام ليس كله قوانين، والقوانين ليست كلها حدوداً، والقوانين وحدها لا تصنع المجتمع.

على أن الذين صفقو حماسة تأييد النصيري، إنما فعلوا ذلك لظنهم أنها خطوة تتبعها خطوات. ولذا طالبوا أن يستعين بالثقافات من علماء المسلمين لتسديده التطبيق.

والإخوان المسلمون، الذين أبدوا هناك، لم يكن تأييدهم ينقرف قد ولا شرط، بل كانوا يضحكون ويجهرون، أما في استصلاح الرجل، وإحسانًا للظلم به، ولكن سرعان ما اتسعت الفجوة بينه وبينهم، فقلب لهم ظهر المجن، وطبق يوجه إليهم التهمة والطعنات، حتى زج بقادتهم أخيرًا في أعماق السجون.

والإخوان المسلمون في السودان من الرؤية وسعة الأفق والانفتاح على العصر، ومشكلاته، وإعمال الاجتهاد في فضيات المجتمع التشريعية الإقتصادية والسياسية، بالمعنى الذي يجعلهم موضوع التهمة لدى كثير من الجماعات الإسلامية الأخرى.

فليس من الوارد في شأنهم أن يقال: إنهم جماعة يbelumون شتى الحياة، ومشكلات المجتمع المادية، والمعنوية، والاقتصادية، والسياسية.
ثالثًا: نحن لا نعارض التدرج، بل نحن نؤمن به وندعو إليه؛ لأنه سنة من سنن الله الكونية والشرعية. وقد فرض الله الفترات، وحرم المحرمات بالتدريج. كما في فرض الصيام، وغرام الخمر، ونحوها.

وأما بحسن ذكره هنا ما ذكره المؤرخون عن عمر بن عبد العزيز، وقد ولى الخلافة، بعد أناس انحرفوا بها عن منهج الراشدين، وارتكبوا مظالم، ضيعوا بها حقوق الناس، وتعدوا حدود الله.

فقد دخل عليه ابنه المؤمن النبي عبد الملك، وقال له في حمص متوقد: يا أبت ما لك تبطؤ في إنفاذ الأمر؟ فوالله ما أبالي لو غلبت بي ورك القدرة في سبيل الله! فقال الأب الحكيم: يا بني، إن الله ذم الخمر في أتين، وحرمها في الثالثة، وإلى أختى أن أعمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة! أي أنه رأى من الحكمه الرقق والتدرج بالناس، حتى يتقبلوا ما يردهم عليه من الحق.

وفي موقف مشابه قال له: يا بني إن قومك يعني بني أمية قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومنى أردت مكابرتهم على إنسان ما في أيديهم، ثم آمن أن يفيقوا على ثغّة، تكرا فدهم، والله لزوال الدنيا أهون على من ان يراق بسبي محجوم من دم! أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا، إلا وهو يمين في بدعه، أو يجي سنة؟!

فهذه النظرة الواقعية الحكيمية، التي نؤمن بها، ولكن ينبغي أن نعلم أن التدرج في تطبيق الشريعة ليس معناه تعطل الحكم بالشريعة، أو تعلية إلى أجل غير مسمى، بل معناه وضع خطة محكمة ذات مراحل محددة، للانتقال بالمجتمع من العلمانية إلى الإسلام، على أن تعطى الأولوية للجهود التربوية والإعلامية والثقافية، التي تعمل متكاملة متكاملة من أجل بناء الإنسان، الذي ينشده الإسلام، وتهيئة المناخ اللازم لتطبيق سائر شرائع الإسلام بنجاح وتوافق. وفي مقدمة ذلك إزالة الحواجز أمام الدعوة الصادقة للإسلام، أفرادًا وجماعات، وتوفر ضمانات الحرية الضرورية لهم، ليقوموا بواجبهم في الدعوة والتنوعية والترشيح، وهذه من ألم الأولويات.
التدرج المطلوب، هو الذي يضع نصب عينيه الهدف، ويحتال جاهداً للوصول إليه، فلا يمر يوماً كما أشار عمر بن عبد العزيز إلا وهو يميز بدعة من بدع الجاهلية، ويخبي سنة من سن الإسلام.

رابعاً: مع التحفظ على الذي بحرصون الإسلام في التشريع، وبحضرون التشريع في الحدود، لا أوافق على اتباع الدكتور في الاستهانة بأمر الحدود، ونتذر إليها باستخدام لا يليق بمسلم، فهي جزء لا يتجزأ تعطيله من أحكام الشريعة، وقد جاء بها القرآن والسنة، وإما يجب أن تنفذ بشروطها في إطار أحكام الإسلام الأخرى، فإنها كلها لا يتجزأ على أن الحدود، وخصوصاً حد السرقة والحارثة، من أواخر ما نزل من القرآن.

* * *

102
الشريعة وتجارب البشر

التجارب التاريخية للتطبيق الإسلامي

ويقول العلمانيون: إنكم يا دعاة الخلق الإسلامي، وأنصار تنفيذ الشريعة، تدعوونا إلى إسلام مثالي، لا يوجد إلا في بطون الكتب نظريات ومبادئ. ولم يطبق في الواقع إلا قصيرة فترات تكون فيها النبوة، ثم فترات الخلفاء الراشدين.
بل يقول د. فؤاد زكريا: "أما التجارب التاريخية، فلن تكون إلا سلسلة طويلة من الفشل، إذ كان الاستبداد هو القاعدة، والظلم هو أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والعدل والإحسان والشورى، وغيرها من مبادئ الشريعة لا تبدو أن تكون كلًامًا يقال لتمير أعمال حاكم تجاهل كل ما له صلة بهذه المبادئ السامية.
ولا جدال في أن جلsoon أنصار تنفيذ الشريعة، بما اختفت آراؤهم في الأمور التفصيلية، إلى الاستبداد الدائم بعهد الخلفاء الراشدين، وبعمر الحاكم بوجه خاص، هو - في ذاته - دليل على أنهم لم يجدوا ما يستهلكون به طوال التاريخ التالي، الذي ظل الحكم فيه يمارس باسم الشريعة، أي أن التنفيذ، الذي دام ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً، كان في الواقع الأمر نكراناً لأصول الشريعة، وخروجًا عنها.
إن أنصار تنفيذ الشريعة يركزون جهدهم، كما قلنا، على الاستشهاد بأحداث ووقائع تتمنئ إلى عمر الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب، ولكن لا يقدم هؤلاء الدعاة الأفاضل أن عمر بن الخطاب شخصية فذة فريدة، ظهرت مرة واحدة، ولن تكرر؟ وإذا كانت تجارب القرون العديدة، وكذلك تجارب العصر الحاضر، فقد اختفت كلها في الإثبات بحاكم يدانى عمر بن الخطاب، فلم يداعون أنكوهم بالأمل المستحيل في عودة عمر بن الخطاب؟ وإذا كان الخط البيني للحق والعدل والخير، قد ازداد ضعفًا على مر التاريخ، وبلغ الضيق، في التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة، فعلى أي أساس يأمل هؤلاء في أن تكون
التجربة القبلية، التي يدعو إليها في مصر، هي وحدها التجربة التي ستنجح.
فيما أخفقت فيه الأنظمة الإسلامية على مر القرون؟! : بحروفه.

• ملاحظات على التجارب التاريخية للتطبيق الإسلامي:

واود أن أبدى - هنا - ملاحظات أساسية:

الأولى: أن ما ذكره د. فؤاد زكريا، ليس من ابتذاله ولا من إبتداع فكره هو، بل هو ترديد لكلام قاله الكاتب المعروف الاستاذ خالد محمد خالد، في أوائل الخمسينات، وفي كتابه "من هنا نبدأ". وقد أعلن الاستاذ خالد، بسجاعة لا تتوافر لكثر من الناس - رجوعاً لما ذهب إليه من قومية الحكم وعلمانيته، وبين البوأثث، التي دفعته إلى هذا الاتجاه، وكتب في ذلك كتابه "الدولة في الإسلام" يعلن فيه: أن الإسلام دين ودولة.

• أغلاف أو مغالطات ثلاث:

الملاحظة الثانية: أن هذا القول ينطوي على أغلاف أو مغالطات شتى، نذكر منها ثلاث:

1) أولى هذه الأغلاف أو المغالطات، هو اختزال عهدين الراشددين كله إلى عهد عمر وحده، متجاهلين عهد أبي بكر (رضي الله عنه)، وما فيه من إنجازات هائلة، رغم قصره. حتى قال د. محمد حسين هيكل، في كتابه "الصديق أبو بكر"، "أليس هذه بعض معجزات التاريخ؟! في ستين وثلاثة أشهر، تطمئن أمم ثورية، وتصبح أمة متحدة قوية، مرهوبة الكلمة، عزيمة الجانب، حتى لتغزو الإمبراطورتين العظيمتين، اللتين تحكمان العالم، وتوجهان حضارته، لتهيمن بعبء الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك.

هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضى من أبي بكر مجهودًا، تنوء به العصبة أولو القوة. وقد تخطى الستين يوم بوعي (1)... (2)

ومتجاهلًا - كذلك - السنوات الأولى في عهد عثمان (رضي الله عنه)، وما

(1) الصديق أبو بكر، ص 245.
حققت من رخاء ورفاهية في الداخل، وفتوحات وانتصارات في الخارج، كما يشهد بذلك التاريخ. ومتجاهلين - كذلك - ما أرساء عليّ (رضى الله عنه، وكرم الله وجهه) من مبادئ في سياسة الحكم، وسياسة المال، ومعاملة اليعا والخارجين على الإمام، رغم الصراع، الذي وقع بينه وبين الأطراف الأخرى.
(1) والغفلة الثانية أو المغافلة الثانية، هي الإدعاء بأن عمر كان فلة لا تتكسر، فهو قول بكذبه الواقع التاريخي، فقد رآينا النموذج العمرى يتكسر في صور مختلفة، وفي عصور مختلفة.
رأيناه في سمعه عمر بن عبد العزيز، الذي أقام العدل، وأحيا ما مات من سنته، ورد المظلوم، ومكن لدين الله في الأرض، وأعاد الحكم إلى نهج الخلافة الراشدة، حتى سماء المسلمين "خمسة الراشدين".
ورغم قصر مدته، استطاع أن يثبت الأمن والرخاء والاستقرار في أنحاء دار الإسلام، حتى روى البهقي في الدلالات عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب، قال "إذا ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا، لا والله، ما مات، حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فقول: اجعلوا هذا، حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع لبلا، يتذكر من يضعه فيه، فلا يجد، فأغناة الناس عمر".
رأيناه في سيرة يزيد بن الوليد، الذي ثار على ابن عمه الوليد بن زيد، لمجنه وانحرافه، وأراد أن يهدد من سن الإسلام، وعدله ما بلي، وكان يلقب "النافص"، لأنه نقص من أعطيات الجند، لتوفير المال للمصارف الأخرى، وكان هو وابن عبد العزيز أعدل بن مروان، ولكن لسوء حظ المسلمين، وفاجأ أجله المجتمود بعد ستة أشهر!
رأيناه - بعد ذلك - في مثل نور الدين محمود الشهيد، الذي كانوا يشبهونه بالراشدين في سيرته، وعدله، وجهاده للغزاة الصليبيين، وصممون على تطهير المجتمع من الظلم والفساد.

155
رأباه في مثل صلاح الدين الأيوبي، الذي شهد له خصومه قبل أن ينصبه. شهد له الأنصاريون الغربيون، الذين حاربهم وحاربوه، كما شهد له المسلمون.

(2) والقلط الثالث أو المغالطة الثالثة، أن من الظلم بين لقائع التاريخ أن نُطلق الحكم على جميع خلفاء بني أمية، وبين العباسيين، وألح شهود، ومملوك الوادي، ومملوك، والمحتديين وغيرهم في المغرب، وسائر المسلمين في الهند، وغيرهم. بأنهم كانوا جميعًا ظلمة وفجرة، ومنحرفين عن عدل الإسلام، ونهج الإسلام.

فالموقع أن هذا ليس من الإنصاف في شيء، فقد كان من هؤلاء كثيرون، اتصفوا بكثير من العدل والفضل، وحسن السيرة، ولا سيما إذا قورنا بغيرهم من حكام العالم في زمنهم.

ولكننا كثيرا ما نأخذ أخبار تاريخنا من مصادر غير موثقة، وروايات غير ثابتة، لو عمل فيها ميضع صرصص والتعديل »، لم تتم لها قائمة.

فكيف، وبعض مصادرنا كتب الأدب والأفاصيص، مثل «الأغاني» للأصفهاني، الذي سماه أحد إخوئنا «النهر المسموم»؟

إنى أشبه أنني أخذ صورة الحكم أو المجتمعة من كتاب مثل «الأغاني»، بالذي يحكم على المجتمع المصري كله من خلال «الأفلام» السينمائية المصرية، التي تمثل شريحة محدودة - جدا - داخل المجتمع، وهي ما يسمونه «العولمة الفني».

إذا نظرنا إلى رجل مثل هارون الرشيد، نحو الإخباريين والقصاصين صوروه، وكأنه رجل خلاعة وفجور، لا علاقة له بالعلم، ولا بالعمل، ولا بالجهاد، ولا بالعدل، ولا بالفضل.

والواقع أن الوقائع الثابتة من سيرة الرجل، الذي بلغت الحضارة الإسلامية في عهده أوجها، والذى كان غزو عامًا، وحج عامًا، تكذب هذه الأقاويل المصنوعة، وقد دافع عنه ابن خلدون في مقدمته دفاعًا علميًا رصينًا، يرد به على المتقولين والحرصين، وإن كانت حياته، لا تخلو من هنات غفر الله لنا وله.
وإذا نظرنا إلى حاكم مثل معاوية بن أبي سفيان نجد من أعظم حكام العالم، وأقرؤهم إلى العدل، وإنما نزلت مرتين فحارساهما بسعة عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، ففي مثاليهما الرفيعة، ولانة انحرفاً بالحكم لن سنت الخلافة الراشدة، القائمة على الشورى، إلى الملك العضوية، القائم على الوثارة، ولانه يغي على أمير المؤمنين، على في حره في صفين، وعواطنا نحن المسلمون جميعاً مع على ومن بهاء.

وقد رأينا من الصحابة، بل من التابعين من يجهبهم بمحق، وصريح القول، فيقاله بالسماحة واللطف، لا بالخون والعنف.


ولكن معاوية - بيني أمينة صفعة عامة - طالبهم «الأخيارون» (1) من رواية التاريخ الذين حرفوا الوقائع بالجهل، أو لناقلوها بغير تحصيص، وبخاصة أن تاريخ بيني أميمة لم يكتب إلا بعد أن سالت دولتهم: وجاء خصومهم من بيني العباس.

وقد رأينا أن رؤوسنا كيف يكتب المنصرمون تاريخ العهد الباندة من قبلهم. ولو كان معاوية بالسوء، الذي تصوره بعض الروايات، ما تنازل له عن الخلافة راضياً، رجل مثل الإمام الحسن بن علي (رضي الله عنهما)، حرصاً على وحدة

(1)مصطلح أطلقه علماء المسلمين على جامعي الأخبار، الذين يروون منها ما له سندة، وما ليس له، وما صح، وما لم يصح، دون تميز.
الكلمة، وحقن الدماء، ولهذا سمى المسلمون ذلك العام (عام الجماعة)، بل جاء في الحديث الشهير التتويج موقف الحسن (رضي الله عنه) وإثناء عليه، حيث قال جده: "إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فتيان عظيمتين من المسلمين" رواه البخاري.

وأكبر الذين يتحدثون عن تاريخنا، ويظرون إليه من وراء منظر أسود، إنما استقروا أفكارهم الأساسية من خارج حدودنا، من أسلافهم المستشرقون، الذين ينظرون إلى تاريخنا وتراثنا كله من زاوية غريبة، تزدهر كل ما هو شرقي، ومن ورائها عصبية صليبية كاملة، تكره كل ما هو إسلامي، ومن خلال مصلحة استعمارية دافعة، تسخر العلم للأهواء والمافع!

هذا شأن المستشرقين مع تراثنا، إلا من عموم ربك، وقبل ما هم وما أبلغ ما وصفهم به العلامة أبو الحسن الندوي في مؤتمر "الإسلام والمستشرقون"، الذي عقد منذ سنوات بالهند: أنهم أشبه شيء يفضل الحمام، لا تقع أعينهم إلا على الفاذرات، وأكبر همهم البحث عنها.

وهكذا ارتناه مولعين بتبني العورات، والبحث عن نقاط الضعف والانحراف، وإن وجد أسانيدها، ولم تثبت الرواية ولا الدراسة، وذلك لإبرازها وتقويتها، وتضخيمها، والنظر إليها من خلال ميكروسكوب مكبر، يجعل من الحبة قيبة، ومن القطر جمالاً، بل من النملة فيلاً!

حتى الرموز المشرقة، التي تجمع المسلمون في عصورهم كلها على فضلها وعظامها، حاولوا أن يخطمواها، مثل عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره المسلمون خامس الراشدين، وشهوه بجده عمر بن الخطاب.

فقد رأيناه من فتحتهم لهم الصحف أ половها ليكتب، يهتم بسوء الإدارة، والجهل بالسياسة والاقتصاد، والسبب في خراب الدولة! هكذا قال أحدهم بكل تبجيح (1) على حين دافع عن طاغية الأميين الحجاج بن يوسف!

(1) هو حسين أحمد أمين في مقالاته مجلة الصور، التي تبنى في السنوات الأخيرة خط الهجوم على الإسلام وشريعته ودعاته بصراحة.

158
ولو كان المجتمع المسلم بالسوء، الذي يصور به عهد بنى أمية، ما استطاع أن يمد شعاع الإسلام إلى تلك أفق الشاسعة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا.

ومن المعلوم أن انحراف حاكم من الحكام في تلك العصور، لم يكن يؤثر في سير المجتمع كله، والتأثير في أعمق الشعب فكرًا وخلقًا وسلوكًا. فلم تكن لدى السلطة أجهزة ولا مؤسسات قادرة على التأثير، كما في عصرنا، الذي تستطيع الدولة بوساطة الأجهزة التربوية والثقافية والإعلامية أن تصنع فكر الشعب وذوقه، وتوجه مشاعره وسلوكه، الوجهة التي تريد، إلى حد كبير.

وقد سئل الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي - رحمة الله - (11) : بم تفسر النكسات، التي أصابت الأمة الإسلامية، بدءًا من الخلاف الداخلي بين عالي ومعاوية، حتى يومنا هذا؟

فكان جوابه ( رحمة الله عليه وأئته بقدر ما قدم للإسلام ودعوته ) : أن عوامل الأول الألباب من العدو وصديق، على أن الإسلام عقائد وشراع، وعبادات ومعامالات، وأخلاق ونظام، وترابط إدارة وتقاليد اجتماعية، وأنه يكلف أتباعه بتطبيقات الشروط العادية خدمة ذلك كله.

وكان في أثناء دراستنا الإسلامية، نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي، وبين الإسلام والحكم الإسلامي، الإسلام، وحري مخصوص، لا ينتج فيه، أما الفكر الإسلامي فهو عمل الفكر البشري في فهمه، والحكم الإسلامي هو عمل السلطة البشرية في تنفيذه، وكلاهما لا عصمة له.

وقدما في خطاها لا يبي في طول، حتى يستدرك عليه مفكر آخر. وعندما يخطئ حاكم، فإن زلته لن تطول، حتى يصوبها نافذ رأشد.

والآمة الإسلامية - فضل الله - لا تجمع على خطأ، وجهاز الدعاية بها حساس، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهي، ينف الحاق.

(11) انتقل إلى رحمة الله تعالى فضيلة الشيخ محمد الغزالي يوم 22 شوال سنة 1416 هـ.
الموافق 13 مارس سنة 1996 م.
ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحي الخاتم، فإن القدر يؤديها، إذا استمرت
أو فرطت، حتى تلزم الصراع المستقيم، وتعهدها بالمجددين، الذين يغادرون على
حقائق الوحي وسبيل فقههم وأسلوب حكمه. ... قال تعالى: {وَمِنْ خَلْقَكُمْ أُمَّةً
يُهْدُونَ بِالْحَقِّ مِمَّا يُعَلِّمُونَ} (1).

ومن هذا التقدم يظهر أنه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي
والسياسي، وإذا الغربة في النشر على هذه الأخطاء، أو الاستح快餐 في
معالجتها، والتفعية على آثارها...

وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمار الرومانى
والمجوسى، ولهما أشرف قتال عرشه الدنيا، ولكن يشعر بغضابة وألل، مما أعقب
ذلك من قتال داخل بين المسلمين أنفسهم، كانت له آثار بعيدة المدى، على
حاضرهم ومستقبلهم.

وجمهور الفقهاء والمؤرخين، والدعاة يؤكد أن على بن أبي طالب 
كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان ممثل نفسه وعصبيته، في خروجه على
على {وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُسِبَ مَعَاوِيَةَ هَذِهِ المَعَارِكَ}، ومن ثم تحوّلت الخلافة
الراشدة إلى ملك عضوض في بني أمية.

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق، وضربية موجهة للمثل العليا، إلا أن من
الغلو المرفوض تضحية نتائجه ما يأتي:

أ) أن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمر المسلمين بطريقة غير صحيحة، أعلنوا أن
ولاهم للإسلام، وأن التغيير في أشخاص الحاكمين، لا يعني التغيير في
القوانين أو الأهداف الإسلامية، ومن أجل ذلك، استأنفا الجهاد الخارجي، كما
تركوا للفقهاء حرية الحركة، لما قيسوا سلطاتهم في الزعامة.

ب) أن العلم الديني مضى في طريقه، يسوق الأفائق، ويربي الجماهير، ويقرر
الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية، أي أن الإسلام الشعبي مع أوزاره عن
السلطة، يبقى قديرا على الامتداد والتأثير ...

(1) الأعراف : 181.
(ب) مع أن الدولة كانت عربية، تتعصب لجنسها، فإن الجماهير والتفاؤل
الإسلام وحدها، والقت قيادتها في أغلب العواصم لفقهاء ودعاء مرين من
الأعاجم! 1/10.

هذا ما قاله الشيخ، فانصف وأجاد، رغم شدته المعهودة على المحررين والطغاة
في القديم والحديث.

والشهيد سيد قطب (رحمه الله) رغم شدته على التاريخ الإسلامي، بعد عصر
الراشدين، وحملته القاسية على بنى أمية في كتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام"
لم يسعه إلا أن يعترف بأن الإسلام ظل رافضًا لبناء، مرفوعًا اللواء، منفردًا بالفتوى
والقضاء، والشريعة للأمة الإسلامية، في كل شؤونها، لثيراً على الزمن.

وبهذا أتصف الإسلام، وأنصف التاريخ، وأنصف نفسه كذلك.

يقول في آخر كتابه، وقد نشر حديثاً 1406 هـ - 1986 م، أي بعد
استشهاده (رحمه الله) بعشرين عامًا. يقول في مقدمة كتابه "مقدمات التصور
الإسلامي"، وهو الجزء الكامل لخصائص التصور الإسلامي: "أرتفع لواء
الإسلام عملياً، وظل مرفوعاً أكثر من ألف عام، بل حوالي مائتين وألف عام،
بمعنى في النظام الإسلامي في ظل الأقطار الإسلامية، وهو النظام، الذي يرجع
الناس فيه إلى شريعة الله وحدها، ولا يحكم قضاء هذه الآمة إلا بالشريعة الإسلامية
في كل أمر من أمور الحياة، ولا يتحاكم الناس إلى غير هذه الشريعة، في شأن
واحد من شنون المعاش" (2).

وفي هذا المعنى أنقل هنا كلمة بليغة لاستاذ مغربي، لا يهم بالتحيز للنبي
الإسلامي، بل يحسبه على التيار "اليساري"، هو د. محمد عابد الجابري،
قال:

"أنا لست من رجال القانون، ولكن اهتمامي بالتراث، يجعلني أشعر بالقل
والانزعاج، عندما أسمع من يقول: إن الإسلام أو الشريعة الإسلامية - بالتحديد-
(1) من كتابه: "ماثيا سؤال عن الإسلام"، ص 232، 324، ط. دار ثابت،
القاهرة.
(2) مقدمات التصور الإسلامي، ص 524، القاهرة، دار الشرق، ط. أولى.
(3) م - الإسلام والعلمانية".
لم تطبق منذ عصر الخلفاء الراشدين، يتلقى هذا القول بأن شريعة «لم تطبق طوال أربعة عشر قرنًا الماضية»، ويدفعني إلى التساؤل: وهل يمكن تطبيقها في المستقبل؟ وكيف؟

إن هذا القول يؤدي إلى عدمية مخيفة. فأين ستضع آلاف عشرات الآلاف من الفقهاء، الذين عرفهم تاريخ الإسلام؟ أين ستضع كتب الفقه والاجتهادات والفتوى؟!

نعم لقد أغلق باب الإجتهاد - كما يقول - في القرن الرابع الهجري، ولكن هذا الإغلاق لا يمنع العقل من الاجتهاد داخل المذاهب الأربعة. وداخل الفقه الحكيم الفقه الحكيم الشيعي، بل أكثر من ذلك لم يمنع ذلك الإغلاق قيام فقه وأصول عظيم، مثل: ابن حزم، الذي حرّم التقلد، وأوجز الاجتهاد على كل شخص، حتى على الرجل العامي، ومثل الأصولي الكبير أبي إسحاق الشافعي، الذي عمل على إعادة تأصيل أصول الفقه، والتجديد فيه، وذلك بالتفاؤلة بنقل الاجتهاد من الاجتهاد في اللظج وأنواع دلالته، وبالقياس والتعاليل في قياس الجزء بالجزء، نقل الاجتهاد بهذا المعنى، الذي كان سائدا قبل، إلى بنائه على مقاصد الشرعية، والتي باستمرار أحكام الشرعية، وصياغتها في كليات، ثم تطبيق هذه الكلمات على الأسئلة المستجدة. هذا ليس إجتهاداً فقط، بل هو دعوة إلى إعادة تأسيس الاجتهاد، بما يقيد الفقه في الإسلام من أن يكون مشابهًا للفقه، والقانون.

على كل حال فاننا مسلمون، وينقلق القول إن الإسلام أو الشريعة الإسلامية لم تطبق منذ عهد الراشدين؛ لأنني في هذه الحالة أحادي أنساب عن حقيقة إسلام أجدادي واسلامي: ألم يكونوا مسلمين؟ ألم يطبقوا الشريعة في عباداتهم وعقود زواجهم وكثير من معاملاتهم؟!

أعتقد أنه يجب النظر إلى التزام الإسلام، والتفاوض والتفاوض، نظرة تاريخية، وإلا سقطنا في العدمية. نحن نقول: الإسلام دين ودولة، نعم، وقد كان ذلك بالفعل. أما إذا قلت: إن الشريعة لم تطبق منذ الرسول، أو منذ...
الخلفاء الراشدين، فمعنى ذلك أن الإسلام لم يكن دينًا مطلقًا، ولا كان دولة طوال أربعة عشر قرناً. وهذا غير صحيح تاريخيًا، وغير مقبول منطقايًا. إنه قول يجر إلى عدمية مخيفة، تتركنا بدون هوية، بدون تاريخ. وبالتالي بدون حاضر، وبدون مستقبل. فهل نقبل بهذا؟! (1).

تنبيهات في غاية الأهمية:

على أن هنا جملة تنبيهات يجب الالتزام بها هي غاية في الأهمية:

(1) أن عصرنا يهوي للحكومة المسلمة من القدرة على التوجيه والتأثير في حياة الناس، ومعاونتهم على تغيير ما يفسهم فكرًا وخلقًا وسلوكًا، ما لم يكن عشر معشرًا، مهيئًا للحكم في القرون الإسلامية السابقة. وذلك عن طريق المؤسسات التعليمية والترفيهية، والجهات الثقافية والإعلامية، التي لها أبلغ الأثر في توجيه أذواق الناس وميولهم واتجاهاتهم الفكرية والنفسية، وفرض على الدولة المسلمة أن تستفيد من هذا كله، لخدمة الرسالة، التي قامت من أجلها.

(2) أن عصرنا قد انتهى إليه حصاد تجارب إنسانية من مختلف الأعصار ومختلف البيئات، تتمثل في ضمانات أساسية لحماية حق الشعوب ضد طغيان الحكم وأهوائهم؛ مثل المجالس النادية، وما لها من حق مراقبة الحكومة ومحاسبتها، بل إسقاطها، وتحقيق الدستور، التي تحدد علاقة الحاكم بالحكومة، وتصون حريات الأفراد، وتحدد من طغيات السلطات الحاكمة، وتحري مكارم الصحافة، وتعد الأحزاب، وتكوين النقابات، وحق الاضراب.

ويجب علينا - نحن المسلمين - أن نعترف بالتواجد على هذه الضمانات، التي كسبتها الإنسانية بالجهاد الطويل مع الفراغة والغبار والأعمال، وأن نعتذر الحفاظ على هذه الضمانات والمكاسب فيها، لا يجوز التفريط في هذه التشرب، والشريعة والنصيحة، وأداء الأمانات، والأخير بالعرف والنهي عن المنكر، التي أوجها الإسلام لا تتم إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(1) ندوة: "التراث والتحديات المعاصرة" ص 30، 171.
(٢٠) أنا ندأي لا ندأي بحكم فرد مثالي فذ، يكون في يمين أبي بكر، أو في عدل عمر، أو في فضل علي، أو زهد عمر بن عبد العزيز، إنما ندأي بحكم المؤسسات، التي تقوم على الإسلام تشريعًا وتوجيهًا وتنفيذًا، وتعتمد على الإسلام عقيدة وفكرًا وخلقًا وقانونًا.

والحاكم أو رئيس الدولة، أو الإمام في هذا النظام المشروط، ليس إلًا يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول، بل هو حاكم مقيد بالدستور، المستند أساسًا من القرآن والسنة، مسؤول أمام مجلس الشورى خصوصًا، أمام الشعب عمومًا، مقتضى واجب التصيحة لأئمة المسلمين، وفرضية الأمر المعروف والنهي عن التفكير.

فلا ينبغي التركيز - إذن - على عبقرية فرد موهوب بنعمة الله، بل لباد الأزق عدلًا، كما ملتئم ظلمًا وجوًا، أو يجدد للناس عليهم، الذين انحرفوا عن صراطهم فقها أو عملاً.

وقد كتب بحثًا ضافيًا في حديث أبي داود، الذي يرد على كثير من الألفة والإفلاس: "أن الله بعث لهذه الأمة على رسول كله مائة سنة من يجدد لها دينها" وهو حديث صحيح، ولكن معظم السراج مالوا إلى أن "من" في قوله في.mag من يجدد للمنفرد، وظلون يبحثون لكل مائة سنة عن منفرد علم، مشهور بعلمه وعمله وفضله، ليكون هو مجدد القرن.

والذي انتهى إليه أن "من" تصالح للجميع، كما تصالح للمنفرد، بل هي في الحديث أولى أن يراد بها الجمع، فليس بالضرورة أن يكون المجدد فردًا واحدًا، بل قد يكون جمعة لها كيانها الواحد، أو قد تكون ملتزمة في البلاد. كل واحد فيها قائم على ثغرة يحرسه في ميادين الفكر، أو العمل، أو الدعوة، أو التربية، أو الجهاد، أو غيرها.

وبهذا يكون سؤال المسلم: ما دور في حركة التجديد؟ بل أن يكون كل هم...

١٦٤
التجارب الحالية للتطبيق الإسلامي:

من شبهات العلماء، التي تواصلوا بإثارة، كلما حملت أصوات الجماهير مطالبة بالحل الإسلامي، والعودة إلى الإسلام، كل الإسلام: الاحتجاج بالتجربة الحالية لبعض البلدان، التي أعلنت "تطبيق الشريعة الإسلامية"، وما شابه من سوء الفهم أو سوء التطبيق.

فهل يقولون: أى إسلام تريدون؟ إسلام السودان أم إسلام إيران أم إسلام باكستان أم إسلام السعودية؟ وقد يписываون هذه "الإسلامات" إلى رؤساء هذه الأقطار، فقيلون: إسلام التمييز أم إسلام الحزم أم إسلام ضياء الحق...

إلى أين؟ وقد يقولون: إسلام رجال الدين، أم إسلام المساكر أم إسلام الملك؟

وشبههم هنا تركز حول أمرين أساسيين:

أولاً: اختلاف صور الإسلام المشروحة من بلد لآخر، ومن فهم لآخر، فهو ليس في نظرهم إسلامًا واحدًا، بل "إسلامات متعددة"، الإسلام السنوي، والإسلام الشيعي، والإسلام الهدى (1)، والإسلام المجدد، والإسلام المقدر، و...

وثانياً: التركيز على الأخطاء أو الانحرافات، التي شابت هذه التجارب كلها، أو بعضها، وتحمل هذه الأخطاء على الإسلام نفسه. كان هذه طبيعة الإسلام، أو كأنه المستلهم، إذا أساء الناس فهمه، أو أساءوا تطبيقه، أو انحرفا به عن صرائطه المستقيمة!

وردنا على ذلك من وجهين:

اختلاف صور التفتيقات الديموقراطية والاشتراكية:

أولاً: أنهم لم يقولوا هذه المقولية لأنفسهم، حين يدعون إلى الاشتراكية،

(1) من فكر هؤلاء العلماء أنهم يعتبرون الدعوة السلفية التي قام بها مجدد الجزيرة ابن عواد الوهاب مثلاً مستقلًا من مذهب أهل السنة والجماعة! والحيل أنها ليست أكثر من حركة جديدة داخل المذهب السنة نفسه، والوهابية - إن صحت هذه النسبة - ليس إلا حافظة.
أو الديمقراطية، ولم يجعلوا اختلاف المدارس والمذاهب والفلسفات حول الاشتراكية أو الديمقراطية، مانعاً من المناقشة بهذا المبدأ أو ذاك.

فمن العلماء للدرايين أن الاشتراكية تيتار ومدارس متعددة، ينافض بعضها بعضًا، من مثالية إلى علمية، ومن إصلاحية إلى ثورية... إلخ.

وحتى المدرسة الواحدة مثل الماركسية، التي يتبناها أمثال د. فؤاد زكريا، ليست مجرد واحدة من الناحية العملية، ولا تيارًا واحدًا من الناحية النظرية.

ولا بأس أن أقتبس هنا بعض ما كتبته عن خصائص "الوضع" من كتابي الخصائص العامة للإسلام، ردًا على المشوerm والشكوك:

ومن العجيب أن الذين يحاولون التنافس من هذه الخصائص من خصائص الإسلام، بالتهويل والتضخيم في أمر الاختلاف، الذي حدث في تاريخ المسلمين، والصاغ كل فئة شاذة مارقة بضميم الأمة المسلمة. هؤلاء يتعاطون عن الغموض البين، والاختلاف الباز، الذي يراه ويلمسه كل دار للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة، التي أصبحت "أصابع" هذا العصر، وغذا هؤلاء وأمثالهم من الكتاب، الكهنة الجدد لهذه الآثان.

إن هذه الأيديولوجيات الحديثة البراقئة، تنتقر إلى مجرد تعريف دقيق، أو كما يقول المنطقية: جمع مانع - يوجد مدلولها، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية. فإن هذا التعريف مجرد مفقود، ولهذا يختلفون حولها في كل شيء، حتى في معناها: ما هو؟

خذ مثالاً: الديمقراطية.

فنحن لا نكاد نجد في القرن العشرين أيديولوجية اجتماعية، ولا تنظيمية سياسية، من الليبرالية، إلى الاشتراكية، إلى الشوعية، أو حتى الفاشية، أو النازية، إلا وندعى كل منها أنها هي "الديمقراطية" الحقة. وأن ما عدناها ديمقراطية رائعة، وناب الناس أفضل، أي هذه الديمقراطية هو الأصيل، وأيها الدعو؟

ولا يخرج من هذا الغموض، وهذه البكللة، الاحتكام إلى معايير خلقية أو روحي؟ لأن الجميع يدعون الخصم على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان.
ولا الاختلاف إلى "معايير اجتماعية وضعية" ؛ لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً يبرز به منهجها وأسلوبها. فمثلاً الديمقراطية الغربية تعتمد المعيار السياسي، وفي.preference ديمقراطتهم بالحرية الاقتصادية وعلى حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، في حين ديمقراطتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية.

ويتحدى الصينيون المحاربين - معًا - خلال ما يسمونه "الديمقراطية الجديدة"، ويتنازلون - أيضًا - التقليد الآسيوي والأفريقي، من خلال ما يدعونه "الديمقراطية الاشتراكية".

بل وجدنا من يجمع بين الضدين، خلال ما يسمونه "الديمقراطية الدكتاتورية".

وأخذ مثال آخر: الاشتراكية، التي تقبل بها الكثيرون من قومتنا، وباتوا يدعون إليها باللهجة والقليل... ما هي الاشتراكية، ما مدلولها؟ ما أهدافها؟ ما أصولها؟ وما مصادرها؟ إنك تبحث عن جواب لهذه الأسئلة، فلا تجد إلا الغموض والاختلاف بين حولها، بين مؤسسها ودعاتها.

يقول الأستاذ ثانوي: إن الاشتراكية، كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة، كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل إلى جيل فحسب، بل من حققة إلى حققة.

ويؤكد الأستاذ كول، التناقض في فهم العقيدة الاشتراكية بين بلد واحد، وبين جيل وما بعده، ويزيد عليه يقول: "ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة الاختلاف.

(1) الإسلام وتحديات العصر، ص 129 - 130، ط. ثانية.
(2) الفقهية وال.layouts السياسية، ص 317.
(3) الاشتراكية القومية، للد. يوسف عز الدين، ص 74.
الزمن فحسب، بل كان هناك تنافس بين الصور المختلفة، التي وجدت في عصر واحد.

وبنقرأ في كتاب "هذه هي الاشتراكية" للكاتبين الفرنسيين جورج بورجان وبارب رامير، هذه العبارات نقلاً عن "مكسيم لوروا" في كتابه "رادة الاشتراكية الفرنسية" يقول: "لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكيات بابون، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكية سان سيمون وبرودون، تتميزان عن اشتراكية بلانكي. وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان، وكابيه وفوربيه، ويكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحل بالآسي والمارك.

ومعلوم أن هذه الاشتراكيات كلها غير اشتراكية "كارل ماركس"، الذي يصف كل هذه الاشتراكيات وما مائلها بأنها "خيالية"، ويختصر مذهبه وحده باسم "الاشتراكية العلمية".

وبعد رحيل الماركسي "باريسم" المتوفي 1882 م، وخلفائه: "إيجاز 1882" ولينين "1924 مؤسس الدولة الاشتراكية الإسرائيلية الأولي، نرى الهوة تتسع بين تجربتين رئيسيتين في روسيا والصين. ينسب كل منهما إلى ماركس ذاته.

وليس أفضل من أن نستشهد هنا بقول لأحد الماركسيين المعروفين، وهو مكسيم رودسون، الكاتب اليهودي الفرنسي اليساري، الذي يقول: "الحقيقة أن هناك "ماركيات" كثيرة بالعشرات والمئات، ولقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسار أن نجد في تراثه، ما نسب به أي فكرة! إن هذا التراث كالكتاب المقدس "أسفار التوراة، والأنانيج وملحقاتها"، حتى الشيطان، يستطيع أن يجد فيه تصويرة، تؤيد ضلالته!!".

(1) الاشتراكية والقومية، للدكتور يوسف عز الدين، ص 74.
(2) هذه هي الاشتراكية، ترجمة محمد عبده، بروت، ص 12.
(3) الإسلام والرأسمالية، ص 24.

168
نحن لا نتبنى تجربة بعينها من هذه التجارب، فكل واحدة منها لها وعليها، لها أخطاءها ولها انحرافاتها، نتكر أخطاءها، ونبدأ من انحرافاتها، وما كان عن اجتهاد، نقدر؛ لأن الإسلام يسمح بحرية الخطا، والإسلام العظيم لا يضر به خطأ المخططي، ولا انحراف المنحرفين.

- تنافض العلمانيين والماركسين:

على أن العلمانيين والماركسين يتعاملون بمنطقين مختلفين: منطق مع الإسلامين، ومنطق مع أنفسهم.

فهم مع الإسلامين، يحملون الإسلام كل الأخطاء والانحرافات في التاريخ، وكل الأخطاء والانحرافات في التطبيق المعاصر. فالإسلام - عندهم - هو مجموعة الانحرافات القديمة والجديدة معًا. ولا يقولون يومًا: إن الإسلام شيء، والتطبيق شيء آخر، وأن المسؤولية مسئولية المسلمين، وليست مسئولية الإسلام نفسه.

على حين نراه مع المذاهب الأخرى يفرقون بين صلاحيته المبدأ في ذاته، وبين سوء التطبيق له.

أجل نراه إذا دعوا إلى الاشتراكية الماركسية مثلاً، يبرون من الشواب والانحرافات، التي صاحبت تطبيقاتها المختلفة، من عدون على الحقوق، وواد للحريات، وانتهاك للمحرمات، وإهدار لكرامة الإنسان، وقتل للديمقراطية، وتصفية طبقية لتحل محلها طبقا جديدة...

وذلك الذين يدعون إلى الديمقراطية، لا يحملونها مسئولية ما يشوبها من انحرافات ومخالفات، حتى ارتكبت باسمها عظام، وحتى قال رئيس مصر: إن
الديمقراطية لها أنابيب ومخالب، وأنها أشرس من打球ونات المروحة! وكم زورت باسمها انتخابات واستفتاءات، كانت تتيحها النتائج الحسم 99,99% !

ففضل عن شكوى كثير من الغربيين في بلاد الديمقراطية الأبد، من زيف الديمقراطية، التي توجهها قوى ظاهرة وخفية لمصالح فئات معينة.

ود فؤاد زكريا مثل هؤلاء الذين أشرت إليهم، فهو أستاذ في الفلسفة والمنطق، ولكنه يخون الفلسفة والمنطق، حين يتحدث عن الإسلام وشريعته وتاريخه ودعاته.

ولا أدرى لماذا يتعامل د. زكريا بمتقين، ويكله بكيلين، شأن الذين سماهم القرآن «المطففين»؟

فهو يلمح الأذكار من هنا وهناك لفشل التجارب الديمقراطية والاشتراوية في عالمنا العربي، وفي مصر خاصة، فهو يعتبر للديمقراطية الليبرالية في مصر: أنها لم تستمر أكثر من ثلاثين سنة (من 1943 - 1952)، وبحساب نجاح باكستان على بضع سنين، وتجربة السودان على ستينس !!

ويتبادر للإشارات في مصر بقصر المدة - أيضًا - فيقول: «وخلال هذه الفترة القصيرة، لم تكن هناك جدية كافية في التطبيق»، ويكفي أنها كانت إشراكية وغير إشراكية: وأن المكلفين بحراسة التجارب ورعايتها، كانوا - في معظم الأحيان - يختارون على أسس شخصية تضمن ولاءهم للحاكم، لا على أساس إيمانهم بالبديء نفسه، واستعدادهم للتضحية في سبيله».

فيا عجب! لماذا لا يحكم هذا المنطق نفسه؟ ويرأس هذا الكلام ذاته في مثل تجربة ضاء الحق في باكستان، أو التمييز في السودان؟ لماذا لا يقال إن التجربة تنقصها الجدية الكافية؟؟

وينكشف لذلك أنها تجربة إسلامية بغير إسلاميين!!

فأكبر الجماعات الإسلامية في باكستان، ليست هي التي تقوذ وتخص التجربة، والإخوان المسلمون في السودان، لم يكونوا هم المكلفين بحراسة التجربة ورعايتها، وإنما اختيار التمييز من اختياره لذلك على أسس شخصية، تضمن الولاء له.
صحيح أنهم رحبوا بالتجربة وساندوها؛ لأنهم لم يكن يسعهم غير ذلك، وإلا لاتهموا بأنهم لا يهمهم أن يحكم الإسلام، إنما يهمهم أن يكونوا هم الحكام، وبهذا يتهورون دائمًا! وقد أمروا أن يحكموا بالظاهر، والله يتوالى السراة، فعلمهم أن يبتسموا الرجل فرصة، يظهر فيها ما أعلن من صدق التوجه إلى الإسلام.

وهكذا كان موقف كل علماء المسلمين ودعائاتهم.

ولكن لما بدأ الرجل يطلب ويتنكر للإسلام الحق، سرعان ما انتقلوا عليه، ووقعوا في وجهه، وتعرضوا لأذائه، وأعلنت الحرب عليهم من قبله، وزج بقدتهم في السجون بين عشية وضحاها.

ومن عجيب أمر العلمانيين وتناقضهم الفاضح، أنهم يسقطون بالإسلام انحراف كل متبحر من الحاكمين باسمه، على حين لا يسبون إلى الإسلام عدل العادلين منهم، ولو أنصفوا ليرأوا الإسلام من ظلم الظالمين، ونسوا إلى صلاح الصالحين، فهو الذي رأى وصنعهم كما قال لعمير بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيراً با أمير المؤمنين! فاجاب: بل جزى الله الإسلام عني خيراً.

وفي هذا يقول الأخ الكاتب التونسي (1) الفاضل الأستاذ «منير شفيق» في رده على أطرافات العلمانيين وبيان استعمالهم للحجة ونقيضها:

«فتراهم حين يواجهون قيادات إسلامية فذة في عدالتها واستقامتها وحسن قيادتها لشئون الأمية، يرجعون ضئالها لا إلى الإسلام، الذي تبرت في كفه، وتعلمت من مدرسته، ونهلت من نهبه، فاكتسبت كل مزايها بسبب اهتدائها بهديه. ولذا يحدثون - على سبيل المثال - ضئال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى عبقرتهم، حتى يكاد يحيي فضل الإسلام على ما اتصفوا به من تقوى وعدل واستقامة وحسن اجتهاد، فلا يقال عند الحديث عن النماذج المشرقة - وما أكثرها في التاريخ الإسلامي - هذا هو الإسلام، وإنما يقال هذا هو الإسلام، حيثما وقع ظلم، أو وهن، أو انحراف، أو فسوق.»

(1) الكاتب يقيم في تونس فقط، ولكنه فلسطيني الجنسية، كما عرفت وحسبنا أنه مسلم، وكنى.

171
وهكذا يُطح الإسلام من انحراف من أهله، وينحرف من استقام منهم، فحالة الانحراف مسئولية الإسلام، بل هي هو! أما الحالة الرائعة الفذة، فلا علاقة له بها، إنها مسئولية الأفراد بسبب مواهبهم وعقلانيتهم! وإذا ذهب الأمر بهذا المنطلق حتى منتهاء، فتصبح الحاكم شارب الخمر والزاني، وقاتل النفس، بلا حق، هو النموذج الإسلامي، بينما الحاكم الذي عدل واستقام، أو أقام الحد على شارب الخمر والزاني، وقاتل النفس، بحق، جاء بذلك كل من عنده، ولا علاقة للإسلام به. فهل - بعد هذا كله - من لا يلاحظ كيف تستخدم الحجة وتقيضها في محاربة الإسلام وأهله؟ (1)!

* * *

(1) من كتاب "ردود على أطروحات علمانية"، للأستاذ منير شفيع.
دفع شبهات ورد مفتيات
العلمانية والطائفية

في الندوة التاريخية، التي أقيمت في "دار الحكمة" بالقاهرة للحوار بين الإسلام والعلمانية، ذكر د. فؤاد زكريا، مثل الجانب العلمناني، حجة لتأييد الدعوة إلى العلمنانية في مصر وأمثالها.

ملخص هذه الحجة - فيما يراها مقدمها - أن البلاد التي يكون فيها أكثر من دين، تكون العلمنانية علاجًا لأوضحها في حماية لها من التعصب الطائفي، الذي يجر إليها الكوارث، وضرب مثلاً لذلك: الهند، ولبنان، الذين يتبني دستورهما العلمنانية، حتى لا يعلى طائفة على أخرى.

فالهند تتكون من هنود ومسلمين وسيخ وبوذيين، وهي أديان قديمة فيها إلى جوار النصارى، الذين ظهروا نتيجة وجود الاستعمار الناصري، أو التبشير الاستعماري في البلاد.

ولبنان يتكون من مسلمين سنة، ومسلمين شيعة، ودروز، ونصارى من طوائف مختلفة، أبرزهم المارونيون.

وفي الندوة المشهورة، قالت الدكتور: إن ما ذكرته حجة عليك لا لك، فإعلان العلمنانية في كل من الهند ولبنان، لم يعالج الطائفة الكامنة في صدور الناس، بل لم يشهد العالم خلال هذا القرن ما شهده من التعصب الطائفي البغيض في كل البلدان.

فالمسلمون تعرضوا على يد الأكثرة الهندوسية، لمذابح شتى، تشبث لهولها البلدان، أقربها مذابح آسام، وبين الهندوس والمسيح معارك ضارية، وصادمات مسلحة، وقد ذهب ضحيتهم رئيسة الهند الشهيرة "أندري غاندي". 

والعجب أن هؤلاء الهندوس، الذين يتورعون عن إبادة الفئران والحشرات، ولا يستخدمون مبيدات الذباب والبعوض في الفنادق الكبرى؛ لأن هذه الحشرات ذات روح، استباحوا ذبح المسلمين بالألوف، كأنهم ليسوا من "ذرى الأرواح"!!

173
وفي لبنان تقوم الحرب الطائفية المجنونة منذ أكثر من عشر سنوات، ولا زالت سفكت فيها الدماء، وانهكت فيها الحرمات، وهدمت فيها البيوت، وحذقت ما جرى في صبرا وشاتيلا، وما يجري إلى اليوم في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المحاصرين، الذين بلغت بهم المخصصة إلى حد الاستفتكاء: أيجوز أن يأكلوا لحوم الموتى والقتلى منهم؟

إنها الحرب الطائفية الدموية الحقود، التي لا تهدأ إلا لتشتعل، ولا تسكن إلا لتقوم من جديد أشد ضراوة، وأكثر قساوة، وقد ارتكب فيها من الموبقات ما يشير بعد التاريخ من ذكره.

فماذا صنعت \"علمانيتك\" لطائفة لبنان، يا دكتور؟ إن حججك - دائمًا - تقلب عليك، وما لي في هذا يدان.

احتجت فؤاد زكريا في الندوة أيضًا بما أعلن يومًا عن الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات، من العزم على إقامة دولة عمانية في فلسطين، وهو ما تبناه بعض الفصائل الفلسطينية.

ولم أرد على هذه النقطة في الندوة مراعاة لضيق الوقت، ولأنها شبهة أضعف من أن يرد عليها، فالدولة الفلسطينية لم تقم، لا عمانية ولا إسلامية، حتى نظر ما موقعها؟

وأما أعلمه عرفات يومًا ليس حجة شرعية، يستدله بها في مواقع الخلاف.

بل إن إعلان أو نوجه هذا، لقي من الاعتراض في الداخل والخارج، ما جعله يحاول التغطية على آثاره، والسكت عليه فيما بعد.

وقد ظن يومًا أن مثل هذا التوجه، أو الإعلان عن دولة عمانية، يتعارض فيها الحرب المسلمين والنصارى واليهود، يطمن اليهود، وانصارهم في مسركي الغرب والشرق، ويرفض الفصائل المعصرة ضد الإسلام من الفلسطينيين، ويرضى الدول الطائفية من حوله في سوريا ولبنان، ويرضى الحكام العلمنان من العرب.

والواقع أن هذا التوجه لم يحل المشكلة عند أحد، لا عند اليهود، ولا عند...
الأمريكان، أو الروس، أو الغربيين، ولا عند الفلسطينيين أنفسهم، ولا عند جيرانهم في سوريا أو لبنان، ولا عند حكام العرب المنتمين.

هل أوقفت توجه عرفات للعربية معركة "تل الزهر"، وما خلفت من آليات وضحايا؟ أو معتت ملحة "أيلول" الأسود؟ أو أخروا غزو لبنان وحصار بيروت، وإخراج الفلسطينيين منها؟ هل منعت حمامات الدم في صبرا وشاتيلا، ومهمات اللاجئين في لبنان إلى اليوم؟ هل حمت الفلسطينيين من الانتهاك حتى دخل "فتح" نفسها، التي يرأسها عرفات؟ هل حمل هذا التوجه العلماني حكام العرب العلمانيين أن يقفوا إلى جوار الفلسطينيين وقفة رجولة وإيجابية ضد من يلبنونهم بل إنسانية ولا رحمة؟

لعمر الله، ما أجرى التوجه العلماني فعلياً، في شيء من ذلك، ولا جعل هذا لعرفات قبلاً عند اليهود، ولا عند مؤيديهم من الأمريكيين وغيرهم.

فكان أولى من الاحتجاج باتوجه الفلسطيني إلى العلمانية الذي لم يظهر له أثر إيجابي في قليل ولا كثير، أن يتحج الدكتور بالتوجه الدينى لدى إسرائيل. فهذا التوجه هو الذي دفع اليهود في العالم إلى الحركة بعد جمود القرون، وهو الذي جمع شبان أمة، قطعها الله في الأرض أما، وهو الذي نفع فيها روح النضال بعد أن ضربت عليها الثأر والمكسوة آلاف السنين، وهو الذي أبحا بئس لحكا لابنها لساناً لأي دولة أو دولة في الأرض، وهو الذي أقام اليهود دولة تتميّزة باستحاثتها الدينية، سعت نفسها باسم أحد الأنبياء، واندفعت لإسهامها بحوار دينية، من توجه النشرة وتعليم التلمود.

قامت هذه الدولة على أنفاضنا، على إغتصاب أرضنا، وانتهاء عرضنا، وتشريد أهليتنا، ونحن أحياء شهدنا، نرى ونسمع، تكون أكثر من عشرين دولة عربية، وأكثر من أربعين دولة إسلامية. فماذا ألغى توجهنا العلماني تجاه توجههم الدينى؟

لقد خضنا معهم معارك، دخلنا ومعهم اليهودية، وليس معنا الإسلام! معهم الثورة، وليس معنا القرآن! معهم تعاليم موسى، وليس معنا تعاليم محمد!
فكانت العاقبة الهزائم والنكسات والوكرات، نتج عنه غصة وراء غصة، وما رك
بظلم للعبيد.

في ندوة عقدت في إسرائيل حضرها من مصر الدكتور مصطفى خليل رئيس وزراء
مصر الأسبق، وطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية المصرية، وعد من
الأساتذة الإسرائيليين المتخصصين في الشئون السياسية والعربية، وذلك في
1980/12/25 في هذة الندوة قال د. خليل للإسرائيليين المجمعيين معه:

إذ أن أطممنكم أننا في مصر نفرق بين الدين والقومية، ولا نقبل أبدا أن تكون
قيادتنا السياسية مرتكزة إلى معتقداتنا الدينية.

وما أن أنهى مصطفى خليل كلمته، حتى وقف البرفسور دافيد يرد عليه قائلاً:
إنكم أبا المصريون، أحرار في أن تفصلوا بين الدين والسياسة، ولكني أحب أن
أقول لكم: إننا في إسرائيل نرفض أن نقول: إن اليهودية مجرد دين فقط، بل إننا
نؤكد لكم أن اليهودية هي دين، وشعب، ووطن.

وقال البرفسور تفي يافوت:

أود أن أقول الدكتور مصطفى خليل: إنه يكون على خطأ كبير، إذا أصر على
التفرق بين الدين والقومية، وإننا نرفض أن يعتبرنا الدكتور مصطفى خليل مجرد
أصحاب دين لا قومية له، فنحن نعتبر اليهودية ديننا وشعبنا ووطننا، وأحب أن أذكر
الدكتور خليل بأنه الشركاء الأوسط كان موطن الديانات السماوية، المسيحية،
الإسلامية، واليهودية، ولم يكن موطن قوميات، أما القومية، فقد كانت من
إبتكار الأوربيين، الذين أزعجهم انتشار الحروب الدينية في أوروبا، فابتكرها الفكرة
القومية للتخفيف من حدة الصراع والديني في أوروبا، ومن خلال هذا الشعار شعار
القومية، حاولوا التنقل من شعوب الشرق الأوسط، فعبوا ابتكارهم إلى شعوب
الشرق الأوسط، وهكذا أصبحت حياة الشباب في الشرق الأوسط تتوافق في الحروب
القومية.

ليت د. مصطفى خليل، ود. فؤاد ركيا، وأمثالهم يتلفعون بهذا الدرس،

الذي لقنه لهم رجال إسرائيل!
وما ينبغي أن أذكره هنا، ما قرأته أخيرًا، وأنا أدفع بالكتاب إلى المطبعة، وذلك فيما كتب الكاتب السياسي الشهير محمد حسين هيكل في مقالاته بصحيفة "أخبار اليوم" القاهرة، يوم السبت 17/1/1987 م، عن لقائه بشهر علماء الطبيعة في عصرنا "ابن سينا" صاحب نظرية "السبيبة" الذي فتح الباب للعصر النرويجي.

لقد ذهب للفيله وحواره، وذهنه مشحون بأسئلة شتى، حول العلم ووثبائه في القرن العشرين، القبلة الذرية، وإجازات اليوم، وتوقعات الغد.

كان هذا اللقاء في الفترة الأولى لثورة 23 يوليو، قبل أن يبرز اسم جمال عبد الناصر، وفجأء هيكل بأن الرجل هو الذي بدأ يسأله، وقال هيكل في دهشته: إنه لم يخطر لي أن لديه ما يسألني فيه. الطبيعي أن أسأله أنا!

أتذرون عن أي شيء سألته؟

سأله عن قادة الثورة الجديدة في مصر: هل تعرف ما الذي ينالون عمله بأجل؟! يقول هيكل: ومرة أخرى كانت دهشتي حقيقية. ولاحظ، وأضاف مفسراً: أهلي من اليهود. هؤلاء الذين يعيشون في إسرائيل.

يقول هيكل: تذكرون لحظتها فقط - حقيقة - أنه يهودي. كان في وعي وفهمي وتقديري باستمرار. أنه "العالم". ولم أصنع في خامري على أساس ديني أو عرقي. هذا هو ما الآن يسألني عن أهله في إسرائيل! وأول سؤال! له.

* * *

(م12 - الإسلام والعلمانية)
مصرية .. عربية .. إسلامية

بعض الذين كتبوا مؤدينين للعلمانية، معارضين للحل الإسلامي، أو لتطبيق الشريعة الإسلامية، في مصر خاصة، أثاروا قضية لا مبرر لإثارتها، وهي قضية الوطينة المصرية في مقابل الدعوة الإسلامية.

وقد ترك بعضهم الأسلاوب العقلية والمادية إلى الأسلاوب الخطابية والعاطفية، ليغني بحب مصر، ويتغزل بمجانبها، كما كان يقدم قليماً شعراء الهوى العذري، من أمثال قيس ليسلي، وجمال بحثة، وكثير عزة.

ومن هؤلاء الأستاذ فرج فرحة في كتابه "قبل السقوط" إذ يقول:

"ورأى مصر، بعلم الله أني أحبك بلا حدود، واتشعشك حتى آخر قطرة من دمي، وأتعبد في محرابك بكل ذرة من كراتي (كذا) وأدفع حياتي كلها، ثم تأبه لبقائك متماسكة..." (1)

وفي مقال آخر، كتب مقالاً تحت عنوان "مصرية .. مصرية .. مصرية!"

ونقول للدكتور فرحة ومن على شاكلته: لك أن تحب مصر كما نشاء، وأن تعشياها كما تريد، فحب الإنسان لوطنه عاطفة فطرية، وقد شاع بين المسلمين من قديم أن حب الوطن من الإيمان، وظنه حديثاً، وما هو حديث، ولكنهم أن المعنى لم يعترض عليه أحد.

وكيف يعترض معتبر على حب الوطن، والثبي، خاطب وطنه مكة، حين خرج منها مهاجراً بقوله: "أما إنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن قومك أخجوني منك، ما خرجت!"

وأما ذكر بعض أصحابه "مكة" - وهو في المدينة - اغتريقت عيناه بالدموع، وقال له: دع القلوب تقر.

(1) ص 86، وقد تجاوز الكتاب في عباراته، بما لا يجوز أن يصدر من مسلم، يعرف حقيقة التوحيد!
وليس هناك تعارض بين التراث الوطني القومي والثورة الإسلامية؛ لأنه لا تعارض بين الخاص والعالم، ولا بين الجزء والكل.

فإذا أن عمل المصري لخير وطنه الخاص مصر، لـ يتناقض مع عمله لخير وطنه العاقل، وعلى عكس أن مصر جزء من الوطن العربي، والشعب المصري جزء من الأمة العربية، كما تنص على ذلك الدستور المصري.

كذلك لا تناقض بين عمله لخير مصر وخير العرب عن ما، وعمله لخير الإسلام في دائرة الرحمة.

فإذا أن مصر جزء من الوطن العربي، هي جزء - بل جزء حيوي ورئيسي - من الوطن الإسلامي، والشعب المصري جزء من الأمة الإسلامية - بل هو جزء له مكانته التاريخية والواقعية الخاصة بين أمة الإسلام في مشارف الأرض ومعاربها.

لماذا تقيم عادراً - إذن - بين المصرية والإسلامية؟

إن المسلمين كانوا هم السباقين - دائمًا - للفداء عن مصر وجهاد أعداء مصر، وبطولاتهم في معارك القناة، وأسماء شهداتهم تحدث عنهم، وتشهد لهم.

و مصر - بالنسبة لهم - ليست مجرد وطن، بل هي يظنون إليها بوصفها قلعة الإسلام، وحصناً لله تعالى وثقافته، وقطعة لله تعالى، و<cite>ولياء</cite> لعقوله.

يقول الشهيد حسن البنا عن <i>الوطنية المصرية</i> : "إننا مصريون بهذه البقعة الكرومية من الأرض، التي نبتنا فيها ونشؤنا عليها، ومصر بلد مؤمن تلقى الإسلام تلقينًا كاملاً ورد عليه، ورد عليه العدوان في كثير من أديان التاريخ، وأخلاص في اعتنائه وطروغ عليه أطفلا المشاعر، وأخيل العواطف، وهو لا يصلح إلا بالإسلام، ولا يداوى إلا بعفا وف، ولا يطب له إلا بعلاجه، وقد انتهت إليه - بحكم الظروف الكثيرة - حضانة الفكر الإسلامية والقيام عليها، فكيف لا تعمل مصر! وكيف لا تدفع عن مصر بكل ما تستطيع! وكيف يقال: إن الإيمان بالإسلام لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالإسلام، ويهدف بالإسلام؟ إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره، وسنظل كذلك ما حبنا، معتقدين أن هذه هي الحلقة الأولى في

179
سلسلة النهضة المشروطة، وأنها جزء من الوطن العربي العام، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام 191 هـ.

أما أن أراد هؤلاء بـ "المصرية" العزلة عن العرب المسلمين، كما كان يقول سلامة موسى وغيره، وإنكار انتمائهما العربي والإسلامي، وإحياء النزاعات الأقلية، الفضيلة، الفرعونية في مصر، والفنيقية في سورية، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال أفريقيا، نحو ذلك، فنحن أول من يقاوم هذه النزاعات الشيطانية، التي تريد أن ترق أمتنا، ليسهل عليها افتراضها. وقد تجاوز الزمن هذه الدعوات، ولم يعد هنا مكان للقول، كما قال زعيم مصر من قبل، مثل عن موضوع يتعلق بالفلسطين، وما يبيت لها من مؤامرات: أنا رئيس وزراء مصر، لا رئيس وراء فلسطين!

ومن هنا نقول لن يعلنها: "المصرية... مصرية". ويفقوون عند هذا الحد: وسعوا أففكم، انظروا أبعد من أنوفكم، وأعرفوا من أتمه، ولا تتناكروا لهويكم الحقيقية بكل أبعادها، فاتتهم مصريون، عرب، مسلمون، ولا شك، وأولى بكم أن تعلنوا: "المصرية... عربية... إسلامية".

قد يقول بعض العلمانيين: إن الخلاف هنا في الألوية. تعني: أي هذه الدوائر الثلاثة الأولى بالعمل لها بالنسبة للمصرى: المصرية أو العربية أو الإسلامية؟ ورأينا: أن العمل لها كلها في وقت واحد ممكن، لتدخل هذه الدوائر وتشابكها، فالمرسي الذي يعمل خير وطنه بإخلاص وإثبات، يخدم بذلك عروبة وإسلامه. وهو - إن كان عربيًا صادقًا، ومسلمًا واعيًا - سيجد أن خير مصر الحقيقي - لا الزائف - هو في النهاية خير للعروبة والإسلام.

على أن المسلم لا يجد مكانًا من دينه أن يبدأ بوطنه، الذي يعيش على أرضه وينعم بخيراته، فلا ما يتسل مسلم أن يبدأ بلده وقرته، التي نشأ فيها، أو يقيم بين جدرانها، وفي الحديث الصحيح: "ابدا بنفسك، ثم بمتعول".

وفي تعاليم الإسلام: أن الأقربين أولى بالمحروف. وأن حق الجيران أوحد من
حقوق غيرهم من سائر المسلمين، وأن أولى الجيران بالرعاية أقربهم بابًا منك، وأن الزكاة تتفق في إقليمها، ولا تنقل إلى غيرها، إلا إذا استغنى هؤلاء، وإحالة أولئك، أو أصابتهم مجاعة، أو نحو ذلك.

ومن هنا لا يوجد المسلم حرًا في دينه أن يعمل خير الوطن، الذي يحيا فوق أرضه، وحَتَّى سماه.

ولكن الخلاف الحقيقي إذا يكون، إذا افترض تعارض فعلي بين الدوافع الثلاث: المصرية، العربية، الإسلام.

الذين ينادون بالوطنية المصرية الضيقة، سيفلون: مصر أولاً.

وعليهم أبو خلدون ساطع الحصري - الذي كانوا يلقبون بفيلسوف القومية العربية - بعدة مقالات صدرت في كتاب بعد ذلك، تحت عنوان: "العربية أولاً". وذلك من خلال مغالطة "القومي"، الذي ينظر إلى القضايا الكبرى من أفق أوسوم من أفق الإقليمية المحدودة.

ومن قراء "الحصري" يجد أن منطقه أقوى، وحججه أنصع، ولكن نفس المنطق يرد على دعاء القومية العربية المحدودة، في مقابل دعاء الإسلام الوسيمة، الواضح الإسلامي أرحم وأوسوم من أفق القومية الإقليمية، وهو جدير أن يجعل المسلم يقول مثلا فيه: بل الإسلام أولاً!

والحقيقة التي ينبغي أن ندعي بها بعيدًا عن أجواء النفاق السياسي، أن الدين المؤمن أغلبًا عن كل شيء. ولهذا إذا افترض تعارض الدين والوطنية والقومية، فإن الدين لدى المؤمنين يتقدم على غيره. فالذين لا يشعرون شيء، والوطن قد يعوض به، أو أرض الله واسعة، ولهذا شرع الله طلبًا للرخص، أو طلبًا للأمن، أو طلبًا للحرية. وقد قال الله ( تعالى) للضفتيدين في أوطانهم من أجل عقيدتهم في عبادة الذين أنتموا إن أرضي واسعة، فإن لآيات قابتون (1).

وعندما يكون الله ورسوله في كففة، وكل ما يتعز الناس به ويخوض عليه من

(1) الانتكبوت: 59.
أهل وولد وعشرة ومال ووطن في كفة أخرى، ترجع كفة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وهذا ما صرح به القرآن في مفصلة واضحة حاسمة: ﴿قل إن كأن أباؤكم وأبناؤكم وإخوكم وأزواجهكم وشركاءكم وأموالكم اقتسموها وتجارها تختون كساءها ومساكين ترضوهما أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿ (1).

ولقد ضحى النبي ﷺ وأصحابه بوطنيهم مهاجرين في سبيل الله، تاركين وراءهم دورهم، وأهليهم، أموالهم، كما قال القرآن: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخروا من ديارهم وأموالهم يتنغو فضلًا من الله ورضوانا ونصرون الله ورسوله، أولاًً ضربه الصادقون ﴿ (2).

هذا ما يؤمن به المسلم، الذي يتخذ من القرآن مصدرًا لتصوراته وأحكامه ومواقفه، وهو نفس ما يؤمن به المسيحي المخلص لديه، الذي لا يلف ويدور تبعًا لأراجيح السياسة، والذي يؤمن بقول الإنجيل، إذ يروى لنا متي عن المسيح ( عليه السلام): ﴿فما هو يتكلم عن الفقراء، إذا كان يومًا إذا وقعت خارجا يريدون أن يكلموه. فجاء وقال للذين قال له: من أمي؟ ومن إخوتي؟! ثم أومأ يبهد إلى تلاميذه، وقال: هؤلاء هم إخوتي! لأن كل من معمل مشيئة أبي الذي في السموات، هو أخًا وأختي وأمي ﴿ (3).

مشكلة D. فرح فودة - وهي مشكلة من يفكر في كفره، أنه ينظر إلى الإسلام باعتباره عاطفة دينية، يميل فيها الوجدان، وينظر بها الإنسان، ولا ينظر إليه باعتباره مصدرًا، يوجه تفكير المسلم وشعوره وسلوكه، وأنه منهج تميز للحياة، له حكم وموقفه في تحديد أسس التعامل والعلاقات بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأسرته، وبين الإنسان ومجتمعه، وبين الناس في المجتمع الواحد بعضهم وبعض، وبين المجتمعات الإنسانية في حالة السلام وفي حالة...

(1) التوبة : 24. (2) الحشري : 8. (3) متي : (12 : 46 - 50).
الحرب، ولله في ذلك أصول وضوابط متفق عليها، وتفريعات مختلفة فيها، وقد جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». لقد أجمع علماء المسلمين من كل المذاهب، وفي كل العصور، على أن الشريعة حاكمة على جميع أفعال المسلمين، ولا يخلو فعل الكفّان من حكم شرعي من الأحكام الخمسة المعروفة؛ وهي: الوجوب، والاستحباب، والحرمة، والكراهة، والإباحة.

وللذا يستغرب المرء من الكاتبين المتضمين إلى الإسلام، حين يصرون أحكامًا هائلة توجب على المسلمين أن يفعلوا كذا وكذا، وأن يتركوا كذا، جاهلين أو متجللين أن المسلم إنسان ملزم، ملتزم بمنهج رباني، حدد له وراءه وانتماءه وعلاقاته وارتباطاته، فمن أحكامه يعتمد، وعلى صوته يثير، ويجادله يحب ويكره، ويرضى ويسخط.

* * *

183
علمانيون ومتمدنون!!

استدل د. فؤاد زكريا، على مشروعية العلمانية في المجتمعات الإسلامية بشهاته، لا قيمة لها من الناحية العلمية والمنطقية ...
من ذلك قوله: إن الزعيم مصطفى النحاس كان رجلاً متمدناً، لا يشك في تدينه، ومع هذا كان يدين بالعلمانية!
ويكتب أن أضيف إلى ما ذكره الدكتور رجلاً آخر، كان يلقب بـ "الرئيس المؤمن"، وكان له علامة سجود في جبهته، وكان يعتني المثير ويؤم المصلين في بعض الأحيان، وهو - مع هذا - صاحب المقوله المشهورة: لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين!
وإني لأعجب كيف يهبط الدكتور إلى هذا المستوى من الاستدلال المتهافت، الذي لا يقوم على علم ولا منطق.
ذلك لأن من المعلوم أن لدى مسلم، عند مبادئ معرفة بالإسلام، أن تصرفات الأفراد - أي كانوا - لا تكون ديللًا على مشروعية ما صنعوا؛ لأن أعمالهم وأقوالهم قابلة للتصواب والخطأ، ما داموا غير مصوصين. وإذا توزن تصرفاتهم بمقترح الشرع المصوم، فما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو رد.
وما أبلغ ما قاله ابن حزم، لمن يستدل بقول أحد الأئمة الكبار في بعض المسائل:
لا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ.
بل أكثر من ذلك أن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال لم احتج بقول أبي بكر أو عمر أو فلهم (رضي الله عنهم) في مواجهة بعض السنن النبوية، قال: بوسكي أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر!!
فإذا كان مثل مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، بل مثل أبي بكر وعمر، وغيرهما من الصحابة الكرام، لا يحتاج بما قالوه أو فعلوه، إذا لم يسنده دليل.
شرعي، كيف يحتج بصرف زيد وعمرو من الناس؟! هذا خطأ منهجي في الاستدلال، لا يجوز اللجوء إليه.

على أن القول بأن فلانًا من الناس كان متدينًا، وهو يدين بالعلمانية، يعني أنه يرفض تحكيم شريعة الله، قول ينقيس الآخر يوجهه، إذا كيف يعتبر الشخص متدينًا. وهو يرفض تحكيم الله وحكم رسوله، وصريح القرآن يقول: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخبرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد صل ضلالًا مبينًا" (1).

وقال تعالى: "إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بيتهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، ولن نحن المفتيون" (2).

وإذا وجد واحد من الزعماء، يصلي ويصوم ويحج ويتعمر، وهو - مع هذا - يؤمن بالعلمانية سببًا للحكم، ف مثل هذا ربما وفق نتيجة لأزدواج الشخصية، الذي أصيب به كثير من المسلمين، فقد حالت حدوثهم متباينة مناقضة، فهو يؤدي الفرائض الشخصية، وممارسة الشعائر التعبدية، ولكنه لا يحيا في بيته وأسرته حياة إسلامية، فيزوجه أو ي引き أبنته تخرج مبرجة، قد يغشى حلقات الرقص، وهو نفسه قد يفعل هذا، فيراقص، أو يجلس على مواقد الخمر، وإن لم يشربه، وكل هذا من المحرمات البدنية في دين الله، فإذا سألته كيف يستقيم هذا مع الصلاة والصوم؟ قال: هذه نكرة، وذلك نكرة!

ومثل ذلك يقال في قبول العلمانية والفاهمين النافذة للإسلام، عقيدته أو شريعته، أو قيمة، ممن يتوعد الدين الشعائري التقليدي. إن هذا، ولا ريب، هو المنافق، الذي يجب الاعتدار عنه، ولا يجوز الاحتجاج به. إن هذه النماذج ثمرة لفترة "التجليل" التي مر بها المسلمون، عندما دخل عليهم الاستعمار الثقافيصاحب الاستعمار العسكري، والذي استمر بعد رحلته، والذي يعده أولو الألباب أشد خطراً من الاستعمار العسكري.

---

(2) النور: 51.
(1) الأحزاب: 36.
إن كثيرين من أبناء ذلك الجيل، الذي تربى في ظل المدارس المدنية، التي أشرف الاستعمار على مناهجها وحدود أهدافها ووسائلها، وصبغها بالصبغة التي يريد، وكان من أول أهدافها تجهيل المسلمين بإسلامهم، بل تشويه صورته في أذهانهم، في مقابل تنظيم كل ما هو عربي.

فلا غرو إن جهل أكثر هؤلاء حقيقة الإسلام، وشمولي وتوازنه، فحسبا بالإسلام نصرانيية أخرى؟ عقيدة بلا شريعة، أو سلامًا بلا جهاد، أو دينًا بلا دولة، بالمعنى الذي يفهمه الغربي المسيحي من كلمة "دين".

هذا بعض ما يمكن أن أعتذر به عن زعيم مثل مصطفى النحاس، إن صح أنه بقي على إيمانه بالعلمانية، فقد ذكر في بعض المناسبات الدينية أنه يؤمن بالإسلام عقيدة ونظامًا، ونرجو أن يكون هذا ما تؤهله الله عليه، وختتم له به.

وأما أصدق ما قاله الإمام ابن القيم تعقيبًا على عبارات بعض مشاهير الصوفية، مما لا يتفق مضمونه مع الإسلام، قال: أفهم ما أعذر به عمن قال هذا أن يكون شاطحًا مفترًا بسطحه، أو جاهلاً معدورًا بجهله!

* * *

١٨٦
قيام الصحوة الإسلامية
بين الحقائق والأوهام

عرض: فؤاد زكريا للحديث عن الصحوة الإسلامية، وقيام الجماعات الدينية في مصر، في أكثر من موضع، وأكثر من مناسبة، وحاول جاذباً أن يعلل وبفسر أسباب ظهورها وبروزها، وفرضها نفسها على الساحة السياسية والثقافية، وسيطرتها على قاعدة واسعة من أبناء مصر في الجامعات والمعاهد وغيرها.

ولكنه مع قدته في التمحل، وبراعته في الغرار من الحقائق الناصعة وتعومة ملمسه في تناول القضايا الشائكة، جاء حديثه ضبطياً متناقضًا، منافياً لأبسط المسلمين في الدين والعلم والفكر والتاريخ.

يقول الكاتب: هناك ما يشبه الإجماع بين الباحتنين على أن هزيمة 1967، وما أعقابها من شعور عام بالانكسار، كانت هي العامل الرئيسي، الذي أعطى الحركات الدينية في السبعينات طابعاً المميز، ومن هنا كانت الأفكارات الدينية في هذه الفترات بالذات، توصف بأنها رد فعل على الهزيمة. هو رد فعل الياسمين الذين سدت في وجههم الأبواب، فأخذوا ينتسمون العون من السماء، أو من التاريخ البعيد، وبدأ لهم أن إحيان الحاضر وظلامه، لن يبتعد إلا بقطة وصحوة تعيد أمجاد الإسلام في عصوره الأولى من جديد.

هذا ما أجمع عليه الباحتنين، كما يقول كاتبنا د. زكريا، ولكنه يرفض - رفضًا قاطعاً - هذا الإجماع أو شبه الإجماع؛ لأسباب أو لسببين ذكرهما، في غاية الضعف والتهافت.

الأول: رضم أن السنوات التالية لسنة 1967 م، شهدت مظاهرات تطالب بمحاسبة المسؤولين عن سنة 1967 م، وتعجن معركة التيار، وفي جميع الحالات كانت الديمقراطية وتحسين أحوال المعيشة من أمور المطلب، التي تتاح بها الجمهور، ولم يكن للحركات الدينية دور كبير في هذه التحركات الشعبية، بل...
كانت هناك قوى متعددة، تغلب عليها الصفة العلمانية، هي التي تسيطر على الشارع، وعلى طبة الجامعات بوجه خاص. وهكذا فإن رد الفعل الأول والثانيا على الهزيمة، لم يأت على يد الجماعات الدينية.

وهذا غريب أن يصدر من الكاتب، فرد الفعل على الهزيمة لا يظهر في اليوم التالي للهزيمة .. إنه يقبر يولد وينمو وفق السن الكونية، حتى يشب وينضج .. إنه يخط مجرى في الفكر والعقل والشعر والنذر، حتى ينشئ الإنسان خلقاً آخر.

إن الذي ذكره الكاتب من مظاهرات كانت في نفس الخط، الذي سبب الهزيمة، وهي بعض إثراءات أو مكوناته. وربما كانت من صنع أجهزة السلطة وعملائها.

ولم يكن - على أي حال - متوقعاً من الحركات الدينية أن يكون لها دور عقب الهزيمة مباشرة؛ لأن أبناءها القدامى كانوا وراء القضبان في السجون والمعتقلات، وأبناءها الجدد كانوا في رحم الغيب، أو في مهد الطفولة، لم يشوا عن الطرق.

بعد.

ثم يقول الكاتب مثيراً إلى السيب الثاني:

"ومن جهة أخرى، فإن كان ظهور هذه الاتجاهات الدينية رد فعل بآي معنى على الهزيمة، والربط به ظهور برامج خطط، لدى هذه الجماعات تساعد على تجاوز هذه الهزيمة، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث .. إلخ.

ولا أدرى كيف يفهم الكاتب رد الفعل، إنه يريد أن يرسم له صورة، لا تنطبق إلا على فتته، التي يسميها "التقدمين".

لكن رد الفعل، الذي فهمه كل الناس خاصتهم وعامتهم، يتمثل في ذلك الشعور العام بأن الناس في حاجة إلى الله، والاستفادة على أمه، والاستمضاك بذكائه. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لأي إنسان: أن ترهد الشدائد إلى الله، فيدعي عليه، يمني إليه. وهو أكثر طبيعة بالنسبة لشعب كالمصري، عميق الحاسة الدينية، ولا يحرك كوايته وقدراته شيء، كما تحركه كلمات الدين والإيمان.

188
أجل، كان شعور الجمع لنافظ في حاجة إلى بناء الإنسان، الذي خبرته الأوضاع الفاسدة، والأفكار المستوردة، ولا أمل في نصر أو رحمة أو استقرار، ما لم يكون هذا الإنسان الصالح، الذي يصنع الله به النصر والتنمية والتقدم والرحمة.
 فلا غرو أن يكون التركيز على بناء الإنسان على العقيدة السليمة، والعبادة الصليحة، والأخلاق الفاضلة، وأن تقوم الجماعات الإسلامية على هذا الأساس، وإن شابها في بعض الأوقات شيء من الشطح، أو الغلو، نتيجة لتعدد المدارس المؤثرة، أو لقلة الموجهين الثقاف، أو لغايهم عن الساحة في أول الأمر، حيث كان بعضهم لا يزال في غياب السجون، وبعضهم لا يزال في أرض الهجرة، ولم يلبث الأمر قليلاً، حتى اعتدل الميزان، وغلب الوسط على التطرف، وساد تيار الوسطية المعتدلة المستقر.
 إن مشكلتنا يا دكتور ليست في "نقص برامج التنمية"، وإن كانت ضرورية ولابد منها، وإعدادها فرض على العاملين بالإسلام، وقد أعدوها منها الكثير.
 ولكن المشكلة هي فقدان الإنسان، هدف التنمية، ووسعتها، وصعوبتها، الإنسان الذي يتميز بوعي العقل، وصحوة الضمير، وصدق العزيمة، وظهارة السلوك، وهذا هو الفراغ الملموس، الذي يحاول الجماعات الإسلامية أن تملأه.
 لقد كَّال الكاتب جزائياً لشباب الجماعات الإسلامية، وأفرغ كل ما في جعبته من صفات الدم على هذا الشباب، من تطيل العقل، وتحجيد الفكر، وملك النقد والأبتكر، والطاعة العمياء، للرؤساء، أو الأمراء... إنَّما قال...
 والحقيقة أن الكاتب هنا مخطؤ، في عدة أمور:
 مخطوطة في التعليم، حيث لا ينبغي التعميم، فلم يكن كل الشباب كما وصف!
 ومخطوطة في المبالغة، حيث يحاول أن يضخم بعض المأخذ، وينظر إليها بتكروسكوب!
 ومخطوطة في تجاوز الجوانب المضيئة في حياة هذا الشباب، من غيرة، وطهارة، واستقامة، واستعداد للتضحية في سبيل الله، ونصرة الإسلام!
وقد كان في بعضهم - كما أشرت - بعض الميل إلى التشدد والتنطع، فلما ارتدوا إلى الطريق من يتقون بعلمه ودنه، سرعان ما رجعوا إلى الصراع المستقيم، راضين مطمئنين، وسرعان ما نفوذ الحب من بينهم، كما ينتظى الكير خيير الحدود.

ويعد الكاتب إلى الحديث عن انتشار الحركات الدينية في السبعينات، فيضيف إلى ما ذكره، "ما سماه "عامل الدعم والتشجيع"، "فليس من شك من أن الدولة تغاضت في ذلك الحين عن نشاط الجماعات الدينية، بل إن البعض يذهب إلى حد القول أنها ساعدت على تدريب فئات منها. وكان هذا موقفاً، هو الخط الرئيسي الثاني، الذي وقع فيه ثورة يوليو في تعاملها مع الباري الدين. بعد عرف السبعينات جاءت مجازة السبعينات... وعبارة أخرى: كانت السياسة الرسمية هي الاستعانة بالحركات الدينية إلى المدى الذي تفيد فيه الدولة، وتستمتع على تحقيق أهداف خاصة، رغم أنها داخلياً وخارجيًا اهت، بحروفه.

والمحظ أن أكثر ما يضايق كاتبه الدكتور، هو تغاضي الدولة عن نشاط الجماعات الدينية على حد تعبيره. 

أنا إن الذي ألمد. فؤاد زكريا، ومن على شاكلته، أن الدولة في عهد السادات سمحت للثوار الإسلامي أن ينفس، ويفرغ عن نفسه، كما سمح لكل الثوار الأخرى، التي انتشرت باليدان فترة طويلة من الزمن، وثبت على أجهزة الإذاعة توجهها لحساب مبادئها وأهدافها. في الوقت الذي كانت الثوار الإسلامي سجيناً، تحققت أفكاره، وكان أباه تنشئ السياط جلوسها، وتهشم الكلاع لحومهم، وتفشح آلات التذبح عظامهم.
فهو - دائمًا - يستعيد السلطة على هذا التيار، ويثيرها لمعاداته، بالتصريح حيًا، وبالتملحم دائمًا. إن الكاتب يزعم أنه من أنصار الحرية والديمقراطية، ولكنه يربط حرية كل التيارات، إلا التيار الإسلامي.

أحراز على بلادنا السّدّود خلّة للظلّ من كل جنس؟! كل دار أهِب بالاهْتُهّن إلا في خِلّة من المذهبِ رجُس! أما الدعم والتشجيع الذي زعمه؟ فقد كان لفترة خاصّة محدودة، هي جماعة التكفير والهجرة، ولم يكن ذلك لوجه الله، بل لاستخدامها فيما بعد في ضرب الحركات الدينية الأخرى.

ولو كان هناك دعم وتشجيع حقيقة، لحظيت به كبرى الحركات الإسلامية في مصر والعالم العربي، وهي حركة الإخوان المسلمين، التي لم تسعّط أن تحصل على وجود قانوني لها، وأن ترد إليها بعض حقوقها وممتلكاتها ودورها ومؤسساتها، وهي تقدير بعشرات الملايين. ولولا وجود مجلة الدعوة، التي كان ترخيصها باسم المرجح صالح عشماوي، الذي كان محافظًا على صدورها، حتى لا تسقط رخصتها، ما وجد الإخوان سبيلاً للتعبير عن أنفسهم.

ويؤخذ من حريّة من أمرنا كاتبنا في كثير مما يكتب عن الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، ترى أنه عاجز أن يفهم، وهو أستاذ الفلسفة ورئيس قسمها؟! أم هو لا يريد أن يفهم، كما يقول الإنسان عنقه؟ أو يشع بوجهٍ أو يغمض عينيه، إذا رأى شيئًا يكره، أو يؤذيه مجرد رؤيته؟! أم هو يفهم ويعرف، ولكن يكابر، ولا يريد أن يعلن، كالذين قال الله فيهم: «وَجَّهْوا بِهَا وَأَسْتَبْقَّينَهَا أَنْفُسَهُمْ» (١).

الحق أن كاتبنا - أستاذ الفلسفة - في تحليله لأسباب الصحوة الإسلامية، وقيام الجماعات الإسلامية في الجامعات وغيرها، مخطئ من عدة أوجه:

(1) النمل: 14.
1 - هو مخطوطة في محاولته الجاهدة لتلبية أسباب الصحوة وعواملها، وردها إلى سبب واحد لا شريك له، شأن أصحاب التفسير الواحد للمؤلف. وما لا يخفى أن الصحوة ظاهرة لها أسباباً الدينية أولى ثم العقلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومحاولته تغلب سبب على آخر، بالإدعاء، أو بالتوقف، أو بالتمهل أمر يرهق المنطقة والواقع.

2 - وهو مخطوطة في اعتباره الصحوة حالة طارئة، أو حالة شاذة، خلاف الأصل، كما يقول الفقهاء.

والواقع أن الأصل في أبناء الإسلام هو البقاء والصحوة، وهو الولاء للإسلام والاعتزاز بالانتماء للإسلام، والالتزام بفرائضه آدابه، وعلى أن يؤلون: ما جاء موافقاً للأصل لا يسأل عنه، وما جاء على خلاف الأصل يحفظ، ولا يقياس عليه.

ولكن الكاتب وأمثاله من العلمانيين يعتبرون ما كان في عهد التخلف الملك، والاستعمار المتحكم، والمغبان المسلط، هو الأصل، ويقولون: لم تعرف في مصر في الفترة الماضية هذا اللون من التدين العنيف، يريدون أن يجعلوا ذلك التدين المتقوق هو الأصل.

3 - وهو مخطوطة في ظن أن التيار الإسلامي ينحصر في شباب الجماعات الإسلامية، ولا شك أنهم يمثلون العصب الحي، والنساء الجبر للتيار الإسلامي، ولكن هذا التيار يتمثل في قاعدة واسعة عريضة من أبناء مصر، ويغلف في كل الأوساط وفي جميع الطبقات، وقد نبه على هذه الحقيقة المستشار عبد الرحمن عيان، نائب رئيس محكمة النقض في القاهرة، في رده على د. فؤاد زكريا، في الARGER، وهذا أمر لا يجهله أحد يقطن لما يثور في أعماق الشعب المصري، وما يشغل عقله وقلبه، وما يؤثر في تفكيره وسلوكه.

4 - وهو مخطوطة في اعتباره الصحوة المعاصرة بيت اليوم أو وليدة الأمس القريب، والمراقبون الأثرياء يعلمون - علم النزيف - أن صحة اليوم امتداد لصحوات سابقة، وثورة تجهد حركات إسلامية كبيرة، وجهود مجدد إسلاميون مخلصين، صدقوا ما عهده الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلاً تبدلاً.

192
ولا ريب أن ما قدمه هؤلاء من تضحيات، وما صبروا عليه من تعذيب وتكيل، وما خفقوه ورهامهم من فكر إسلامي ملا المكتبات، كان بعض الشعور، التي أضاءت الطريق أمام الشباب في ظلالات التيه والضياع.

5 - وهو مخطئ - كذلك - في فهمه لطبيعة الشعب المصرى، وعدم الغوص في أعمقاه، فالشعب المصرى شعب متدين، وطبيعته دينية، ولا يحركه شيء، كما يحرك الدين، وهو قديمًا، بني الأهرام باسم الدين، وفي العهود الإسلامية، انصهر على الصلبة ومنحت باسم الدين، وحديثًا قام اليهود والإغليز باسم الدين، والانصار في معركة الغياب، واقتحام خط بارليف في حرب رمضان، إما تحقق باسم الدين، ومن تجاهل هذا، فإما يتجاهل الحق والواقع والتاريخ.

6 - وهو مخطئ كذلك في ظنه أن الصحّة يمكن أن يصنعها حاكم كلا أدوات أو غيره، والصحّة الحقيقية لا يصنعها قرار حاكم، فهما يكلد، وقدرته، إنه يمكن أن يصنع مظاهر وفقرات دينية، تقوم على المال والأعمال، والاحتفالات والدعوات، والأكاذيب، ومرواك النفقات، وكتب الأطراف من فقهاء السلك، أو علماء الشرطة، ولكنها أقل وأقل وأقل من أن يصنع شيئًا حقيقًا والتزامه إسلاميًا، ينبع من القلب، ويتجسد في عمل بالإسلام، وعمل بالإسلام، ودعاية إلى الإسلام.

وقد عجز السادات، ومن قبلهم كان أشد عنيفة مثأرًا عن إقامة حزب سياسي جماهيري، يغلف طواعية في قواعد الشعب، فأخفق الجميع إلى اليوم إخفاقًا دريئاً من هيئة التحرير، إلى الاتحاد القومي، إلى الاتحاد الاجتماعي، إلى حزب مصر، إلى الحزب الوطني الديمقراطي، فكيف عجز الحاكم وأخفق وفشل في إقامة حزب شعب سياسي، مع ما له من تفوؤد وسلطة، وما يملك من سيف المتعة، وما لديه من إمكانات الدعاية والإعلام، ثم يقدر على أن ينشئ بإرادته صحة إسلامية تُقد أائدة انتشام شعبًا في الشعب كله، وخصوصًا في شبابه المتغلف، الذي هو هيئة الحاضر وأمل المستقبل؟!

7 - وهو مخطئ أيضًا - في ظنه أن الصحّة مقرونة على مصر، حتى يربطها بحاكم من حكامها، أو يعذب من عهودها. إن الصحّة أسوة في مكان من مصر، كما أنها أسوة في الزمان من عهد حاكم بعينه.

(م - الإسلام والعلمانية)
إنها صحتة في العالم العربي كله مشرق وغربي، بل في العالم الإسلامي كله آسيوي وأفريقيا، بل هي صحتة امتدت خارج العالم الإسلامي، فقد رأيت آثارها في أوروبا وأمريكا، وبلاد الشرق الأقصى، حتى رأيت شابًا يذهبون من بلد الخليج والعالم العربي إلى أوروبا وأمريكا للدراسة، غير ملتزمين بالإسلام، فيعودون من هناك ملتزمين به، فكرًا وسلوكًا، ودعوة وجهادًا!

فإننا فرضنا - وفرض المستجيب جائز، كما يقولون - أن الصحتة في مصر صنعها الحاكم المتولى، فمن ذا الذي صنع الصحتة في كل أنحاء العالم؟!

إن الصحتة هي الشيء الوحيد المنطقي والطبيعي في منطقتنا العربية والإسلامية، وثباثها هو التيار المعرف عن ضمير الأمة، وعن هويتها، وعن آمالها وطموحاتها، وهو قادر على البقاء والصمود والانتصار في وجه الأعاصير، لأنه يمثل الحق النافع، لا الزبد المتشقق على السطح، فأما الزبد فيذهب جفًا، وأما ما ينفع الناس فيمثّل في الأرض.  

* * *

(1) الرعد: 17.

194
 موقف الاستعمار والصهيونية من الصحوة الإسلامية

وهناك اتفاق على أن من أشد أساطير حياة ناطقة بضمانة النصر، النزول الذي يشيعه كثير من.

وفي اعتقادي أن من أشد أساطير حياة ناطقة بضمانة النصر، النزول الذي يشيعه كثير من.

ويجب أن نرى أن الاستعمار بوجه عام، والصيرحية بوجه خاص، يخشون الصحوة الإسلامية، ويعملون على محاربتها، ففي مسيرة الانتفاضات، التي قُررت فيها أن تكون توجيه أمريكياً، وفي السعودية يظهر التحالف بين التزام الإسلام الذي يعرى معظم الحركات الإسلامية في الأقطار العربية، رعاية مادية ومعنوية، وبين خدمة المصالح الأمريكية، بصورة لا تخطئها العين، وفي السودان أصبح الإخوان حلفاء القادم، حين طب شريعته، التي لم يكن لها من الإسلام إلا الأمة، وفي إسرائيل تكف سلطات الاحتلال إلى جانب الطلاب، المنتسبين إلى الجماعات الإسلامية في جامعات الأرض محللة، لا أدرى كيف يجري الكاتب على مثل هذا القول، وآلاف الشواهد تكذبه؟

وكيف يطالع قلبه أن يكتب، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الحركة الإسلامية مضطهدة من الغرب والشرق على السواء، وأن ما حاول بها من معن ومحامي، بريرة، كان بإيصال القوى الخارجية المعادية للإسلام?

والحق أن ما يقوله الكاتب مخالف للمصالحة الثورية الذين، الذين يعلن نصوصهم القاطعة موقف القوم من الإسلام وأهله، وخصوصاً العاملين والتحركين منهم، يقول القرآن:

"وان تربصى عناك اليهود ولا النصارى حتى تبع متلكهم" (1).

"يريدون أن يطفئوا نور الله بأقوامهم وبياني الله إلا أن يَتَم نوره ولَو كَرَهَ الكافرون" (2).

(1) البقرة: 22
(2) النبأ: 120
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم. إن استطاعوا 1.

هو مخالف تمام المحالفة لمنطق التاريخ، فمنذ الصراع مع بنى قينقاع، وبنى النضر وبنى نقضية من اليهود، ومنذ معركة مؤتة، وغزوة تبوك، وموقعية البرموط مع النصارى، ومعارك حطين، وبيت المقدس، والمصورة، ودمياط، وغيرها مع الصليبيين، والحرب لم تتوقف، وهي مستمرة، وإن تغيرت الأسلحة، وتبدلت الأسماء.

وهو مخالف تمام المحالفة للواقع، الحاق بالشواهد والأدلة على أن القوم لا يخشون غير صحة الإسلام، وخروج المارد من القلم، الذي حبس فيه بالقهر أو الخيلة.

وإستطاع أن أنقل هنا شيئا قليلا قليلا، مما نشره الصحف العربية من قلق اليهود والصليبيين المستعمرين من الصحوة الإسلامية، ورعبهم من أي تحرك إسلامي، وعملهم الدواء لإخماد كل حركة بالدم والحديد، خشي أن تتحول إلى ثورة، فدولة.

على أن ما ينشر بالعربية هو شيء قليل قليل، مما ينشر باللغات العالمية، وكذلك ما ينشر هو قليل قليل، مما يكتب في تقارير سرية بين دوائر المخابرات، وصناع القرار، وموجه السياسات، من وراء الستار.

• الوثائق والحقائق تتكلم:

ولن آتدم فيما أنه هو من موقف اليهودية والاستعمار من الصحوة الإسلامية، على استنتاجات الدعاية والفكرين المسلمين، وتبنيتهم، بل على المعلومات المؤثرة المتقلبة عن المصادر اليهودية والعربية نفسها، دون تدخل بتفسير أو تعليق. فالحقائق - وحدها - هي التي تتكلم.


(1) البقرة : 217.
وانتقدت فيه بشدة قيام التلفزيون اليهودي بإجراء مقابلات مع الخائن الماروني سعد حداد، وانتقدت تمادى التلفزيون اليهودي في إبراز معلوم الفرح والبهجة، التي عمت القرى المارونية النصرانية، إزاء احتلال الجيش اليهودي لجزء كبير من جنوب لبنان.

وأعربت الصحيفة انتقادها بأن ذلك التصرف الطائش تسبب في حدوث ردة فعل عنيفة بين المسلمين في لبنان، وكل البلاد العربية، وحتى في فلسطين المنحلة أيضًا، وأن ذلك قد حرك فيهم الروح الإسلامية من جديد، وهو الأمر الذي ظلت "إسرائيل" وأصدقائها محاولون كتبه، والقضاء عليه طيلة الثلاثين عامًا الماضية.

وأعربت الصحيفة بكلمات قائلة:

"إن على وسائل إعلامنا أن لا تنسى حقيقة هامة، هي جزء من استراتيجية إسرائيل في حربها مع العرب، هذه الحقيقة هي أننا قد نجحتنا بجهودنا، وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، طوال ثلاثين عامًا، ولهذا يجب أن يبقى الإسلام بعيدًا عن المعركة إلى الأبد، ولهذا يجب أن نبذل لحمة واحدة من تنفيذ خطتنا في منع استياس الروح الإسلامية بأي شكل، وبأي أساليب، ولو أفضّل الأمر الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف والبطش لإخماد أي بادرة تيسّر.

الروح الإسلامية في المنطقة المحيطة بنا ".

واختمت الصحيفة بكلمات قائلة:

"ولكن تليفزيونا "الإسرائيلي" وقع في خطأ أرعن، كاد أن يفسد كل خططنا، فقد تسبب هذا التصرف في إيقاظ الروح الإسلامية، ولو على نطاق ضيق، ونخشى أن تستغل الجماعات الإسلامية، المعروفة بعاداتها لإسرائيل، هذه الفرصة لتحريك المشاعر ضدنا، وإذا نجحت في ذلك، وإذا فشلنا - بالمقابل - في إقناع "أصدقائنا" بتوجيه ضربة قاضية إليها في الوقت المناسب، فإن على إسرائيل حينذاك أن تواجه عدوًا حقيقيًا "لا وهميًا"، وهو عدم حرصنا أن يبقى بعيدًا عن المعركة.

وستجد إسرائيل نفسها في وضع حرج، إذا نجح المتخصصون، أولئك الذين يعتقدون أن أحدهم يدخل الجنة، إذا قتل يهوديًا، أو إذا قتل بحريًا.

197
وفي عددها الصادر في 17/12/1978
نشرت صحيفة الصناديق تلغراف البريطانية مقالاً بقلم بيرغرين دورستون، أشار فيه أن الغربيين يقعون في خطأ كبير، حين يظنون أن الخطر الذي يهدد مصالحهم في الشرق الأوسط هو خطر الشيوعيين؛ لأن الخطر الحقيقي الوحيد، الذي يهدد مصالح الغربيين وأصدقائهم في المنطقة هو خطر المسلمين المتطرفين، الذين تعاونوا نشاطهم بشكل مذدل، رغم كل ما أوقعته بهم النظام، الصديقة للغرب في المنطقة، من محن وتكبّل.

ويعود كتاب المقال أن الأحداث الجارية في منطقة الشرق الأوسط تشير إلى أن التيار الإسلامي المتطرف، أصبح قائماً في جميع بلدان المنطقة بدون استثناء.

ويقول الكتاب: إن أكبر خطاً يرتكيه الغربيون، هو عدم تفكيرهم - بجدية - بضرورة التدخل العسكري المباشر في المنطقة، في حالة عجز الأنظمة الصادقة عن كبح جماح المتطرفين المسلمين! ويؤكد أن شعور الغربيين بالندم وتأثيب الضمير إزاء تورتهم في الحرب الفيتامينية، يجب أن لا يكون سبيلاً في إقناعهم بعدم استعمال القوة العسكرية ضد المتطرفين المسلمين؛ لأن خطر هؤلاء المتطرفين المسلمين لا يقارن بأي خطر آخر، مهما كان.

وينتهي بيرغرين دورستون مقالته قائلاً:

"إن مجرد الاكتفاء بمواجهة الانتفاضة الإسلامية في الشرق الأوسط، لن يفيينا بشيء، وإذا لم نبادر إلى مقابلة هذه الانتفاضة بعنف عسكري، يفوق عنفها الدنيا، فإننا نكون قد حكمنا على العالم النصارى بمصير مهين، يجعله على نفسه، إذا استمرنا في مواجهة المسلمين المتطرفين.

(3) ذكرت صحيفة القبس الكويتية في عددها الصادر في 26/1/1979، نقلاً عن وكالات الأنباء العالمية أن موشي دايان، قال في خطاب ألقاه أمام وفد من الأمريكيين اليهود المتطرفين مع إسرائيل: "إن على الولايات المتحدة والدول العربية أن تأخذ العبرة من أحداث إيران الأخيرة، التي تضمنت عن اندلاع ثورة إسلامية، بشكل لم يكن متوقعاً أبداً.

198
وقال دايان:

إن على دول الغرب، وعلى رأسها الولايات المتحدة أن تعطى اهتمامًا أكبر للاحتلال واعتباره خط الدفاع عن الحضارة الغربية، في وجه أعراب الثورة الإسلامية، التي بدأت من إيران، والتى من الممكن أن تهب بشكل مفاجئ، وسرعان ومزدهر في أية منطقة أخرى في العالم العربي، وربما في تركيا وأفغانستان أيضًا.

وبنسبة غضب حائدة أكد موشيه دايان أن العدو الأول هو الإخوان المسلمون، وأنه لن يطمئن على مستقبل إسرائيل إلا إذا تم القضاء عليهم.

وانتقل موشيه دايان بعد ذلك إلى تهديد عرب فلسطين المحتلة المسلمين قائلاً:

إنهم أن يدركوا أن إسرائيل لن تسحب بخراجهم نحو الافترات الإسلامية المتخصصة، وأنه في الوقت الذي تشعر فيه إسرائيل أن العرب الذين يبقون فلسطين قد بدأوا في التمسك بالإخوان المسلمين، فإنها لن تتردد في القذف بهم بعيدًا، ليضموا إلى إخوانهم "اللاجئين".

(4) وفي تعلقها على أحداث إيران وتركيا قالت صحيفة "كمشل الفايجل"، التي تصدر في كولونيا بألمانيا الغربية:

إن الأحداث الأخيرة في تركيا وإيران، وعودة نشاط الافترات الإسلامية في مصر، وغيرها من الدول العربية، تعزى الدليل على أن الإسلام وحدة، وليست الدول الكبرى أو الأنظمةตะالية لها، هو الذي يلعب الدور الرئيسي في منطقة الشرق الأوسط.

(5) وقالت الصحيفة إن على الغرب أن يدرك - الآن - أن المستقبل القريب، سيشهد تحولات جذرية في منطقة الشرق الأوسط لمصلحة الافترات الإسلامية، وعلى الغرب، إذا أراد المحافظة على الحد الأدنى من مصالحه في الشرق الأوسط، أن يبدد مرونة في تفهم مفهوم الافترات الإسلامية، التي تعنى للحصول على كيان جديد قوي، يتفاهم مع "الإسلام".

(6) نشرت صحيفة الجروزلم بوست الصهيونية، في عددها الصادر في...
مقالة كتبها حاييم هيرتزوغ السفير اليهودي السابق لدى الأمم المتحدة تحت عنوان "كلا منا لا نخسر الأصدقاء، ونسأل من عضد الأعداء" قال في:

"إن ظهور حركة البقعة الإسلامية بهذه الصورة المفاجئة المذهلة، قد أظهرت بوضوح أن جميع البعثات الدبلوماسية، وقبول هؤلاء جميعًا، وكالة الاستجابات الأمريكية، كانت نغمة في سباق عميق".

وأردف حاييم هيرتزوغ قائلاً:

"إنه علينا أن نتفهم اليوم ظاهرة غريبة ومغيرة للاهتمام، ونحن في ثناياها الشر للمجتمع الغربي بأسره، وهذه الظاهرة هي عودة الحركات الإسلامية، التي تعتبر نفسها عدوة طبيعية لكل ما هو غربي، والتي تعتبر التعبير ضد اليهود بشكل خاص، وضد الأفكار الأخرى بشكل عام فريضة مقدسة".

(2) اعترف مسؤول يهودي كبير في سلطات الاحتلال اليهودي في فلسطين المحتلة، في مقابلة صحافية، أجرتها صحيفة ها آرتس الإسرائيلية، في عددها الصادر في 2 شباط 1979، بأن هناك مزيجًا من الدلائل تشير إلى تزايد المد الإسلامي، الذي بدأ يظهر بين عرب إسرائيل على حد تعتبر المسؤل اليهودي، الذي يبلغ عددهم حوالي نصف مليون، وبين عرب الضفة الغربية وقطاع غزة، الذين يبلغ عددهم حوالي مليون.
وقال المستند اليهودي: «إن الذي يثير قلقنا هو أن مواقيت العرب داخل إسرائيل بدأت تتحول من مواقيت منذية إلى قواعد دينية، وأن الشباب العربي بدأ يتحولون عن زعاماتهم التقليدية إلى الزعامة الدينية، التي يمثلها علماء الدين، وهم في غالبيتهم من الشباب الذين لا يمتد بوازن لهم ارتباطات بحركات إسلامية متعصبة. »

وبعده المستند اليهودي يقول:

«إن خطرًا حقيقيًا بدأ يهدد الاستقرار في الشرق الأوسط، وفجأة كبيرة من الأفريقيا، وهذا الخطر هو خطر انتشار ثورة إسلامية شاملاً يقوم بها متدينون متطرفون.»

وفي ندوة عقدتها أهم معهد أبحاث يهودي متخصص في رصد الشؤون العربية، كان موضوع احتمال انتشار «بيقطة إسلامية» في فلسطين المحتلة، هو الموضوع الرئيسي الذي تناوله عدد من كبار المختصين اليهود في الشؤون العربية، خلال ندوة خاصة نظمها معهد «شيلواج» في جامعة تل أبيب في أواخر شهر كانون الثاني 1979.

وقد اجتمع العلماء اليهود المشاركون في الندوة على أن البيقطة الإسلامية، التي اجتاحت إيران بصورة مفاجئة ومذهلة، وقد بإذن محسن، تبنت من ما حدث في إيران، يمكن أن يحدث في أي مكان آخر في المنطقة المحيطة بفلسطين المحتلة، ويكاد يكون أمرًا لا مفر منه أمام اليهود من التحسس له بشكل جدي.

وهكذا يهيئ متطلبات من أقوال العلماء اليهود المتخصصين في الشؤون العربية، الذين شاركوا في الندوة:

- البروفسور شارون: مستشار مناحيم برنان - رئيس وزراء الاحتلال اليهودي

الشأون العربية قال:

ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام، من حيث قدرته على اجتذاب الجماهير. فهو يشكل القاعدة الوحيدة للحركة الوطنية الإسلامية. »
البروفسور "يوشوا بورات" قال:

"إن المسجد هي - دائمًا - منبع دعوة الجماهير العربية إلى التمرد على الوجود اليهودي."

البروفسور "البريش" قال:

إن الإسلام قوة سياسية واجتماعية، قادرة على توحيد الجماهير، وخاصة في الضفة الغربية، حيث يقوم علماء الدين المسلمين بمهمة توحيد الصفوف ضد اليهود.

البروفسور "موشيه شارون" قال:

إن الجهود الأولى التي بذلت منذ أكثر من نصف قرن بواسطة علماء الدين المسلمين؛ من أمثال مفتى فلسطين الأسبق الشيخ الحسيني، والشيخ حسن البنا في مصر، وغيرها من العلماء المسلمين، والتي ما زالت حتى الآن، كان لها تأثير كبير في كسب العالم الإسلامي إلى جانب العرب الفلسطينيين باسم الإسلام وباسم حماية الأماكن المقدسة الإسلامية.

وختتمت الندوة أعمالها بالإشارة إلى عدة نقاط، كان أهمها الاختلاف بوجود بقعة إسلامية حقيقية، بدأت في الظهور بين عرب فلسطين المحتلة، رغم كل الجهود التي بذلها اليهود خلال الثلاثين عامًا الماضية لديهم في المجتمع اليهودي.

(8) وفي عددها الصادر في 21/1/1979، نقلت صحيفة "الرأي الأردنية" عن وكالة الأنباء الفرنسية أن صحيفة "الواشنطن بوست" الأمريكية ذكرت أن الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر طلب من وكالة المخابرات الأمريكية أن تفتح دراسة عن نشاطات الحركات الإسلامية في العالم كله.

ونسبت صحيفة "الواشنطن بوست" إلى "زيغينو بريجنسكي" مستشار البيت الأبيض - آنذاك - لشؤون الأمن القومي قوله:

"إن الإدارة الأمريكية تشعر بقلق بالغ بإزاء تزايد نشاط الحركات الإسلامية المشتركة في العالم الإسلامي وأن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى إعداد دراسة جديدة.

2021
حول الحركات الإسلامية المتعددة، ليسهل على الإدارة الأمريكية وأصدقائها في
المنطقة الإسلامية مراقبتها عن كثب، حتى لا نُفاجأ باندلاع ثورة إسلامية جديدة في
أي مكان في العالم الإسلامي؛ لأن أمريكا حريصة على عدم السماح للإسلام بأن
يلعب دورًا مكشوفًا في السياسة الدولية.

(9) وذكرت صحيفة "القبس" الكويتية في عددها الصادر في 24 من
أياد mooie الموافق 1979/1/24، أن مجلس الأمن القومي الأمريكي طلب من
هيئة المخابرات البريطانية تزويده الإدارة
الأمريكية بكل ما يتوفر لديها من معلومات تتعلق بالحركة الإسلامية، للاستعانة بها
في وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على خطرهم قبل فوات الأوان.

(10) أوردت وكالة الأنباء الفرنسية في نبأ لها من بيت المقدس بتاريخ 19 شباط
1979، أن السلطات الإسرائيلية قامت باعتقال اثنين عشرًا من علماء
المسلمين، ومعظمهم من الشباب في بيت المقدس.

ورأت الوكالة أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي بدأت تبت رجلاً في المساجد،
لرصد الشباب المسلم، الذي يرتاد المساجد بصورة متزايدة.

(11) نقلت صحيفة "القبس" الكويتية في عددها الصادر في 30/6/1986 عن
صحيفة "فورتشن" مقالًا تحت عنوان "الساحة الإسلامية: تقلص أمريكا...
وإسرائيل تتوقع جهدًا إسلاميًا مقدسيًا لتحرير الأراضي". و جاء في مقال "فورتشن"
ما يلي:

إن ساحة الإسلام الجديدة تزعم الإسرائيليين كثيرًا، فإسرائيل تعرف تمامًا أنه
إذا فشلت محاولات السلام مع مصر، فإنها ستكون هدفًا لـ "الجهاد المقدس"،
التي ستتشكل الساحة الإسلامية المتزامنة...

وتزعم صحيفة "فورتشن" قائلة:

"إنه حتى في الجماعات العبرية في إسرائيل بدأ الطلاب العرب المسلمون يبدون
اهتمامًا متزايدًا بالعودة إلى دينهم، وبدأت بعضهم يمارسون سياحًا على السلطات اليهودية
للسماح بفتح كليات للثقافة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، في الجماعات
اليهودية، كما بدأ العديد منهم يطلقون حملة رابحة ويؤيدون العبادات الإسلامية، في
حين بدأت الفتيات المسلمات في ارتداء الزى الإسلامي الشرعي..."
وقالت "فورتشن" في مقالها:

"إن استفتاء جرى مؤخرًا في الضفة الغربية أظهر أن سكانها - وخاصة المثقفين منهم - يطالبون بالعودة إلى الإسلام، بعد أن يشعرون أن النظام والأنظمة والأيديولوجيات التي تناعمت أنظارهم سنوات طويلة.

وأكدت الصحيفة تقول:

"إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يعيشون في بحر متوالم، يسيطرون عليه الإسلام، وأن إسرائيل مهددة بالغرق والانئثار في هذا البحر الإسلامي.

وقالت صحفية "القبس" الكويتية (12) في عددها الصادر في 7/8/1979، نقلت الصحيفة عن مقال آخر، جاء فيه ما يلي:

"إن الأنصار الدينية في مصر يدرس أقبادهم يوماً بعد يوم، فالشباب المصري مفتوح بالصحوة الإسلامية الثورية، كما أن الفتيات المصريات يبدنن اهتماماً متزايداً بالإسلام. وفي جامعة القاهرة زيد عدد الطلاب المسلمون بالفيت البحري، وقد يأتي يوم لا يبقى فيه طالب مصري واحدة إلا وقد ارتدت الزى الشرعي الإسلامي.

ودعت الصحيفة "فورتشن" تقول:

"إن هناك خطرًا كبيرًا من أن تتمكن الحركة الإسلامية من العودة إلى التأثير على الحياة السياسية في مصر، وهذا الأمر يخيف الرئيس السادات، الذي عبر عن خوفه بخطابه الشهير في جامعة الإسكندرية حين قال: إنه لن يسمح للدين بالتدخل في السياسة.

ووهذا الأمر تخشاه - أيضًا - إسرائيل؛ لأنها تعتبر أن الإخوان المسلمين هم من أشد أعدائها، الذين يهددون وجودها؛ لأنهم يرفضون الاعتراف بها، ويجهرون بالدعوة إلى إعلان الجهاد المقدس ضدها.

الإسلام قادم، ونحن في خطر عظيم...

(13) وأول ما نطالع في ملحق "ها آرتس" عن ظاهرة تزايد البقظة الإسلامية
في قرى المثلث العربي، المهملة منذ عام 1948، مقالًا عنوانه "الإسلام يعم قرى المثلث في إسرائيل...".
وجاء في المقال:
"إن يوم الجمعة من كل أسبوع، أصبح عيدًا لغالبية سكان باقة الغربية، وهي من أكبر قرى المثلث العربي في إسرائيل.
ويردد المقال قائلاً:
" إن سكان قرى المثلث لم يكونوا إلى ما قبل أشهر قليلة، وعلى مدى الثلاثين عامًا الماضية، لم يكونوا يكثرون أبداً أو يهتمون يوم الجمعة، فقد كان يمضي كأي يوم آخر من أيام الأسبوع، أما الآن، فقد أصبح ليوم الجمعة أهمية كبيرة؛ إذ ما أن يبدأ مئذنة المسجد برفع صوته بالأذان، حتى يهجر جميع السكان إلى المسجد، ليؤدوا الصلاة.
ويضيف المقال قائلاً:
" إن من يزور قرية باقة الغربية يوم الجمعة، يشعر أن النشاط فيها قد انتقل من الشارع العام، ومن المتنزه والمساكن والمقهى، إلى المساجد الثلاثة التي في القرية، ولست باقة الغربية وحدها، التي يشعر فيها الزائر بذلك، بل إنه يشعر بنفس الشعور، حين يزور قرى قلنسوة، وكفر قاسم، وأم الفحم، والطيبة، وكفر قرع، والطبرية، وغيرها من القرى العربية.
وإن ظاهرة تزايد البقعة الإسلامية في المناطق، التي يقطنها عرب في إسرائيل ليست مقتصرة على القرى وحدها، بل إنها تبرز في المدن أيضًا، وخاصة في عكا، وإجمالاً فإن القطاع العربي من إسرائيل يعيش حالياً مرحلة العودة إلى الإسلام، فقامت أحد الجمعيات، وخاصة الشباب يؤمنون المساجد بعد أن كانوا يمضون وقتهم في المدن الكبرى والمقهى والنوادي والاجتماعات الحزبية، وهذه ظاهرة لم تشهد الأقلية العربية لها مثيلاً من قبل.
وفي نفس ملحق صحيفة ها أرتس اليهودية الصادر بتاريخ 13/7/1979،

205
والذي خصصته كاملاً للحديث عن البقعة الإسلامية بين شباب قرى المثل العربي
بفلسطين المحتلة عام 1948م، نطول مقالاً آخر تحت عنوان:
"العودة إلى الإسلام من جديد، أملة وتساؤلات ... "
يقول المقال:
"طول الثلاثين عاماً المنصرمة، كانت الأقلية العربية في إسرائيل تمارس نشاطاً سياسياً متحفظاً، غالبًا ما كان تحت مظلة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، أما الآن فإن الأقلية العربية بدأت تتجه نحو اتجاهًا مختلفًا نحو جذورها وأصولها الدينية، ولقد أصبحت ظاهرة تزايد البقعة الإسلامية في صفوف الأقلية العربية، موضع اهتمام السلطات الرسمية، التي تنظر - بريئة وخوف - إليها.
ويردد المقال قائلاً:
"إن ظاهرة تزايد البقعة الإسلامية بين عرب إسرائيل !!، أصبحت مصدر قلق
أكد لكل يهودي، فقد أصبح كل يهودي يسأل بقلق وخوف هذه التساؤلات:
ما هي أهداف هؤلاء الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد ...؟!
ومن هؤلاء الذين يقنعون وراء هذه الظاهرة ... ?!
وهل حركتهم هذه حركة عفوية، لن تثبت أن تزول أم أنها ستتحول إلى حركة إسلامية ثورية، كما حدث في مناطق أخرى في الشرق الأوسط ...؟ !؟.
وقبل أن يبدأ المقال في محاولة الإجابة على هذه التساؤلات، يشير إلى أن الخطر الحقيقي، الذي تمثله ظاهرة العودة إلى الإسلام بين عرب إسرائيل، هو أن الآلاف من الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد، هم من طلاب المدارس الأدبية والثانوية ومعاهد المعلمين، أي أنهم من الجيل المثقف، ومن جيل المستقبلي.
ويتقل الكاتب بعدئذ إلى الإجابة على التساؤلات حول أهداف البقعة الإسلامية، ومن هم الذين يقنعون وراءها، فقوله: إنه لاحظ أن الكثير من رجال الدين، الذين
لهم نشاط مرموق، غالبًا ما يكونون من أعضاء الحركة الإسلامية، التي يصفها الكاتب اليهودي بقوله:

"إنها حركة دينية متعصبة، أنشئت في مصر عام 1949 م، وانتشرت في أنحاء العالم العربي.

ويشدد المقال قائلاً:

"إن النشاط الإسلامي ليس مقتصرًا على رجال الدين وحدهم، بل إن الاعتقادات والممارسات الدينية لهن دور كبير في تزايد البطقة الإسلامية بين عرب إسرائيل - حسب تعبيره - ففي قرية "لابقة" العربية مثلاً، تلقى واعظة شابة، تأتي من نابلس، دروسًا دينية كل يوم ثلاثاء أمام نساء ونساء القرية، وقد كان لهذه الدروس أثر كبير في عودة الكثيرين إلى الإسلام، وأملهم في العودة إلى الأمان.

(14) نشرت صحيفة "القبس" الكويتية في عددها الصادر في 16/1/1981، أن الجنرال الكسندر هيج، وزير خارجية الولايات المتحدة في عهد الرئيس رونالد ريجان، قد أكد أنه يؤمن إيمانًا عميقًا بأن المساعدات الأمريكية لنظام الرئيس آخر السادات ستعزز قدرته على الصمود أطول مدة ممكنة في وجه الخطر الخارجي، الذي يتهدده، بالإضافة إلىخطر الأطم، الذي يتمثل في تعامل نفوذ الحركة الإسلامية في مصر.

(15) ونقلت صحيفة الشرق الأوسط في 28/2/1981، التي تصدر بالعربية في إسطنبول، وقعت في وقت واحد، تحريلاً بتهب وكالة روبرت حول اكتشاف تنظيم إسلامي في فلسطين المنتظرة منذ عام 1948 م، وجاء في التحليل:

"إن الصحوة الإسلامية التي انتشرت بين سكان الأراضي المحتلة في فلسطين، تثير قلق سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وأن هذه السلطات تنظر بقلق إلى تزايد أعداد المترددين على المساجد، وخاصة الشباب الذين أصبحوا ينادون - علانية - بضرورة العودة إلى أصول الدين والإسلام.

207
وانتهت وكالة أتذهب رويتر تحليلها قائلة:

إن السلطات الإسرائيلية لا تخفي قلقها من أن تكون هذه الصحوة الدينية بين شباب فلسطيني المحتلة منذ عام 1948م، قد أدت إلى تشكيل منظمات إسلامية شبه سرية على غرار جماعة الإخوان المسلمين.

هـ. (16) نشرت صحيفة "الرأي" الأردنية في عددها الصادر في 20/1/1981م، تحليلًا نشرته صحيفة "الايكونومست" البريطانية، جاء فيه:

"بعد أن توقف نهر النيل عن الفيضان، ظن الناس أن عهد الفيضانات في مصر قد انتهى، ولكن ذلك لم يكن صحيحًا، فإن مصر تشهد اليوم فيضانًا عارمًا، ولكن من نوع جديد، ذلك هو فيضان الإسلام المكافح بقيادة الإخوان المسلمين. ليس بمقدور السادات ولا النميري أن يوقفوا الإصلاحي المتصاعد في مصر والسودان.

وتختتم "الايكونومست" تحليلها بتوقيع نصيحة مبسطة، تؤكد فيها أن الوسائل العادية في محاولة الحركة الإسلامية لن تجد نفعًا في القضاء عليهم، وأنه لابد من اتباع أسلوب أشد طابعًا وقمعًا، للفتك بالحركة الإسلامية والقضاء عليها.

وتنهي "الايكونومست" تحليلها بهذه العبارة، التي تخرف من خلالها:

من الأساليب، التي كان ينبغي السادات والنميري في محاولة الإخوان، فقول:

"إن كل محاولات السادات والنميري لتطبيق نشاط الإخوان المسلمين بالأساليب، التي يتبناها حالياً، يبدو أن أشباه ما تكون محاولة طلول صغر يضع أصبه في ثقب صغير في سد كسد أسوان، ليمنع انهيار الماء المتكد من آلاف النقوب الأخرى في السد.

هـ. (17) نشرت جريدة "الرأي" الأردنية في 12/4/1981م، ترجمة حرفية لدراسة نشرتها جريدة "يديعوت أحرونوت" في ملحقها الأسبوعي الأخير، ونقطف من الدراسة هذه العبارات:

- "إن الحركة السرية، التي تنشط في فلسطين المحتلة عام 1948م، قد رسمت خطواتها بروح الإسلام، ولم تتأثر بآية روح قومية أو وطنية أخرى".
- الشاب المسلم في فلسطين بعد أن فقد الأمل في جميع الحركات العربية، أصبح يصرخ بأعلى صوته:

(لا عزة ولا قوة، إلا بالإسلام).

- إن المساجد التي كانت في السابق مقرًا لتجمع الشيوخ والعجائز، أصبحت اليوم ملبية بالشاب.

- الفتيات المسلمات يشاركن في نشاطات الحركة الإسلامية في فلسطين.

- الخطب في المساجد تحولت إلى خطب سياسية، فيها تهديد واضح ضد الحكم الإسرائيلي.

- الحركة الإسلامية تتصور وتمثيلها إلى صفوفها اليوم، أكثر من عشرين بالمائة من شباب القرى العربية في فلسطين المحتلة عام 1948م.

- دعاة الحركة الإسلامية يقولون لمؤيديهم: إنهم من أجل بروح الإسلام في فلسطين، فلا بد من الجهود إلى ضرب الاحتلال ومقاومة في سبيل الله.

(18) نقلت صحفية الرأى الأردنية في عددها الصادر في 13/4/1981، نقلًا عن صحفية "يديعوت أحرونوت" أن مستشار يهودي شوّه العرب قال:

"لا تكشف هذه الحركة في الوقت المناسب، لتعرض أمر إسرائيل ومستقبلها إلى خطر عظيم، والآن، وبعد أن نقضها على أعضاء الحركة، سنعمل على تقوية وتعزيز العناصر الإيجابية العربية، التي تؤمن بدولة إسرائيل."

(19) نقلت صحيفة "الرأى" الأردنية في عددها الصادر في 14/8/1981م.

أن مجلة "نيوزويك" الأمريكية مقابلة، أجراها مراسلة نيويورك في نيويورك، السيدة "مارلين دينسي" مع "أهارون باريف" أحد مديري المخابرات الإسرائيلية السابقين، والرئيس الحالي لمركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب.

وعن الأسئلة التي وجهت إلى "أهارون باريف" هذا السؤال:

هل سيكون بمقدور الأقطار العربية على المدى البعيد أن تزيل إسرائيل؟

وكان جواب "أهارون باريف" كما يلي:

(14) الإسلام والعلمانية، 290
لا أعتقد أن العرب - بظروفهم الحالية - يستطيعون أن يزيلوا إسرائيل من الوجود، حتماً مع وجود أسلحة جديدة ومتقدمة، ولكن الأمر قد يصبح أكثر خطورة بالنسبة لإسرائيل في المستقبل، إذا نجت المتحسبون المسلمين في تغيير الأوضاع في الأقطار العربية لصالحهم. ولكننا نأمل أن أصدقاءنا الكثيرون سننجحون في القضاء على خطر التمييز المسلمين في الوقت المناسب.

(20) نشرت صحيفة «السياسة» الكويتية في عددها الصادر في 3/7/1981م، في رسالتها الإخبارية من بلجيكا، أن مخابرات حلف الناتو أعدت دراسة عن الأوضاع في الشرق الأوسط، أكدت فيها استنتاجات اللجنة الثلاثية، التي كانت مؤلمة من الرئيس الأمريكي الأسبق نикسون، وكينجر، والسياسي الاقتصادي الأمريكي روكوكر، والتي أشارت إلى أن العالم الإسلامي سيشهد في منتصف الثمانينيات صورة دينية حقيقية، تعمل على هدف مزدوج، وهو الجهاد لإزالة إسرائيل وإزالة التدخل الأمريكي، والقضاء على المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

وأكدت دراسة مخابرات حلف الناتو ضرورة الإسراع في اتخاذ الإجراءات المناسبة اللازمة للقضاء على جميع بوادر البقعة الإسلامية في المنطقة، قبل استفحال أمنها.

(21) نقلت صحيفة «القبس» الكويتية في عددها رقم 382، الصادر في 12/10/1981م، نص مقابلة إذاعية، أجراها راديو إسرائيل مع مناحيم بيغن، قبل أسبوعين من مقتل السادات، وفيما يلي أهم ما ورد على لسان مناحيم بيغن في تلك المقابلة:

سؤال المذيع: ألا تقلق المصاعب، التي تواجه الرئيس السادات من قبل المعارض؟ ببعض معاهدات كابد ديفيد...

جواب بيغن: إنني أدرك تمامًا الأخطار، التي تهدهد صديقنا الرئيس أنتور السادات، ولست أنتظر حتى حدوثاً موارداً من أولئك المتحسبون المتطرفين، الذين يحملون أفكاراً عدائية لإسرائيل، ويريدون العودة إلى تطبيق قوانين وعادات العصور الوسطى، بل العصور الحجرية.
وعندما كنت في أميركا قام الرئيس السادات بحملة اعتقالات ضد أعدائه من الإخواص المسلمين، وقد سمعت اعتراضات كثيرة هناك ضد هذه الحملة باعتبارها تعارض مع التقاليد الديمقراطية، ولكنني دافعت عن إجراءات السادات بحجة أنها أثبتت أن تساندوا التقاليد الديمقراطية، حين يتعلق الأمر بال المسلمين، وقالت للمعتقلين إنه لو لم يقم السادات بضرب المعتقلين المسلمين في الوقت المناسب، فقد كان من غير المستبعد أن يضربوه في أي حال.

(24) نقلت صحيفة "الدستور" الأردنية في عددها الصادر في 9/9/1981، عن صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية تحليلاً سياسياً، يحتوي كل سطر فيه على تجريش سافر ضد الحركة الإسلامية في مصر. وفيما يلي أهم فقرات هذا التحليل:

- مع نهاية شهر رمضان، تجمهِر أكثر من ألف (1) من المسلمين المتطرفين لأداء صلاة العيد في ساحة مقابلة لقصر عابدين، حيث يقيم السادات، ولم يكن الأمر مجرد أداء صلاة، بل كان مظاهرة عدائية تتعدى السادات وسياسته، خاصة أنها جاءت في وقت يستعد فيه السادات للسفر إلى بريطانيا وأmericا، مما يعني انطاباً بـ "مكرز" في مصر أصبح ضعيفاً أمام المعارضة الدينية.

- أن الجماعات الإسلامية المتطورة تهدف إلى تحويل المجتمع المصري من مجتمع علماني إلى جمهورية إسلامية تبني حكومتها تعاليم القرآن، ومن الطبيعي أنه إذا قامت هذه الجمهورية الإسلامية في مصر، فلن يبق للسادات مكان في السلطة.

- رغم أن السادات مالًا الجامعات والمعاهد المصرية بالبوليس السري وبرجال المخابرات، ورغم أنه أصدر ت качيرات شديدة للمتطرفين بعدم التدخل في الشؤون السياسية، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في إيقاف تقدم الجماعات الإسلامية وانتشارهم.

(1) الواقع أن المصلين في هذه الفترة كانوا حوالي نصف مليون، فقد ارتحل ميدان عابدين على سمعه، وارتحلت كل الشوارع المؤدية إليه، كما شهدت ذلك بنفسها، وكتبت خطيب العيد بوتشف.
في الجامعات والمعاهد المصرية، وإذا أراد السادات أن يتغلب على هذا الخطر، الذي يهدد نظامه، فعليه أن يقوم بعمل أكبر من مجرد إصدار التحذيرات (1)!!! هذه أخبار وأقوال وتصريحات وتحليلات، نقلتها بحروفها من مصادرها، دون أن أعقب عليها بكلمة واحدة، لتحدث حي للقارئ بنفسها. وإن فيها لعبرة لكل ذي لب، وذكرى لم كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.
فهل تقع هذه الأقوال والموثقة كابننا أستاذ الفلسفة، الذي يكابر ويحارب في أشد الحقائق وضوحًا، لعلنا في جرأة يحمد عليها - أنها من أشد الأساطير في حياتنا بطلانًا؟!!
وهل قلت: هذا الصحيح ليل أعيدي العالمون عن الضياء؟!!

* * *

(1) اعتمدنا هذه النقل الموثقة من مصادرها على الدراسة الوثائقية، التي أعدها ونشرها الأخ الفاضل زiad أبو غنيمة، ونشرتها دار الفرقان في عمان. وينبغي أن يضاف هنا ما كتبه الأستاذ عادل حسن في صحيفة الشعب المصرية، التي يتولى رئاسة تحريرها، تقريرًا وتعبيرًا عن موقف أمريكا واليهود من الصحوة الإسلامية، من خلال زيارته لأمريكا، أوائل 1987م.
من هنا نستطيع أن نقول بوضوح وصراحة: "نعم، و" لا " في تلك المشابهات، نثبت حقها، ونتفَّي باطلها.

نعم ... للعلمانية، ولا ... للعلمانية.

نعم ... للدولة الإسلامية، ولا ... للدولة الدينية.

نعم ... للشريعة في ضوء الجهاد، ولا ... للجهاد باسم الشريعة.

نعم ... للحديث في حساب الأصالة، ولا ... للتغريب في ركاب التجربة.

نعم ... للفتوح الفكر، ولا ... للغزو الفكر.

نعم ... للاعتزاز بالدين، ولا ... للتعصب الأعمى.

نعم ... للحوار إلينا، ولا ... للتشكيك الهادف.

وأخيرا، أسأل الله تعالى أن يجعل لنا نورًا تمشي به في الظلمات، وفرقانًا تميز
به بين المشابهات، ومنارًا يهدينا من أهله في مفارق الطرق، وأن يجعل قولنا
عملنا خالصاً لوجهه، فربنا لا تفرعُ قلوبنا بعذ والدَّنياً وهمّ لنا من أَلْدِنَا
رحمة، إنك أنت الوهاب" 1)

(1) آل عمران : 8

213
فهرس الكتاب

الموضوع

الصفحة

المقدمة ......................................................... 3
قبل الحوار ................................................. 11
تحديد الهويات ................................................ 13
ما الحكم عند الاختلاف بيننا وبينهم ؟............. 19
تحديد المفاهيم

(23 - 66)

23 - مفهوم الإسلام
27 - معالم أساسية للإسلام الذي ندعو إليه
42 - مفهوم العلمانية
45 - العلمانية بين الغرب المسيحي والشرق المسلم
47 - مبررات ظهور العلمانية في الغرب المسيحي
54 - فضل العلمانية في ديار الإسلام
57 - العلمانية والعلمية
66 - العلمانية والاندماج

تحديد المعايير

(69 - 90)

74 - العلمانية ضد الدين
76 - العلمانية ضد الدستور

114
العلمانية ضد إرادة الشعب
- العلمانية ضد مصلحة الأمة
- العلمانية مبدأ مستورد

تحرير موضع النزاع
(91 - 107)

- العلمانية والإسلام
- العلمانية والعقيدة
- العلمانية والعبادة
- العلمانية والأخلاق
- العلمانية والشريعة

العلمانية والدعوة إلى تطبيق الشريعة
(109 - 148)

- الشريعة من عند الله
- مبدأ الإحسان
- مبدأ الشورى
- تفسير البشر وتطبيقهم للشريعة لا ينفي إلهيتها
- صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان
- الإنسان بين الثبات والتغير
- الثبات والمورونة في شريعة الإسلام
- الشريعة والحجر على الإنسان
- كيف تطبق الشريعة؟

210
الشريعة وتجارب البشر
(153 - 169)

- التجارب التاريخية للتطبيق الإسلامي ........................................ 153
- ملاحظات على التجارب التاريخية للتطبيق الإسلامي ............... 154
- تنبهات في غاية الأهمية .............................................................. 163
- التجارب المعاصرة للتطبيق الإسلامي ....................................... 165
- اختلاف صور التطبيقات الديمقراطية والاشتراكية .............. 165
- ناقض العلمانيين والماركسين .......................... 169

دفع شهادات ورد مفتريات
(173 - 184)

- العلمانية والطائفية ............................................................... 173
- مصرية .. عربية .. إسلامية ......................................................... 178
- علمانيون ومدينون ................................................................. 184

- قيم الصحوة الإسلامية بين الحقائق والأوهام .............. 187
- موقف الاستعمار والصهيونية من الصحوة الإسلامية ........ 190
- الوثائق والحقائق تتكلم ...................................................... 196

- خاتمة .......................................................... 213
- الفهرس ............................................................ 214

* * *

رقم الإعداد ٤٦٩٦/١٩٩٧ م
الرقم الدولي I.S.B.N
977-225-107-8